التزكية

على منهاج النبوة

المرحلة الأولى

مرحلة الطالبين

الباب الرابع

التزكية الأخلاقية

الأخلاق والآداب في التعامل مع الخَلْق

الدكتور معاذ سعيد حوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾
[الشمس: ٩-١٠]

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها
أنت وليها ومولاها»

أخرجه مسلم

المرحلة الأولى
مرحلة الطالبين

الباب الرابع التزكية الأخلاقية
الأخلاق والآداب في التعامل مع الخلق

تمهيد

لا يكون الإنسان طاهراً زكياً راقياً إلا أن يحرص على الأخلاق الطيبة المحمودة، فيتحلى بها ويتأدب بآدابها، حتى تصير راسخة في نفسه، تظهر في كل موقف من مواقف حياته، وتظهر في كل علاقة ومعاملة مع كل من يتعامل معه.

ولبيان ذلك فسيكون ترتيب موضوعات هذا الباب أن نتحدث عن الأخلاق وما تتضمنه من آداب، ثم نخص الحديث عن معاملات وعلاقات وما فيها من آداب، في فصلين نقدم لهما بمقدمة في تعريف الأخلاق وأهميتها وسبيل التخلق بها.

مقدمة الباب

تعريف الأخلاق والآداب ومكانتها في الدين وأهميتها في الحياة والمعاملات وكيف نوجدها

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** تعريف الأخلاق والآداب
- **المبحث الثاني:** مكانة الأخلاق والآداب، وأثرها في تزكية النفس، وأهميتها في المعاملات الحياتية
- **المبحث الثالث:** كيف تتولد الأخلاق، الخُلُق بالتخلق

المبحث الأول

تعريف الأخلاق والآداب

تعريف الخلق:

الخُلُق لغة: الطبيعة والسجية، ويطلق على طبيعة النفس وأوصافها ومعانيها في باطنها، والخَلْق يطلق على طبيعة النفس في ظاهرها(١).

و**الخُلُق في اصطلاح** أهل التزكية لا يخرج عن المعنى اللغوي، إلا أنه يطلق غالباً على الخلق الحسن.

فالخُلُق: عبارة **عن هيئة أو صفة للنفس راسخة مستقرة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورَوِيَّة**(٢).

ومعنى قولهم: للنفس: أي لقلب الإنسان وباطنه.

فالحالة والهيئة إذا صدرت عنها الأفعالُ الجميلةُ عقلاً وشرعاً؛ سميت خلُقاً حسناً، وإن صدرت منها الأفعال القبيحة؛ سميت الهيئة خلُقاً سيئاً.

والخلق لا يسمى خُلُقاً حتى يكون هيئة راسخة عند الإنسان، قد اتصف بها واستقرت عنده، لأن من يصدر منه بذل المال نادراً بحالة عارضة لا يقال

(١) انظر: لسان العرب ج١٠، ص٨٦ وملخص ما قاله: والخُلُق والخُلْق لغة: الخَلِيقَة، أي الطَّبِيعة والسجية، والجمع أَخْلاق، وحقيقة الخُلُق: أنه لِصورة الإِنسان الباطنة وهي نفْسه وأَوصافها ومعانيها المختصةُ بها، بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأَوصافها ومعانيها، ولهما أَوصاف حسنة وقبيحة، والثوابُ والعقاب يتعلّقان بأَوصاف الصورة الباطنة أَكثر مما يتعلقان بأَوصاف الصورة الظاهرة.

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني، بتصرف يسير.

خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم.

والخلق ليس عبارةً عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل؛ إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء[1].

ومن الطبيعي أن يَنْتُجَ عن صاحب الخُلُقِ الحسنِ الفعلُ الحسنُ السليم الجميل حينما يكون قادراً على ذلك، فلما كانت الأفعالُ الظاهرة الصالحة تتبع الأخلاق الباطنة، فهي داخلة في الأخلاق تبعاً لها ونتيجة عنها.

وهذه الأفعال الصالحة الحسنة تظهر في التعامل مع الناس، ومن هنا كان الكلام عن الأخلاق لا ينفك عن الكلام عن المعاملات مع الناس والخَلْق، فيتأدب الإنسان بالآداب التي تندرج تحت كل خلق في تعامله مع الخَلْق، وبذلك يكون الإنسان مُتَخَلِّقاً ومتحلياً بالأخلاق، بعد أن يكون هذا الخُلُق حالة وهيئة في نفسه، لا مظهراً، لا امتداد له في النفس ولا جذور.

---

(١) وقد نبه إلى هذا المعنى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بأن التخلق وإظهار الخلق من غير أن تكون حقيقته في النفس هو نوع من الكذب، يزيده سوءاً ويشينه، بدلاً من أن يزيده حُسناً وزَيْناً، فقال: «من تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نَفْسه شانَه» وهذه العبارة جزء من رسالة عمر لأبي موسى الأشعري يبين فيها آداب القضاة، أخرجه الدارقطني ٤ ص ٢٠٦، والبيهقي في سننه الكبرى ١٠ ص ١٥٠ بلفظ «ومن تزين لهم»، واللفظ المذكور ذكره ابن منظور، ثم شرحه بقوله: «أي تكلَّف أن يُظهر من خُلُقه خِلاف ما يَنطوي عليه»، لسان العرب: ج١٠، ص٨٦.

تعريف الأدب:

الأدب لا يطلق إلا على جانب الخير، ويطلق على كل ما يتحلَّى به الإنسان ويتأدب به في ظاهره وباطنه، فالفعل الحسنُ يسمى أدباً سواء كان خُلُقاً في النفس أم لا.

ومن حرص على الفعل الحسن والفضائل وحرص على ترك الرذائل والمقابِح يسمى أديباً.

فالأدب في اللغة: سُمِّيَ أَدباً لأَنه يَأْدِبُ الناسَ ـ أي يدعوهم ـ إِلى المَحامِد، ويَنْهاهم عن المَقابح(1).

والأدب في الاصطلاح: الاحتراز عن جميع أنواع الخطأ(2).

وكل فعل صادر عن خُلُق حَسَنٍ يسمى أدباً، فيقال عن كرمه مع الضيف: أدبٌ، ويقال عن كرمه مع أهله: أدب، ويقال عن كرمه مع من يعرفه ومن لا يعرفه: أدب، ويقال عن تصدقه على المحتاج أدب.

ومجموع استعمال أدب الكرم في كل موقف يُشكِّل خلق الكرم، إذا كان محباً له في قلبه وحريصاً عليه، حتى صار حالة راسخة في نفسه.

كما يسمى أدباً إذا تأدب به ـ من حيث ظاهره ـ سواء كان في قلبه الخلق أم لا، فإذا صبر وحَلُم في موقف؛ نقول: تأدب بالحلم، حتى لو لم يكن متحققاً بخلق الحلم.

(1) انظر: لسان العرب ج: 1 ص: 206، ومما قاله: وصاحب الأدب يسمى أديباً، وأَصل الأَدْبِ: الدُّعاءُ، ومنه سميت الدعوة إِلى الطعام مأدُبة، والأَدَبُ: الظَّرْفُ وحُسْنُ التَّناوُلِ.

(2) انظر: الجرجاني، التعريفات: ص 29 رقم 60.

وإذا حَمَلَ نفسَه على أدبٍ ما، وتكلَّفَه وعمل ما يقتضيه في المعاملات؛ يوشك أن يتحقق بالخُلق تخلُّقاً وتكلُّفاً، حتى يرسخ فيه، ويقوى عنده، فالآداب تصنع الأخلاق من هذا الوجه.

والأخلاق تصنع الآداب من حيث أن وجودها في القلب ووجود الرغبة بها؛ يكون سبباً في صدور الآداب عنها.

المبحث الثاني

مكانة الأخلاق والآداب
وأثرها في تزكية النفس وأهميتها في المعاملات الحياتية

أهمية حسن الخلق في دين الله وعند الناس:

ـ إن كل عاقل محب للخير يمكن أن يعرف الأخلاق الحسنة، فهي لا تخفى ولا يخفى جمالها، ولا تخفى أنها بِرٌّ وإحسان، ولذلك فمن كان يريد أن يكون طاهراً جميلاً حسناً راقياً مُقرَّباً مَرْضِيّاً؛ فلا شك أنه يختار الأخلاق الحسنة الصالحة الطيبة الراقية، وبقدر حبه للخير والجمال والرُّقِيّ؛ بقدر ما يحرص على الأخلاق الحسنة، فهناك ارتباط بين التخلق بالأخلاق الحسنة وبين الخيرية، وقد قرر النبي ﷺ هذه الحقيقة فقال: «إِنَّ مِن خِيارِكُم أَحْسَنكُم أَخْلاقاً»(١).

ولما كان طالب التزكية يرغب في أن يكون من خير الناس، فعليه أن يكون من أحسن الناس خلقاً، لتلازم حسن الخلق مع الخيرية والرتب العلية.

وإذا رأى الناس منك خُلُقاً سيئاً واحداً؛ فإن ذلك يعكر صورة جمالك في أعينهم، مهما كانت عندك أخلاق صالحة أخرى، كما يفوتك من الأجر وتنال من الإثم بقدر سوء الخلق الذي تفعله، فالحريص على الخير والكمال؛ يحرص أن لا يدع خلقاً إلا وقد تخلَّق به وتحقق فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٣٣٦٦ و ٥٦٨٨ ومسلم في صحيحه رقم ٢٣٢١، عن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ولفظ مسلم: «أحاسنكم».

وإذا كانت عبادة الإنسان التي يتوجه بها العبد إلى ربه، من صلاة وصيام وذكر وتلاوة قرآن؛ يرجع أجرها إلى صاحبها، والأخلاق أيضاً عبادة يرجع أجرها وثوابها إلى صاحبها، ويتقرب بها إلى ربه، ولكن تتميز الأخلاق عن العبادات بأن الناس يحتاجونها منك، وتحتاجها منهم، وتسعد حياتك وحياتهم بوجودها منك ومنهم.

فإذا كانت العبادة حظاً لك وحقاً لله، فالأخلاق فيها حظ لك وحق لله وحق للناس وحظ لهم، لأجل ذلك فالناس يمدحونك لأخلاقك أكثر من عبادتك، ولا قيمة لعبادتك عندهم إذا ساءت أخلاقك معهم، فالخُلُق شُرِعَ لأجل الناس واستقامة الحياة والمعاملات قال ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن»[1].

إن الحياة لا تصلُحُ ولا تُطاق بغير أخلاق بين الناس، والمعاملات لا تستقيم بغير أخلاق، فأي سعادة لوالد؛ وولده لا يعرف الإحسان والاحترام والأدب؟ وأي سعادة لولد؛ ووالده لا يعرف الرفق؟ وأي سعادة لزوجين بلا صبر ولا تواضع؟ وأي أُخُوَّة تدوم بغير ثقة وحسن ظن؟ وأي عمل ينجح وأي وظيفة تستقيم؛ والعمال يكذبون؟ وأي شعب يَسْعَد؛ إذا كان الحكام لا يعرفون العدل ولا يقيمونه؟

والحياة كلها معاملات؛ معاملات مع الآباء والزوجات والأبناء والإخوان والأقارب والأصحاب، معاملات مع المسلمين والكافرين والمنافقين، معاملات مع الأصدقاء والأعداء، معاملات مع أبناء الوطن ومع

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢١٣٩٢ والترمذي رقم ١٩٨٧، عن أبي ذر ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

أبناء الإنسانية، معاملات مع الحيوانات والأحياء، معاملات مع المحسوسات والجمادات والأدوات.

وفي كل معاملة، وفي كل موقف في الحياة، وفي أي ظرف من الظروف؛ يحتاج كل إنسان إلى الآداب المناسب لذلك الموقف، فإذا التزم الإنسان الأدب في كل ذلك؛ كان ملتزماً تلقائياً بجميع الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها، وكان جميلاً في نفسه وأمام الناس وعند الله.

وإن ترك بعض الآداب في بعض المواطن؛ فقد ترك من الأخلاق بقدر ذلك.

وما من أَدَبٍ يحتاجه الإنسان في حياته، وما من خُلُقٍ يجب أن يتخلق به؛ إلا وقد دلنا عليه ديننا وشرعه لنا، حتى تلك الأخلاق والآداب التي تُدْرِكُ العقولُ جمالَها، حتى لا يبقى لأحد حجة في التقصير بها.

ـ ولما كانت الأخلاق الحسنة مستحسنة عقلاً مطلوبة لذاتها، فالمسلم بفطرته السليمة يحرص عليها، فالأخلاق قِيَمٌ ثابتة، لا تتغير بتغير الأزمان، ولا يمكن أن تكون يوماً حسنة ممدوحة؛ ثم تصير سيئة مذمومة، لذلك لا يفكر العاقل أن يتركها أبداً أو يتنازل عنها.

ويحرص المسلم على الأخلاق الحسنة أكثر من غيره، لأن الله يحبها ويحب أهلها، ولأن الله أمر المسلمين بها، ولأن رسول الله ﷺ حثهم عليها وكان مُتَّصِفاً بها.

فالمسلم لا يحرص على الأخلاق لمصالح مادية حياتية، فلا يترك الأخلاق إذا زالت المصالح، بل يحرص عليها على الدوام، لأنها تقرِّبُه إلى الله تعالى، ولأنها تكون سبباً في رضا الله وثوابه، فحرص المسلم عليها جزء من طاعته لله وعبوديته له، فمن عبودية المسلم أن يختار القول الجميل والكلمة الصادقة

والمعاملة الرقيقة الأديبة والإحسان إلى الناس، ويحرص على كل ما ترغب به العقول السليمة والنفوس الطاهرة من طيب النفس وبعدها عن الخبث وإرادة الشر والأذى.

وهذه الرغبة العامة في حسن الخلق لأجل الله؛ هي النية الكافية بالنسبة للأخلاق، ومن كانت عنده كان مخلصاً في أخلاقه، فلا يشترط أن يستحضر نية عند كل تخلُّق، بل يكفي استحضار حبه للخير بوجه عام.

ـ وحسن الخلق متلازم مع الإيمان، فبقدر زيادة الإيمان يزداد حسن الخلق، فمن ظن أنه ازداد إيماناً ولم تتحسن أخلاقه فليعرف أنه واهم،: قال رسولُ الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَاناً أَحسَنُهُم خُلُقاً، وخيارُكُم خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»(١).

ـ ولما كانت الخيرية مرتبطة بحسن الخلق فطبيعي أن يكون رسول الله محمد ﷺ وهو خير الناس؛ طبيعي أن يكون هو خير الناس أخلاقاً، لذلك مدحه الله بحسن الخلق فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

والله تعالى يحثنا من خلال تقرير ذلك على أمرين:

يحثنا على التعرف على أخلاق رسول الله ﷺ وعظمتها.

ويحثنا على التخلق بأخلاقه العظيمة اتباعاً له، إذ هو قدوتنا ﷺ.

ولقد عَرَف أصحاب رسول الله ﷺ أخلاق رسول الله ﷺ وعظمتها، فقالوا: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسنَ النَّاسِ خُلُقاً»(٢).

(١) حديث صحيح، أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أحمد في مسنده رقم ١٠١١٠، والترمذي رقم ١١٦٢ وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه رقم ٤١٧٦، ولفظ أحمد وابن حبان: لنسائكم، بدل: لنسائهم.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٨٥٠ ومسلم رقم ٦٥٩ و ٢١٥٠، عن أنس رضي الله عنه.

ـ وتزداد أهمية حسن الخلق أيضاً من كونه أعظم أداة في الدعوة إلى الله، فرسول الله ﷺ لم تكن استجابة أكثر الناس له وإيمانهم به بسبب كلامه العلمي المنطقي الحق، ولا بسبب معجزاته، وإنما كانت بسبب حسن أخلاقه، فكان رِفقه وحلمه ولطفه وحسن كلامه جذاباً ومؤثراً، لذلك قال الله تعالى مبيناً لنا فضل رسول الله في ذلك: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فالله يخبرنا أن الرسول على ما عنده من الحق والعلم ينفر عنه الناس إذا لم يكن لطيفاً رقيقاً، فكيف بغيره ممن لا يملك مثل علم رسول الله ﷺ ولا حجته ولا معجزته، كيف يريد من الناس أن يتبعوه من غير خلق ولطف ولين؟

والداعية الذي يكون سيء الأخلاق فاحش الكلام أو متكبراً أو غضوباً يكرهه الناس ولا يتقبلون منه شيئاً ولو كان حقاً، والمسلم العامي إذا كان صاحب خلق فإنه يجذب الناس إلى دين الله ولو كان قليل العلم، كما يحدثنا التاريخ عن أن دولاً كثيرة دخلت في دين الله تأثراً من أخلاق التجار المسلمين وجمالها، واليوم يعرض الناس عن دين الله بسبب سوء أخلاق كثير من المسلمين، يقولون: لا يمكن أن يكون هذا الدين حقاً وأصحابُه سيئوا الأخلاق، فصرنا بسبب فساد أخلاقنا سبباً منفراً من الدين، غفر الله لنا وأصلَحَنا.

الأخلاق أهم من النوافل، وأكبر أثراً في تزكية النفس، وأكثر أجراً بين الأعمال، وسبب عظيم للقرب من الله:

الأخلاق في أكثرها فرائض واجبة مطلوبة، فالصدق واجب دائماً، والعدل واجب دائماً، والبذل والعطاء والكرم واجب أحياناً، ومندوب أحياناً، والتواضعُ وتركُ الكِبْرِ واجبٌ دائماً، والحِلْمُ وترك الغضبِ واجب دائماً، والشجاعة في نصرة الحق وترك الجُبنِ واجبٌ دائماً...

ولما كانت أكثر الأخلاق فرائض؛ فهي أعلى من النوافل وأهمُّ منها، وترتقي بالإنسان وتجعله متصفاً بصفات التزكية كما لو كان من أكثر الناس اجتهاداً في النوافل، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسنِ خُلُقِه درَجةَ الصائمِ القَائمِ»(١).

يظن كثير من الناس أن قيام الليل والصدقة والذكر وغيرها من النوافل هي الأنفع من بين الأعمال والأعظم أجراً؛ لكنهم سيفاجئون أن آدابهم وأخلاقهم أعظم وأنفع، وهذا ما بينه النبي ﷺ بقوله: «ما من شَيءٍ أَثْقَلُ في ميزَانِ الْمُؤْمِنِ يَومَ القِيامة من حُسْنِ الخُلُقِ، وإِنَّ الله لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ(٢)»(٣).

وقد يتكاسل كثير من الناس عن عمل النوافل، لكن صلاح الإنسان وتزكيته ودخول الجنة لا يتوقف على فعل النوافل، فإذا كان عندهم خشية لله تدفعهم للقيام بالفرائض وترك المحرمات، وكانوا من أهل الأخلاق الفاضلة وجدوا ذلك سبباً في نجاتهم ودخولهم الجنة، فقد سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخلُ النَّاس الجَنَّةَ؟ قال: «تَقْوى اللهِ وَحُسنُ الخُلُق» وَسُئِلَ عن أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: «الفَمُ وَالفَرْجُ»(٤).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٧٩٨، عن عائشةَ رضَي الله عنها، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٦٣٩ بلفظ: «... درجات قائم الليل جائع النهار».

(٢) البِذيُّ: هو الذي يَتكَلَّم بالفُحْشِ ورِديء الكلامِ.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٠٠٢ عن أبي الدرداءِ ﷺ، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرج نحوه أبو داود رقم ٤٨٠١ وأحمد رقم ٢٨٢٨٢ وابن حبان في صحيحه رقم ٥٦٩٣.

(٤) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٠٠٤ عن أبي هُريرة ﷺ، وقال: صحيح غريب، وأخرجه ابن حبان رقم ٤٧٦ والحاكم رقم ٧٩١٩ وصحح إسناده وزادا: «الأجوفان».

وكما أن الأخلاق هي من أعظم أوصاف التزكية وكما أنها من أعظم أسباب دخول الجنة؛ فكذلك هي من أعظم أسباب حب الرسول ﷺ لنا وقربنا منه يوم القيامة، والنبي ﷺ لا يحب إلا من يحب الله ولا يُقَرِّبُ إلا من يقربه الله، فالأخلاق أسباب في حب الله والقرب منه، قال رسول الله ﷺ: «إِن مِنْ أَحَبِّكُم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مجلساً يومَ القِيَامَةِ؛ أَحَاسِنكُم أَخلاقاً، وإِنَّ أَبْغَضَكُم إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُم مِنِّي يومَ الْقِيامةِ؛ الثَّرْثَارُونَ[1] والمُتَشَدِّقُونَ[2] وَالْمُتَفَيْهِقُونَ[3]» قالوا: يا رسول الله قَدْ عَلِمْنَا الثَرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ ؟ قال: «المُتَكَبِّرُونَ»[4].

---

(١) (الثَّرْثَارُ): هُوَ كَثِيرُ الكَلامِ، بما لا ينفع، يحب أن يتدخل في كل أمر ويتكلف الكلام فيه.

(٢) (الْمُتَشَدِّقُ): الْمُتَطاوِلُ عَلى النَّاسِ بِكَلامِهِ ويعظم كلام نفسه.

(٣) (الْمُتَفَيْهِقُ): مِنَ الفَهْقِ، وهُو الامْتِلاءُ، وَهُوَ الذي يَمْلأُ فَمَهُ بِالكَلامِ، ويتفصحن، ويأتي بالغرائب من الكلام، ليظهر أنه أفهم من غيره وأعلم وأفضل، فدافعه في الكلام التكبر.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٠١٨ عن جابر ﵁، وابن حبان في صحيحه رقم ٤٨٢ عن أبي ثعلبة الخشني ﵁.

المبحث الثالث

كيف تتولد الأخلاق
الخُلُق بالتخلق

كل أمر طلب الشرع الحكيم القيام به؛ يجب أن يقوم به الإنسان **برغبة وإقبال وتسليم ورضى**، لأنه ما طلب منا إلا الخير والحق، والسبيل لوصول الإنسان إلى الرضا والرغبة بما أمر به الشرع هو **الاقتناع** بهذا الشرع الشريف، والاقتناع بأن كل أمر فيه هو حق وخير ومنفعة لفاعله في الدنيا والآخرة.

فإذا عرف الإنسان الأخلاق وما فيها مِنْ خيرٍ ونفعٍ وُجِدَ في نفسه ما يدفعه إلى التخلق بها، ويحصل ذلك **بمعرفة الأخلاق، والتفكير بجمالها وآثارها** ونتائجها الطيبة على الفرد والمجتمع، أو يحصل ذلك بتذكير أهل العلم والتربية بهذه الآثار الطيبة مع الحث على التحلي بالأخلاق.

فالنفس المستقيمة يكفيها ذلك، أما إذا كانت النفس مُعْوَجَّة مريضة فإنها ترى الحق وتَنْحَرِفُ عنه، فيحتاج صاحبها إلى **مجاهدةٍ وتَصبُّرٍ وتكلُّفٍ وتَصَنُّعٍ وتخلُّقٍ** حتى يَحْمِل نفسه على تلك الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة.

فلا يزال في كل موقف حياتي يُجبِر نفسه على الآداب المناسبة لكل موقف، وعلى الأخلاق المطلوبة في كل معاملة، حتى يعتاد ذلك وينطبع فيه ويصير سجية عنده، فيكون مالكاً لذلك الخلق الذي أتى بكل آدابه في كل مواقفه التي تعرض له، مع الاستعداد النفسي أن يأتي بتلك الآداب ويتحلى بتلك الأخلاق في كل موقف يمكن أن يتعرض له.

فإذا تعامل مع أبيه قدم لوالده التواضع الذي ينبغي لمقام والده، وإذا تعامل مع ابنه قدم له التواضع الذي ينبغي لمقام ابنه، وإذا رفع الناس قدره أو

ارتفع قدره بينهم؛ تواضع في نفسه ولم يستكبر ولم يطغَ ولم يفخر عليهم، وإذا جاءه ضيف قدم له من الكرم ما يليق به بحسب طاقته، وإذا لقي فقيراً أعطاه وتكرم عليه مما آتاه الله، وإذا وقف في أي موقف يثير الغضب تحلى بالصبر والحلم والرَّوِيَّة، فلم يغضب ولم يستعجل ولم يتهور ولم يجاوز حدَّه، وإذا حكم كان عادلاً في ما ولاه الله عليه، وفي كل أمر يواجهه يكون حريصاً على إقامة العدل وعدم التعدي على حق أو تضييعه، وهكذا.

فلا بد من **مصاحبة العلماء**؛ لتعرف منهم ما هي الأخلاق، وما هو جمالها، وما هي الحقائق والمنافع التي تدعو إليها، **وتصاحب الصالحين**؛ وترافقهم وتلازمهم لترى الأخلاق والآداب في أفعالهم وأقوالهم في كل موقف، وتسمع تذكيرهم وترغيبهم بالأخلاق، وترهيبهم من فعل الأخلاق المذمومة، والأباء الصالحون والأصحاب المخلصون لهم دورهم الكبير في التذكير بالأخلاق والتَّمَثُّل بها.

فإذا رأيْتَ الأخلاقَ واقعاً عملياً جميلاً؛ دعاك ذلك إلى تقليدها ومحاكاتها **والاقتداء بأهلها**، فالأخلاق تتشربها النفس برؤيتها ورؤية آثارها من القُدوات الصالحة، **وقراءتك لسيرة النبي** ﷺ تعرفك بالقدوة العظمى صاحب الأخلاق الأرقى محمد ﷺ الذي أمرنا الله أن نتخذه قدوة في أفكارنا وأعمالنا وعباداتنا وأخلاقنا وأحوالنا كلها، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكُلُّ من رجع إلى الله وأحكامه وتخلق بأخلاق نبيه ﷺ؛ كان أهلاً لأن يقتدى به في أعماله وأقواله وأخلاقه، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥].

وإذا كان للصاحب الصالح أثره في انتقال الأخلاق ومحاكاتها في أصحابه، فكذلك الصحبة الفاسدة تؤثر في انتقال الأخلاق الفاسدة، وتتشرب النفس

أخلاق أصحابها بالصحبة والرفقة وتتعلق بأوهامها، حتى قيل: الطِّباع تَسرِق الطِّباع، والصاحِب ساحِب، فمن أراد أن يكون صالح الأخلاق **فليجتنب أصحاب السوء أصحاب الأخلاق الفاسدة المذمومة**، وليحذر من صحبتهم، كما يحرص على صحبة الأصحاب الصالحين المتأدِّبين.

وقد رغبنا النبي ﷺ بالجليس الصالح وبين أثره في انتقال الخير إلى مُجالِسِه، كما حذرنا من الجليس السوء، وبين أثره في انتقال الشر إلى جليسه، قال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»(١).

والإنسان لا يعيش في هذه الحياة بمفرده، فهو يخالط أهل بيته، ويخالط عشيرته، ويخالط الناس في المساجد، ويخالط الناس في دراسته وتعليمه، ويخالط الناس في عمله، ويخالط الناس في الشارع، ويخالط الناس وهو يبحث عن حاجاته، فلا بد أن يميز المسلم من هو أهل لأن يقتدي به ممن يخالطهم، فلا يجعل كل المجتمع أهلاً للقدوة والتقليد، ففيهم الصالح والطالح، وإنما يقلد من عرفهم من الصالحين والأفاضل وأصحاب الأخلاق المستقيمة.

وإذا هيأ الله للإنسان أبوين ملتزمين بالأخلاق والدين(٢)، وعشيرةً ملتزمة بالأخلاق والدين، وصحبة صالحة أديبة؛ فذلك من أعظم ما يساعده على النشأة على الأخلاق الراقية العالية الطيبة، خاصة إذا كان الأبوان يحرصان على تنبيه الولد وتربيته، وكانت العشيرة تضغط على أفرادها للالتزام بالأدبيات الصالحة لا بالتقاليد العمياء.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢١٤ ومسلم رقم ٢٦٢٨ عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) والأخلاق من الدين، وإنما نذكرها من باب ذكر الخاص مع العام، على سبيل التأكيد.

وأما إذا ابتلي الإنسان بأبوين أو عشيرة أو صحبة غير صالحة؛ فعليه الحذر الشديد حتى لا تسري إليه الأخلاق الفاسدة، ولا يتشربها ويقلدها وهو لا يشعر.

ومن **أخطر المؤثرات** على الأخلاق في زماننا **أدوات الإعلام المعاصر**، فمَن تراهم في التلفاز وتسمع كلامهم وترى أفعالهم وتمثيلهم؛ كأنك تخالطهم وتجالسهم، فكثير من الناس **يجالسون التلفاز** في كثير من أوقاتهم، فيستمعون ويشاهدون الغث والثمين، الفاسد والنافع، فيجلسون الساعات إلى المسلسلات والأفلام والبرامج، وهي صحبة، وتؤثر كالصحبة أو أكثر، وكثير من تلك المسلسلات والأفلام والبرامج موجهة للتأثير على الناس تأثيراً سلبياً في عقائدهم وأفكارهم وأخلاقهم وأعمالهم ولغتهم وتعبيرهم، وبعضها يزيِّن الباطل ويُلَبِّس على الحق، وبعضها يستثير الشهوات ويحرك إلى الفواحش، وبعضها يعلِّم حب الدنيا والمال والغفلة عن الله، وبعضها يعلِّم الكلام البذيء والساخر، وبعضها يكذب ويكرر الكذب حتى يصدقه الناس، وبعضها يعيش على النفاق وإقرار الظالم وتبرير جرائمه، وبعضها يضيع الأوقات بكلام تافه أو ساقط، وترفيه غير موجه إلى الخير، وبعضها يغرس عادات غير سليمة، ويروض الناس على قبول أمور غير مشروعة، فيتأثر الصغار والكبار كثيراً بهذه الأمور، وقد لا يشعرون.

فمجالسة التلفاز لأوقات طويلة أو قليلة، في برامج غير منتقاة انتقاءاً سليماً؛ تشكل بيئة مؤثرة على الأخلاق والسلوك، بل على أفكار الناس وعقولهم وقلوبهم وسائر أعمالهم.

والمجتمع بأخلاقياته يشكل ضاغطاً ومؤثراً على الفرد في أخلاقه، فإن كان المجتمع بشكل عام صالحَ الأخلاقِ؛ توجَّهَ الفرد تلقائياً نحو الأخلاق

بيسر وسهولة، ولم يَحْتَجْ إلى مكابدة وتكلُّف في التخلُّق، وإن كان المجتمع يمارس انحرافات أخلاقيات كثيرة؛ فذلك سيتعب الأفراد الذي يسعون إلى الأخلاق السليمة.

وأهم من ذلك كلِّه في صناعة الأخلاق: وِجْهةُ **الدولة** واهتماماتها، فإن كان من اهتماماتها إصلاح أخلاق الناس فهي أقدر من يفعل ذلك، فهي تقدر على توجيه الناس وتعليمهم، وتقدر على تقديم العلماء والصالحين والمربين لِيُذكِّروا الناس بالأخلاق والآداب، وترفع من شأنهم ليقتدي الناس بهم، وتقدِر على تعميم الثقافة اللازمة لرفع مستوى الاهتمام بالأخلاق والحرص عليها، وتستطيع تجييش الإعلام وموظفي الدولة لإصلاح الأخلاق، **وتضع القوانين** التي تفرض الأخلاق والآداب الواجبة **بسلطان الدولة وقوتها وهيبتها**، وتعاقب من يتهاون في الواجب منها، أو يقع في المحظور من الأخلاق والأعمال والتصرفات، وتمنع المفسدين المروِّجين للأخلاق الفاسدة، وتضع لهم حدّاً.

كل ذلك تقدر عليه الدولة وتخطط له وتنظمه وتنفذه من خلال وسائلها المتنوعة، الإعلامية وغيرها، وقنواتها الرسمية الواسعة، وقدرتها المالية الكبيرة.

وأما إذا أهملت الدولة شأن الأخلاق، فذلك ينهار بها في المجتمع، ويصعِّبُ المهمة على طلاب الأخلاق، فكيف إذا كانت الدولة ساعية إلى تغيير القيم والأخلاق وتضييعها وتغيير ثقافة العيب، وفتح الباب للمفسدين والتافهين ليفسدوا ويشوهوا أخلاق الأمة وقيمها، وكيف إذا فتحت الدولة لهم قنواتها الرسمية والإعلامية ودعمتهم بالأموال الطائلة ووضعت القوانين لحمايتهم، وجعلت لهم حقوقاً تحافظ عليها وتدعمها وتعاقب من يعارضهم.

نسأل الله أن يعين المصلحين المخلصين على الإصلاح والتغيير، ونسأل الله للصادقين أن يُعينهم ويُيَسِّر لهم أسباب الاستقامة وصلاح الأخلاق.

ـ قد تكون بعض الأخلاق المحمودة عند بعض الناس سجية وطَبْعاً منذ الطفولة، أو خِلْقَة خلق الله الإنسان عليها، أو وراثة انتقلت إليه من آبائه، ويشهد لذلك ما روي أن الأشَجّ جاء «يمشى حتى أخذ بيد النبي ﷺ فقبلها، فقال له النبي ﷺ: أما إن فيك لخُلُقَين يحبهما الله ورسوله، قال: **جِبِلاً جُبِلت عليه؟**(١)، **أو خُلِقا معي** ؟ قال: لا بل جِبِلًا، قال: الحمد لله الذي جَبَلني على ما يحب الله ورسوله»(٢)، وفي رواية: «قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا؟ أَم اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا، قَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»(٣)، ولعله حَمِدَ الله تعالى على كونها خِلْقَةً جِبِلِّيَّةً فيه؛ لأنها أرسخ وأقوى في النفس من التي يتكلفها الإنسان.

وقد يكون عند الإنسان أخلاق؛ لكنه يحتاج أن يبذل جهداً لتحصيل أخلاق أخرى.

وحينما تكون الأخلاق خِلقة فإنها تكون أمكن في نفس صاحبها، ولا

---

(١) أي: أخِلْقَة خُلِقْت عليها ؟ فهي طبع عندي.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٥٨٧ وهذا لفظه، وأخرجه نحوه أبو داود رقم ٥٢٢٥ والنسائي في السنن الكبرى رقم ٧٧٤٦ وابن حبان رقم ٧٢٠٣ والطبراني في المعجم الكبير رقم ١٧٢٠٠، وقد روى أصل الحديث مسلم رقم ١٧، ولفظه: أن النبي ﷺ قال للأشجِّ أشجِّ عبدِ قيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»، وجاءت بعض الروايات بلفظ: «الحلم والحياء».

(٣) أخرجه أبو داود رقم ٥٢٢٥، وجاءت بعض روايات الحديث بلفظ: «كان قديمًا أو حديثاً»، أي الخُلُق قديم مخلوق معه، أم تَخَلَّق به فهو حديث وجديد عنده.

يحتاج إلى جهد في تحصيلها، كما لا يحتاج إلى جهد كبير في المحافظة عليها والتأدُّب بها.

والذي لا يملك الخُلُق خِلْقة إذا حرص على الخُلُق وألزم نفسه بآدابه والتحلي به؛ حتى يصير سجية فيه؛ فإنه يكون في تَخَلُّقِه كمِثل الذي خُلُق فيه الخُلُق خِلقة.

بل إن صاحب الخُلُق خِلْقة إذا لم يحرص على المحافظة على هذه الأخلاق والتأدب بآدابها، فإنها تنقص شيئاً فشيئاً حتى يفقدها صاحبها، فيحتاج عندئذ إلى جهد كبير جديد وتكلُّف ومجاهدةٍ لإرجاعها، كجهد الذين لا يملكونها.

وكثير من الناس يولد ومعه أخلاق محمودة كثيرة، لكن عدم الرعاية والتربية السليمة، مع البيئة الفاسدة؛ تُغَيِّرُ هذه الأخلاق، فلا يكاد يكْبُرُ الولدُ إلا وقد ضاعت الأخلاق وتغيرت عنده لعدم تعهدها.

ـ ومع كل هذه الأسباب **يتوجه العبد المؤمن بالدعاء إلى الله** طالباً منه أن يوفقه إلى التخلق بأفضل الأخلاق الحسنة، فلا خير إلا بتوفيق الله وهدايته، قال ﷺ: «واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سَيِّئَها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»(١).

(١) أخرجه مسلم رقم ٧٧١ عن علي رضي الله عنه، وهو جزء من حديث فيه دعاء طويل وثناء على الله كان يقوله النبي ﷺ حينما يقوم إلى الصلاة في الليل.

الفصل الأول
الأخلاق المحمودة وآدابها وما يحقق بها والأخلاق المذمومة

وفيه عشرة مباحث:

- **المبحث الأول**: الصدق وترك الكذب.
- **المبحث الثاني**: الأمانة وترك الخيانة.
- **المبحث الثالث**: العدل وترك الظلم.
- **المبحث الرابع**: التواضع وترك الكِبْر.
- **المبحث الخامس**: الصبر وترك الغضب والتسرع والانتقام بغير حق.
- **المبحث السادس**: الكرم وترك البخل.
- **المبحث السابع**: العفة وترك الشهوات المحرمة.
- **المبحث الثامن**: الحياء وترك الوقاحة.
- **المبحث التاسع**: الرحمة والإحسان وترك الشدة والقسوة والإساءة.
- **المبحث العاشر**: الشجاعة وترك الجُبْن.

تمهيد

ـ كل خُلُق محمود له طرفان، فإذا تجاوز حدَّه إلى الزيادة خرج عن حد المدح والخلق الحسن، وإذا تراجع عن حدِّه إلى النقصان صار مذموماً، فالكرم وسط بين الإسراف والتبذير وبين البخل، والحياء وسط بين الوقاحة والرعونة وبين الخجل، والعفة بين الجلافة والعبوسة وبين الشهوة والطمع، والصفح بين الشدة في التأديب وبين التهاون والإهمال في التربية، والنصيحة بين الفضيحة وبين التضييع وعدم المبالاة، والصبر بين البلادة والبرودة وبين الجزع، والشجاعة بين التهور وبين الجبن، والإنصاف بين إساءة الظن وبين السكوت عن السوء المحقَّق، وهكذا، حتى الصدق فطرفه الناقص هو الكذب، وحدُّه الزائد أن يَغْلُوَ في الحق، فيبالغ في إقراره بوصفه بما هو زائد عن حقيقته مما ليس فيه، وأن يَصْدُق فيما أمره الله أن يكتمه من الصدق كالغيبة وأسرار المسلمين.

وكل خُلُق صالح محمود إذا خرج عن حدِّه؛ صار خلُقاً مذموماً.

ـ إذا أردت أن تتحقق بالأخلاق الصالحة؛ فاحرص على إدراك معناها وحقائقها وجمالها، وانظر كيف حثنا اللهُ عز وجل ورسولُه ﷺ عليها، وتعلَّم آدابها وأعمالها الناشئة عنها، واحرص على العمل بها، وعلى مجاهدة نفسك وحَمْلِها على العمل بها والتحقق فيها، مع الحرص على ترك الأعمال الراجعة إلى الأخلاق المذمومة السيئة أو الناتجة عنها.

المبحث الأول

الصدق وترك الكذب

معنى الصدق:

خُلُق الصدق أن يقول الإنسان ما يوافق الحق ويطابق الواقع.

الصدق أعظم الأخلاق وأهمها، وهو فريضة من أعظم الفرائض، لذلك لا يجوز لإنسان ولا لمسلم أن يتهاون فيه، وعلينا أن نُشِيعَه في المجتمع كله، وأن نحرص عليه، وأن نعلمه لأبنائنا، وأن نحارب الكذب والكاذبين، ونحذَر منهم أشد الحذر، ونُحذِّر منهم أشد التحذير.

ولا يقتصر الصدق الواجب على صدق اللسان والكلام، بل يدخل في كل شيء، كالاعتقاد والأفعال، فمن الصدقِ الصدقُ مع الله بالاعتراف بوجوده وصفاته، وما يقتضيه من طاعة وعبادة له وحده، ومن الصدقِ الصدقُ مع رسول الله ﷺ بالاعتراف بصدقه ومكانته وحقه بأن يُتَّبَع، والصدق بهذا المعنى حال من أحوال القلوب ينتج عنه أفكار وأعمال وأقوال، وهذا هو الصدق الذي من عمل به وتحراه وبحث عنه وعمل به؛ يصير صِدِّيقاً، ولكن الصدق الذي هو خُلُق؛ هو الصدق الذي يُحتاج إليه في التعامل مع الخَلْق، وهو صدق الكلام، وقد يلتحق به غيره تبعاً، ومن حرص على صدق القلب حرص على الصدق بلسانه.

أهمية خُلُق الصدق وخطورة الكذب:

من كان صادقاً وثق به الناس وائتمنوه على أعمالهم وأموالهم، فهو يريح

الناس كما هو مرتاح ومطمئن بصدقه، قال النبي ﷺ: «دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طُمأنينة، وإن الكذب رِيبة»(١).

فالصدق طمأنينة وسكون وراحة في نفس صاحبه، لا يخاف ولا يضطرب، لأنه لم يُزَوِّر، والصدق طمأنينة في المجتمع، لأن الصادق يريح غيره، ولا أذى منه ولا إفساد، ولا غش ولا كذب، فيطمئن الناس إليه ويرتاحون إليه.

فَرْض الصدق:

ـ أوجب الله علينا الصدق واتباع الحق، وأمرنا النبي ﷺ بالصدق وبين لنا أنه طريق إلى الجنة، وحرم علينا الكذب، فنهانا النبي ﷺ عن الكذب وبين أنه طريق إلى النار، قال ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى(٢) الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(٣).

والحديث يدل على أن من يحرص على الصدق؛ فإنه يصل إلى أعلى الدرجات وأكمل المقامات، إلى مقام الصديقية.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٨، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) يتحرى الصدق: أي يبحث عنه ويقصده ويلازمه ويصرُّ عليه، ويخشى الانحراف عنه.

(٣) أخرجه مسلم بهذا اللفظ رقم ٢٦٠٧، والبخاري نحوه ٥٧٤٣، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي رواية عند مسلم: «إن الصدق بر... وإن الكذب فجور».

تحريم الكذب:

- إن تحريفَ الحق وتحويلَه إلى باطل، أو تحويلُ الباطل إلى حقٍّ أمرٌ مرفوضٌ لذاته، لأن تبديل الحقائق وقَلْبَ الأمور مفسدة محرمة لذاتها، كما هو مفسدة محرمة لنتائجها وآثارها السيئة، فالكذب وتزوير الحقائق لا تصلح معه الحياة، ولا يكون معه استقرار ولا أمن ولا ثقة، فكيف تتفاهم البشرية إذا كان ما يتكلمون عنه في كل شيء غير مطابق للواقع والحق، ثم إن كل تصرف يُبنى على الكذب لا يكون سليماً، فالحياة مع الكذب تسير سيراً منحرفاً باطلاً.

لذلك حرم الله الكذب وسماه زوراً، لأن الكذب تزوير وتحريف وتبديل للحقائق، قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، أي الكذب، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وطَلَبُ المسلمِ للحق الذي به يسير إلى السلامة والنجاة والصواب؛ يدفعه إلى الصدق في كل موقف من مواقف حياته وفي كل كلمة من كلماته، ويدفعه إلى تجنب الكذب صغيره وكبيره، في سلوكه ومعاملاته، بل حتى فيما يُحَدِّثُ به نفسه.

وقد بين النبي ﷺ عقوبة بعض الكاذبين في رؤيا رآها، رأى فيها بعض المذنبين وعقوباتهم، وشِدةُ العقوبةِ دليلٌ على شدة التحريم، قال ﷺ: « ... وَإِذَا آخَرُ[1] قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ[2] مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِر

---

(١) أي من ملائكة العذاب.

(٢) الكلوب: أي الحديدة المدببة المنحنية التي تُغْرز في اللحم ويُعَلَّق عليها بعد ذبح الأنعام.

شِدْقَهُ[1] إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ[2]، قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى، قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقْ... وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، **فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ**»[3].

الأساس الذي يصنع خُلُق الصدق:

حتى يكون الإنسان صادقاً في كلامه؛ فلا بد أن يكون حريصاً بقلبه على معرفة الحق، وباحثاً بعقله عنه، وحريصاً على نقله كما هو إلى غيره.

وكلُّ إنسانٍ يجب أن يحرص على الصدق وتركِ الكذب، لأن كلمة الصدق حق، تطابق الواقع الذي يتحدث عنه، والإنسان العاقل والمسلم يبحث عن الحق دائماً، ويعلم أن نجاته به، **فصِدْق الإنسان راجع إلى حرصه على الحق.**

لذلك جاء الأمر بطلبِ الحق وقولِ الحق في القرآن أكثر من الأمر بالصدق، لأن الصدق داخل فيه، فأمرنا الله بالإيمان بالحق واتباعه، وبعث إلينا أنبياءه بالحق والصدق، قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ١١٩]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى

(١) شدقه: أي جانب فمه.

(٢) جاء في الصحيح هنا: «قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيُشَقُّ» وأبو رجاء هو أحد رجال الإسناد.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري رقم ٦٦٤٠ عن سمرة بن جندب ﷺ.

لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾[يونس: ١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥] وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وحذرنا الله من كتمان الحق وتلبيسه وتمويهه وتشويهه ومخالفته وتركه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢]، ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [النساء: ١٧١].

ودين الإسلام كله صدق وحق، فمن آمن به فقد صَدَق وصَدَّق بالحق، ولذلك سمى الله الإسلام حقاً، ليبين أن من لم يُصَدِّقْ به فهو كذابٌ ومُبطِل، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

ـ وحتى يصير الإنسان صادقاً؛ فلا بد أن يتكلف آداب الصدق ويحرص عليها، ويحمل نفسه عليها، فإذا ألزم نفسه بالصدق في كل ظرف ووقت، وإذا ألزم نفسه بآداب الصادقين؛ بدأ يتحقق بخلق الصدق حتى يصير بعد حين سجية، لا يحتاج إلى تَرَوٍّ ولا إلى تفكير في صدوره عنه.

من آداب الصادق

١. من أهم آداب الصادق: **عدم الكذب على الله** عند الكلام عن وجوده أو صفاته أو أفعاله أو غيبه أو دينه وأحكامه، وهو أخطر الكذب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٨]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وحرصاً على هذا الصدق يجب أن يتحرى المسلم عدم الخطإ في ما يَنسب إلى الله من صفة أو فعل أو قَدَرٍ أو أحكام.

فإذا تكلم الصادق عن الله لم يتكلم بغير علم ويقين، ولا يجوز الكلام في حق الله بالظن والشك، فقد قال الله تعالى عن الذين يتكلمون في حق الله بغير حق ويقين: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦]، وقال تعالى فيمن يَدَّعون وجودَ آلهةٍ غيرِ الله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال فيمن يَدْعُون غيرَ الله ويظنونهم يعطون عطاء الله، ولا عطاء إلا من الله مالك السموات والأرض: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(١)﴾ [يونس: ٦٦]، وقال سبحانه عن الذين يتكلمون في ملائكته، وهم من الغيب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا

(١) يخرصون: أي يكذبون ويفترون ويتحزرون.

يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [النجم: ٢٧-٢٨].

وإذا تكلم الصادق عن شيء في حق الله؛ لماذا قَدَّرَه الله، وما حقيقته عند الله، فلا يجوز أن يقول بالظن، ويقطع به وكأنه متيقن، ما لم يكن فيه دليل قطعي يدل عليه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال تعالى معاتباً الذين لم يعرفوا حكمة الله فظنوا به سوءاً: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾[الأحزاب: ١٠-١١].

ولا يجوز أن نُدخِل الهوى في الحكم على أفعالِ الله وحِكَمِه، فإذا مرض واحد من أحبابنا أو أصيب بأذى قلنا: ابتلاء أو تكفير أو ترقية، وإذا أصيب من لا نحب قلنا: عقوبة وانتقام، فتلك أمور علمها عند الله لا يجوز أن نجزم لأحد بها.

وإذا سئل الصادق عن حكم شرعي وهو غير متأكد منه فيجب أن يبين أنه غير متأكد، فالله تعالى وصف الذي يفتون بخلاف أمره مُفْتَرِين، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩-٦٠].

فأعظم الكذب هو الكذب على الله والافتراء عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وتعبير الآية يُشعِر بأنه لا كذّاب إلا هؤلاء؛ إشعاراً بأنه أخطر الكذب وأكبره وأكثر إثماً وضلالاً وعقوبة.

٢. ومن أدب الصادق: **عدم الكذب على رسوله ﷺ بنسبة أقوالٍ وأحاديثَ إليه لم يَقُلْها،** قال ﷺ: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد غيري، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(١)، فعلى الصادق أن يتأكد من صحة الأحاديث التي يرويها عن رسول الله ﷺ، وخاصة العلماء فلا يعلمون الناس أحاديث موضوعة، ولا يتحدثون بأحاديث ضعيفة، يمكن أن يكون النبي ﷺ قالها أو لم يقلها، فإذا ذكر شيئاً منها فليبين للناس ضعفها وأنها لم تثبت ويحتمل عدم قول النبي ﷺ لها.

٣. ومن أدب الصادق: **أن لا يغاليَ في الأمور ولا يبالغَ فيها ولا يزيدَ،** لا سيما في أمور الدين، فيجب أن يثبت الأمور كما هي من غير زيادة، فالغلو في الشيء يخرجه عن حد الصدق والحق، ويصل به إلى حد الباطل والكذب والطغيان، بل قد يصل به إلى حد الكفر والشرك، كالذين يغالون في حق الأنبياء والأولياء فيصفونهم ببعض صفات الله، أو ينسبون إليهم ما لا يَقدِر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٢٢٩ ومسلم رقم ٤ عن المغيرة ﷺ.

٤. ومن أدب الصادق: أن **لا يتكلم في الأمور الخطيرة والمؤذية للناس إلا** بعلم وبحق وبإذن من الشرع، فمثلاً لا يجوز أن يتكلم في أعراض الناس ويتهم الناس بالزنا ما لم يكن متيقناً من ذلك ومعه ثلاثة شهود، قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣]، ولا يجوز أن يفعل جريمة ثم يتهم بها غيره، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١١٢]، والبهتان من أسوإِ الكذب، وهو أن يتهم إنساناً بما لم يفعل، كذباً عليه وافتراءاً، وأخطر منه حينما يكون شهادة بالباطل ويميناً غموساً[١]، فيُضَيِّعُ الحقَّ على إنسانٍ، ويجعله لمن ليس له.

٥. ومن أدب الصادق: **الوفاء بالوعد**: بأن يحافظ على وعده، ويقيد نفسه به، ولا يتخلف عنه، ولا يتهاون في الموعد، إلا لضرورة قاهرة، وعند الضرورة إذا استطاع أن يعتذر من موعده من خلال الهاتف أو غيره فعليه أن يفعل ذلك حرصاً منه على صدقه.

ومن ذلك أن يحرص العمال والموظفون والمسؤولون والشيوخ والعلماء والطلاب على مواعيد اللقاءات ومواعيد الأعمال ومواعيد الدروس ومواعيد تنفيذ القضايا والأمور، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٢].

٦. ومن أدب الصادق: أنه **يصدق ولو كان الصدق خلاف مصلحته** الدنيوية الظاهرة، فيصدق في شهادته على نفسه وأقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

---

(١) اليمين الغموس: تغمس صاحبها في النار، وذلك من الكبائر.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٣ ومسلم رقم ٥٩ عن أبي هريرة ﷺ.

ويصدق في وصف قدرته على العمل، ووصف عمله، ووصف سلعته التي يبيعها، ولو كان ذلك سبباً في تقليل أَجْره أو ثمن بيعه، لذلك أمرنا النبي ﷺ أن لا نحلف على بيع السلعة خشية الوقوع في الكذب، فيدخل علينا المال الحرام من ذلك، قال ﷺ: «الحَلِفُ منْفَقَةٌ للسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ للْبركةِ»(١)، وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ، ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِم، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قال: فقرأها رسولُ الله ﷺ ثلاث مِرَارٍ، قال أَبو ذَرٍّ: خابُوا وخسِرُوا مَنْ هُمْ يا رسول الله ؟ قال: « المُسبِلُ(٢)، والمنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكاذِبِ»(٣)، وقال ﷺ: «إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب، فشوبوه(٤) بالصدقة»(٥).

وبين لنا النبي ﷺ أن الصدق في البيع سبب في البركة والخير والزيادة، وليس سبباً في النقص، كما يتوهم بعض الناس، قال ﷺ: « البيِّعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صَدَقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كَتَما وكذبا مُحِقَت بركةُ بَيْعِهما»(٦).

ومن الصدق الذي هو خلاف المصلحة الدنيوية، وهو واجب لأنه صِدْقٌ يقيم العدل ويُؤثِر الحق: صدق المحامي فيما يتقبله من قضايا يدافع عنها، بحيث

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٩٨١ ومسلم رقم ١٦٠٦ عن أبي هريرة ﷺ، وقال مسلم: للربح، بدل البركة.

(٢) أي المسبل إزاره: أي الذي يطيله تكبراً.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٠٦ عن أبي ذر ﷺ.

(٤) الشَّوب: الخلط، أي تصدقوا بشيء من أموالكم كفارة عما يقع منكم من لغو وحلف وكذب، خطأً.

(٥) حديث صحيح، أخرجه الترمذي ١٢٠٨ وأبو داود رقم ٣٣٢٦ والنسائي رقم ٣٨١٤ وابن ماجه رقم ٢١٤٥ وأحمد رقم ١٦١٣٥ والحاكم ٢١٣٨ وصححه، عن قيس بن أبي غَرَزَة ﷺ، وبعضهم يرويه بلفظ: «اللغو والحلف».

(٦) أخرجه البخاري رقم ١٩٧٣ ومسلم رقم ١٥٣٢، عن حكيم بن حزام ﷺ.

لو طالبه مجرم أو ظالم أن يحامي عنه ويرافع له في قضية لينجيه من جرم، فأعطاه المجرم سِرَّه واعترف بجريمته له، وطالبه أن يُزَوِّر الحق ويناصر الباطل، ويدفع عنه بغير حق، ووعده على ذلك مبلغاً من المال، فلا يجوز للمحامي أن يَقْبَل، وهو يعلم أن قضيته كاذبة، ولا أن يأخذ المال فهو حرام، ويجب على المحامي أن يتحول شاهداً ضده، وجوباً.

ويدخل ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

٧. ومن صدق المسلم في معاملته: **أنه لا يُزَوِّر ولا يغرر ولا يغش ولا يخدع**، بل ينصح من يشتري منه، قال ﷺ: «من غش فليس منا»(١)، وقد ذكر بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم بايعوه على النصح لكل مسلم(٢)، ولذلك اتفق العلماء على عدم جواز بيع الشيء المَعِيب إلا أن يبين البائع عيبه أو يشير إلى أن فيه عيباً على الأقل.

٨. ومن أدب الصادق: **أن يصدق في أداء عمله بحسب ما وَعَدَ واتفق وتعاقد**، وبحسب ما يتعارف عليه الناس عند عدم الاتفاق، ويؤدي العمل بالإتقان الذي يريده الناس ويفرحون به، لذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة:١]، وقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(٣) أي يتقنه بحسب ما يُصلِح الأمر، وبحسب ما يحب الناسُ، وبحسب الاتفاق.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٠١ وفي رقم ١٠٢ قال: ليس مني، والترمذي رقم ١٣١٥، وأبو داود رقم ٣٤٥٢، وابن ماجة ٢٢٢٤، كلاهما بلفظ: «ليس منّا من غش»، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٥٦٦ ومسلم رقم ٥٦ عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٣) حديث حسن، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٥٣١٢ وأبو يعلى رقم ٤٣٨٦ والطبراني في الأوسط والكبير عن عائشة رضي الله عنها.

والعقود الشفوية يجب الوفاء بها، ولا يجوز التهرب منها، أو ادعاء عدم حصولها بحجة أنها لم تسجل رسمياً، فالعقد سواء كتب أم لم يكتب، سواء شهد عليه شهود أم لم يشهدوا؛ هو عقد شرعاً، ويجب الوفاء به.

٩. ومن أدب الصادق: **الوفاء بالعهود والمواثيق**، مع الله سبحانه ومع خلقه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ومنها عهد الإسلام مع الله(١)، وعهد المسلمين مع خليفتهم(٢)، وعهد المسلم مع الشيوخ الصالحين على أعمال الخير أو على سلوك طريق الإحسان، وعهد المسلم مع الجماعات المستقيمة على إقامة الدين، وعهد الزواج بحسن المعاشرة والخلق، وغيرها من العهود.

وحتى يكون الإنسان وفياً بالعهود فلا يجوز أن يعاهد إلا في أمر حق وخير وطاعة، حتى لا يضطر إلى نقض عهده، إذ لا يجوز إبرام عهد على باطل وشر ومعصية، ولا يجوز الوفاء به.

والنذر واليمين هما في معنى العهد مع الله، فيجب على المسلم الصدق

---

(١) وقد جاء في الدعاء الذي سماه النبي ﷺ سَيِّدَ الاستغفار: «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت» أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٧، فحينما يُسْلم الإنسان فقد عاهد الله ـ بإسلامه ـ أن يستسلم ويلتزم بما أمر الله به، وينتهي عما نهى عنه.

(٢) وقد أمر النبي ﷺ بالتزام هذا العهد ما دام الخليفة ملتزماً بالقيام بحق المسؤولية التي عاقده عليها الناس وقائماً بمصالحهم في قوله ﷺ: «مَن خَلَعَ يداً من طاعة لقيَ اللهَ يوم القيامة لا حُجةَ له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» أخرجه مسلم رقم ١٨٥١ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرج نحوه أحمد رقم ٥٣٨٦ وابن حبان رقم ٤٥٧٨ بلفظ «مَن نَزَع».

فيهما، والوفاء لهما، ومن صدق المسلم أنه إذا شك في قدرته على الوفاء بهما أن لا ينذر أصلاً، ولا يحلف على فعل أمر أبداً، حتى لا يعرض نفسه لغضب الله والكذب عليه، قال ﷺ: «لا تنذروا» وقال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩].

١٠. ومن أدب الصادق: **أنه لا يكذب في المزاح والمداعبة ورواية الطرائف والنُّكَت**، والنبي ﷺ قدوتُنا كان لا يتكلم إلا بالحق والصدق في كل أحواله، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقاً»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ للذي يحدث بالحديث لِيُضْحِكَ به القومَ، فيَكذِبُ، ويل له، ويل له»[2].

١١. ومن أدب الصادق: **أن لا يقول كلمة إلا وقد تأكد منها**، وعدم تأكيد كلمة أو معلومة إلا إذا كان متيقناً من صحتها، فإن لم يكن متأكداً أبان للسامع أنها مشكوك فيها أو أنها يغلب على الظن صحتها أو عدم صحتها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، فالمسلم يتأكد من كلامه، وإذا جاءه كلام مشكوك فيه فمن الصدق أن يتأكد منه، لا أن يُرَوِّجَه ويُشِيعه وهو مشكوك فيه، وربما كان كذباً وباطلاً.

وقد يأثم الإنسان حينما يتكلم بالظن والشك، لأن ظنه قد يوافق الواقع

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٩٩٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقوله: «تداعبنا»: أي تُمازِحُنا وتُلاطِفُنا.

(٢) حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٤٩٩٠ والترمذي رقم ٢٣١٥ وحسنه والنسائي رقم ١١٦٥٥ وأحمد ٥/ ٥ والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٤٨٣١، عن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه.

والحق، فيكون باطلاً وكذباً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وبعض الناس يتساهلون في الظن، فيتكلمون به وكأنه حقيقة، أو يتعاملون على أساسه، وما هو إلا احتمال، فبين النبي ﷺ أن الكلام بالظن ليس بأهون من الكذب، بل هو أشد الكذب، فقال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[(١)]، فلا يجوز أن يعتقد أحدنا في نفسه عن إنسان شيئاً أو يتهمه بمجرد الظن، لا سيما وقد أُمِر المسلم بأن يحسن الظن بالمسلمين ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

قد يترك أحدنا الكذب فلا يتعمده، خوفاً من إثمه وجريمته، لكنه لا يترك الكلام بالظن، لأنه يعتقد أن ما في نفسه مُبَرِّر ليتكلم بما ظَنَّه، فيستبيحه ويتساهل في الكلام به، فيقع في حقيقة الكذب؛ لأن بعض الظن لا يكون حقاً، وحينما جَزَم به وهو ظَنٌّ؛ فقد كذب بذلك أيضاً، فكان الظن والحديث بالظن مفتاحاً للكذب، لأن كثيراً ممن لا يكذبون يقعون فيه، فجاء التشديد في تركه.

والكاذب يعلم أنه كاذب، وهذا الذي تكلم بالظن الذي لا يوافق الواقع يكذب، ويرى نفسه صادقاً، وكأنه لم يفعل شيئاً.

١٢. ومن أدب الصادق: أنه **لا يتحدث بكل ما سمع**، فمَن يَنقُل جميعَ ما يسمع فقد يكون في بعض ما نَقَل مما سَمِع كذب أو خطأ أو عدم دقة؛ فيقع في الكذب من حيث لا يعلم، وقد يقع في خطأ النقل أحياناً، فيقع في الكذب من حيث لا يريد، ومن هذا الباب جاء قول النبي ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧١٩ ومسلم رقم ٢٥٦٣، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٥ في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه عنه أبو داود رقم ٤٩٩٢ وابن حبان رقم ٣٠ والحاكم رقم ٣٨١ بلفظ «إثماً» بدل «كذباً».

١٣. ومن أدب الصادق: **الحذر من الإشاعة الكاذبة**، والحذر من أن يكون سبباً في إشاعة خبر غير أكيد، فإذا سمع أمراً أو خبراً لم يحدث به ولم ينشره حتى يتأكد منه، ويرده إلى من يعلمُه أو يقدرُ على التحقق من صدقه.

وإذا التزم المجتمع كله بهذا الأدب الواجب؛ كان مجتمعاً نظيف الثقافة سليم المعلومة، أما المجتمعات التي تفشو فيها الإشاعة؛ فهي مجتمعات تعيش على الوهم والثرثرة، وتشغل أنفسها بما لا ينفعها، بل بما يضرها ويثير فيها الشكوك والمخاوف.

ومن صدق المسلم أن يكون منصفاً، فلا يجوز للمسلم أن يَقْبَل الإشاعةَ في خصومه من غير دليل ولا تأكد، وإذا أشيع حوله شيء طالب بالدليل.

قال ﷺ: «لو يعطى الناس بدعواهم؛ لادَّعى ناس دماءَ رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدَّعَى عليه»(١).

كما يدل على تحريم الإشاعة؛ الأدلة التي سبقت، من النهي عن القول بالظن، والنهي عن الحديث بكل ما يسمع الإنسان، والأمر بالتثبت من أقوال الفاسقين.

١٤. ومن أدب الصادق: **الصدق في وصف الآخرين ومدحهم**، لا سيما وحقيقة أحوال الناس غيب عنا، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، فلا نجزم بوصف الواحد من الناس، بل نقول: نحسبه ونظنه، كما علمنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسبُ فلاناً والله حسيبهُ، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبهُ ـ إن كان يعلم ذاك ـ كذا وكذا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٧١١ والبخاري نحوه رقم ٤٢٧٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٥١٩ ومسلم رقم ٣٠٠٠، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه.

١٥. ومن أدب الصادق: أن **لا يكون ذا وجهين**، فالمسلم صريح، في مجتمع لا يَتَمَلَّقُ ولا يُراوِغ ولا يُزَوِّر، ولا يتظاهر لناس بشيء وهو ينظر إليهم خلاف ذلك، ولا يتظاهر بالمودة والصداقة والنصيحة وهو يُضمِر الحقد والكيد والغش، ولا يتظاهر لناس بشيء ثم يشوه صورتهم عند الآخرين، ولا يتظاهر للناس بشيء وحقيقته شيء آخر، فمن الكذب أن يقول شيئاً خلاف ما يعتقد، أو يقول قولاً يكذبه في نفسه: قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ❁ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ❁ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

ومن أسوإ الكاذبين من يكون ذا وجهين، قال ﷺ: «تجدون الناس معادِن، خِيارهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا، وتجدون خيرَ الناس في هذا الشّأن أشدَّهم له كَراهِيَةً[١]، **وتجدون شر الناس ذا الوجهين** الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[٢].

١٦. ومن أدب الصادق: أن **يَصْدُق مع الكبير والصغير**، مع كل الناس، لأن صدقه لله، فلا يخص به ناساً دون ناس، فلا يكذب على حاكم، ولا يكذب على زوجة، ولا يكذب على أطفاله، ولا يَعِدُهم ثم يُخلف، ولا يقول لأولاده قولوا للضيف أو للمتصل على الهاتف: ليس موجوداً، فإذا لم يكن المتصل يعلم بوجوده؛ فالله موجود يعلم.

(١) وفي رواية: «قبل أن يقع فيه».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٣٠٤، عن أبي هريرة ﷺ، وذكر نحو العبارة الأخيرة مسلم رقم ٢٥٢٦.

لذلك شرع الله تعالى لنا ـ إذا جاءنا ضيف بلا موعد أو في وقت غير مناسب ـ أن نعتذر منه دون تحرُّج ونأمره بالرجوع، فقال الله تعالى لمن يأتي زائراً: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨]، وليس مِن حق الضيف أن يسأل عن السبب، فربما كان للإنسان ظروفه الخاصة وأسراره وضروراته التي لا يريد أن يعرفها الناس.

فالعمل بهذا الأدب يغني الإنسان عن الكذب، ويحميه من تعليم أبنائه الكذب.

١٧. من أدب الصادق: **أن لا يعرض على الطفل شيئاً ويَعِدُه به؛ ليقترب منه، ثم لا يعطيه،** عن عبد الله بن عامر أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبي[1]، قال: فذهبت أخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعالَ أُعْطِك، فقال رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيَه؟ قالت: أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنكِ لو لم تفعلي؛ كُتِبت عليكِ كِذبة»[2].

١٨. ومن أدب الصادق: أنه **إذا استعمل الإشارةَ أو الفعل نيابةً عن الكلام؛ فلا بد أن يكون صادقاً فيها** وفيما تَدُلُّ عليه، لأنها قامت مقام الكلام فتأخذ حكمه ويجب الصدق فيها.

١٩. ومن أدب الصادق: أنه **لا يكذب على الحيوان،** فلا يقدم إليه طعاماً ليأتي، ثم يحرمه منه، أو يشعره باللطف والتودد ثم يخيفه.

٢٠. ومن أدب الصادق: أنه **يحرص على ترك المعاصي والشهوات المحرمة التي تَدْفَعه إلى الكذب،** فلن يكون صادقاً من يكذب ليستر على نفسه ما يفعل من محرمات.

---

(١) روي أن عمره كان حينها خمس سنين.

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد ٣/ ٤٤٧ وأبو داود نحوه رقم ٤٩٩١.

فالولد الذي يترك الصلاة؛ غالباً ما يكذب، ليستر على نفسه جريمة تركه للصلاة، فيبرر لنفسه الكذب، لأجل ذلك.

والشاب الذي يأتي بأفلام فاسدة هابطة أو أشرطة ماجنة أو كتب غرامية؛ يرى نفسه مضطراً إلى الكذب على والديه؛ ليُخفي ما يُرضِي به شهوته المحرمة.

والعامل والتاجر الذي غلبته شهوة المال وحبه حتى صار يطلبه بالحرام؛ يغش في بضاعته وعمله، ثم يكذب إذا سئل عن ذلك، ويكذب على من يتعامل معه ليأخذ أجراً أكبر أو ثمناً أكثر بغير حق.

والزوج الذي تعلق بشهوة النساء أو شهوة القمار، يكذب على زوجته فيدعي السهر في عمل، وهو يسهر على شهوته المحرمة.

والقَصّاص الذي مالت نفسه إلى تعليق الناس بنفسه؛ يختلق القصص والرُّجولات والمُضْحِكات والمغامَرات، وينسبها إلى نفسه كذباً.

والملك والحاكم والمسؤول المنافق الذي يسعى لمصالحه الشخصية أو لمصالح أعداء أمته؛ يكذب على أمته ورعيته، ظناً منه أنه يحافظ بذلك على ما حققه من جاه أو رتبة أو وظيفة.

كل هؤلاء وأمثالُهم إن حرصوا على الصدق؛ حرصوا على ترك شهواتهم ومعاصيهم، ليحافظوا على صدقهم مع اللهِ والخَلْق.

فالمعاصي والرضا بها من دوافع الكذب، وعلاجه بتركها.

٢١ . ومن أدب الصادق: أنه **يتحرى الصدق حتى فيما يجوز ويُرَخَّص فيه الكذب**، فيستعمل المعاريض والتورية بدلاً من الكذب، كما فعل النبي ﷺ يوم بدر حينما سأله رجل ـ يُتوقع أن يكون من العدو أو يوصل الخبر للعدو ـ سأله

من أين أنتم؟ فقال: من ماء[1]، والنبي ﷺ يَقصِد الماء الذي يخلق منه الإنسان، والسائل ظن أنه يعني منطقة فيها ماء.

قال عمران بن حصين رضي الله عنه: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[2].

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت: «لم أسمع[3] يُرَخِّصُ في شيء مما يقول الناس من الكذب؛ إلا في ثلاث: الحرب[4]، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجلِ امرأتَه وحديث المرأة زوجها»[5]، وليس معنى الحديث أن يتهاون الإنسان في الكذب في هذه الأمور، ويجعله عادة، فالنص لم يذكر إباحة الكذب مطلقاً، وإنما رخص فيه؛ فيستعمل عند الحاجة والضرورة، وعند عدم وجود البديل الذي يُغْنِي عنه.

وإنما رُخِّص بالكذب في هذه المواطن، لأن المقصد من الصدق إقرار الحق ونصرة الحق، فإذا وجد ظرفٌ ما يجعل الصدق مضراً بالحق وأهله، فالواجب عندئذ إخفاؤه، حرصاً على المصلحة الأكبر.

٢٢. ومن أدب الصادق: **أن لا يتفاخر ويتظاهر الإنسان بشيء، يوهم أنه عنده وهو ليس عنده،** كأن يتظاهر بالتخلق بشيء وهو لا يتخلق به، أو يتظاهر

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٣/ ١٦٣.

(٢) حديث صحيح موقوفاً، أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٨٥٧ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٩، عن عمران بن حصين رضي الله عنه، وأخرج البخاري في الأدب المفرد رقم ٨٨٤ وابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٢٦٠٩٥ بمعناه عن عمر رضي الله عنه.

(٣) أي من النبي ﷺ.

(٤) الكذبُ على العدوِّ الجائزُ في الحرب؛ ليس الذي يكون فيه غَدْر.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٢٦٠٥، وفي بداية الحديث: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً».

بالتحقق بصفة كالزهد أو الوقار وهو لا يتصف بها، أو يتظاهر بامتلاك شيء وهو لا يملكه، أو تتظاهر المرأة أمام ضرتها بأنه أعطاها أشياء لم يعطها إياها لتغيظها، قال ﷺ: «المُتَشَبِّعُ بما لم يُعطَ كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ»(١)، فقد كذب كذباً عملياً وزَوَّر الحقيقة حينما تظاهر بامتلاك شيء لا يملكه من خلق أو علم أو عبادة أو مال أو لباس أو منصب أو إنجاز أو غيره، ثم كذب وزور حينما تفاخر واستعلى بذلك وتكبر.

وممن يصدق عليهم هذا الوصف الذين يتحدثون عن أنفسهم: أنا فعلت كذا وفعلت كذا؛ لأمور لم يفعلها أو لأمور قد يكون شريكاً فيها، لكنه يُشعر الناس كأنه صاحبها أو سببها أو أنه المنفرد بها ولولاه ما كانت.

٢٣. ومن أدب الصادق: **أن لا يتظاهر بالاهتمام بشيء، وهو صورة لا قيمة له أو لا داعي له**، فيكون كالمُمَثِّل، كمن يأتون بالناس ليشاركوا في جَاهَةٍ أو خُطوبَة، ويتظاهرون بأنهم يَطْلُبون المخطوبة لولدهم، وهم في الحقيقة قد اتفقوا على الزواج وعلى تفاصيله ومهره، بل ربما كانوا عقدوا العقد، وما هي إلا شكليات مَقِيتة تُرهِق الناس، وتشغل الناس بلا فائدة، فذلك من الكذب، فالواجب أن يجمعوا الناس عندئذ باسم إعلان النكاح، لا باسم جاهة الطِّلْبَة، ويكتمل الكذب حينما ترى هؤلاء الرجال الذي جاؤوا والذين استقبلوا؛ يُسمَّون جاهة لفلان أو لفلانة، وحينما تنشأ مشكلات بين الزوجين لا نجد أي واحد من هذه الجاهة يسارع إلى الإصلاح بين الزوجين، فالذين جاؤوا

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٩٢١ عن أسماء، ولفظه أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة، فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني، فقال رسول الله ﷺ: المتشبع...، وأخرجه مسلم رقم ٢١٢٩ عن عائشة أن امرأة قالت: يا رسول الله أقول إن زوجي أعطاني ما لم يعطني، فقال...

يمدحون الخاطب؛ لم يتدخلوا لإيقاف ظلمه، ورده إلى حدوده، ولا الذين جاؤوا يُزوِّجون البنت يتدخلون لمنع نشوزها وتجاوزاتها.

ـ ومن الجوانب العملية للصدق الأمانة وترك الخيانة، والعدل وترك الظلم، وفيما يأتي بيانهما:

المبحث الثاني

الأمانة وترك الخيانة

معنى الأمانة:

الأمانة صدق عملي، فمن كان يحب الصدق ويؤثر الحق لا يكون إلا أميناً، يحرص على حقوق الآخرين، ولا يضيعها.

سمي الأمين أميناً لأنه مأمون، لا يُتَوَقَّعُ منه مكروه، ولا يَعتَدي على حقوق الآخرين وممتلكاتهم وما يَخُصُّهم، وإذا وُكِّل بحفظ شيء من أموال أو ودائع أو غيرها؛ فلا يعتدي عليه ولا يُقَصِّر في حفظه ولا يتهاون ولا يفرِّط، بل يحفظه لغيره أكثر مما يحفظ لنفسه حقوقه وأشياءه، ويؤديه حينما يطلب منه بصدق وتمام، دون نقص أو تأخُّر.

الأمين يعف عما ليس له به حق، فلا يعتدي عليه ولا يخفيه ولا يسرقه؛ حتى وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس.

الأمين لا تتحرك في نفسه مطامع للاستيلاء على الأمانة، وإذا حدَّثَتْه نفسه بذلك جاهدها ومنعها من الباطل، ولا يكذب؛ ليأخذ ما ليس له، أو ليضيع أمانة غيره.

ـ ولا يكون الأمين أميناً إلا إذا كان يقدر على الخيانة، ومع قدرته على الخيانة يبقي على أمانته وصدقه وعفته.

فإذا ائتُمِن على مال أو دَين، وليس لدى الدائن المُستأمِن ما يثبت به حقه، فيعف عن أخذه أو أخذ شيء منه، ويؤديه كاملاً.

وإذا تهيأت له فرصة اختلاس أموالِ غيره، دون أن يشعر به أحد من الناس، ودون أن يكون عرضة لاكتشاف لصوصيته؛ فيعف عن ذلك، فذلك الأمين.

ويدخل في الأمانة بمعناها الواسع: تبليغ الرسائل كما هي إلى أصحابها، وتأدية النصيحة لكل مسلم، وتأدية العبادات المفروضة على وجهها، والعدل من الأمانة.

ـ والخيانة ضد الأمانة، وهي كذب عملي.

ويدخل في خيانة الأمانة: العدوان على الأعراض، والعدوان على الحقوق العلمية والمعنوية، والغِش، وتطفيف الميزان، والغلول وهو سرقة المال العام، والجَوْرُ والظلمُ من الخيانة.

والغدر من أبشع صور الخيانة، لما فيه من مكر وخديعة ونقض للعهود والعقود، على حين غفلةٍ وأمنٍ من المغدور.

والمعصية لله خيانة، لأن الله استأمَن العبد على جسمه وعلى ما أعطاه؛ فلا يحق له أن يخرج عما كُلِّف فيه.

أهمية خلق الأمانة:

الأمين يرتاح له الناس ويأمنونه على أنفسهم وأموالهم وأغراضهم وأعراضهم، فهو خير عون للناس، والمجتمع الذي يتحلى أفراده جميعاً بالأمانة مجتمع تعاون واطمئنان وسلام وأمن وراحة وسكون.

يأمن فيه كل فرد من أفراد المجتمع، بل يكون أمناً على البشرية جميعاً، لا يعتدي عليهم بغير حق، يكون صادقاً في خبره، يفي بوعده وعهده، يرتاح إليه الناس لأنهم لا يجدون منه شراً، ولا يتوقعون منه شراً وأذى.

أما الخائن فهو مؤذٍ مُعتدٍ ظالم، يجاوز حدَّه، ويضيع حق غيره، والمجتمع الذي تكثر فيه الخيانة مجتمع فاسد خطير، لا اطمئنان فيه ولا سكون، يحتاج كل إنسان فيه إلى حذر كبير واحتياط كثير، فتبقى نفسه في خوف وتوجُّس وحذر.

كيف نتخلق بالأمانة:

إذا كان الإنسان حريصاً على الصدق والأمانة، فإما أن يكون حريصاً على ذلك لأجل مصالحه ومنافعه، أو لمبادئ واعتقاداتٍ وإيمانٍ عنده.

فمن كان يسعى إلى مصالحه وشهواته؛ فإنه إذا صارت مصالحه بالكذب والخيانة، فيمكن أن تنهار أخلاقه وأمانته وصدقه، طلباً لمصالحه التي يتوهمها.

ومن كان يؤمن بالله والآخرة، ويعلم أن الله قد أمره بالأمانة والصدق، ويعلم أن الله يراه ويسمعه ويراقبه، ويعلم أنه يحصي أعماله، وسوف يحاسبه عليها، فإمّا إلى جنة أو نار؛ فذلك الذي يتمسك بالصدق والأمانة؛ حتى لو فاتت مصالحه وشهواته، لأنه يعلم أن مصلحته عند الله في الآخرة في الصدق والأمانة؛ أكبر من المصلحة التي يحصلها في الدنيا بالكذب والخيانة.

لذلك يخبرنا النبي ﷺ أن من علامة المنافق: «إذا اؤتمن خان»، والمنافق هو الذي يتظاهر بالإيمان وهو غير مؤمن، أو هو الذي يأتي بأعمال الكافرين لشدة غفلته عن الله، فكان في أعماله كغير المؤمن.

وروي أن النبي ﷺ كان يقول كثيراً في خُطَبِه يقول: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له»[1]، ليبين لنا أن الإيمان لا ينفك عن الأمانة، فَمَنْ

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٢٤٠٦ وابن حبان رقم ١٩٤ والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٤٣٥٤، عن أنس ﷺ.

فَقَدَ الأمانةَ فذلك دليل فَقْدِه الإيمانَ، وهذا يقتضي أن الإيمان إذا وُجِدَ؛ وُجِدَتْ معه الأمانة.

والخيانة من الكبائر الخطيرة، فلا يمكن أن تكون من صفات المؤمن(1).

فَرْضُ الأمانةِ وحُرْمةُ الخيانة:

فرض الله أداء الأمانة، وحذرنا من الخيانة وحرمها.

فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وجعل الله تعالى الوفاء بالعهد وهو من الأمانة من صفات أهل البرِّ والصدق والتقوى، قال تعالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد بين النبي ﷺ حرمة الخيانة حينما بيَّن أنها من صفات النفاق، فقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعدَ أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»(2).

والله تعالى خصم لكل غادر، قال ﷺ: قال الله: «ثلاثة أنا خصمهم يوم

---

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب» أخرجه أحمد رقم ٢٢٢٢٤ عن أبي أمامة ﷺ، والبيهقي رقم ٤٨٠٩ والبزار رقم ١١٣٩عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، وقد حسنه بعض العلماء وضعفه آخرون.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٥٩ عن أبي هريرة ﷺ ورواه البخاري رقم ٣٣ من غير قوله: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

القيامة، رجل أعطى بي[1] ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه[2]، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه[3] ولم يعطه أجره»[4].

وأخبر النبي ﷺ أن الإنسان لا يكون متصفاً بصفات الإيمان حقاً إلا أن يكون خالياً من الخيانة، بل لا بد أن يكون متصفاً بالأمانة بحيث يُعرَفُ بها، وبحيث لا يخشى منه الناس خيانة، فقال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله ؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[5]، أي غدره وخياناته، فلا بد أن يكون المؤمن بحيث يطمئن جاره وإخوانه من أنه لا يخونهم ولا يغدر بهم ولا يؤذيهم ولا يخدعهم.

والله يحدثنا في كتابه عن أنبيائه وأماناتهم، وهم قدوتنا، فذكر في شأن هود مثلاً: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكذلك وصف الله نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً بذكر قولهم لأقوامهم: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [سورة الشعراء: ١٠٧ و١٢٥ و١٤٣ و١٦٢ و١٧٨]، ووصف الله الملكَ جبريلَ بالأمانة: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وكان نبينا ﷺ معروفاً بالأمانة من قبل بعثته، ولولا الأمانة ما حصلت ثقة بما يُبَلِّغُ الأنبياءُ عن الله من شرائعَ، فكن أيها المسلم على طريق الأنبياء صادقاً أميناً.

---

(١) أي عاهد بالله.

(٢) أي ادعى على حُرٍّ أنه عبد وباعه وأخذ ثمنه.

(٣) أي عمل له الأجير العمل المطلوب.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٢١١٤ و ٢١٥٠، عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٥٦٧٠ عن أبي شريح، ومسلم رقم ٤٦ عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا...».

من آداب الأمين

إذا قام المسلم بجملة من الأعمال في مجالاتٍ مختلفةٍ من حياته؛ فإنه يوصف بالأمانة، ومن حرص على هذه الأعمال والأداب في مواطنها مرة بعد مرة تمكنت فيه صفة الأمانة، حتى يكون أميناً.

فمن أهم أعمال الأمين وآدابه وسلوكياته:

١. من أعظم آداب الأمين: **أن يكون أميناً على ما كلفه الله به**، قال تعالى: ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب ٧٢]، وقد فسر بعض الصحابة والمفسرين الأمانةَ في الآية بأنها الطاعة أو الفرائض أو التكاليف، فيدخل فيها حقوق الله وطاعته وتكاليفه على جوارحك وقلبك وعقلك وتوجيه إرادتك ومجاهدة أهواء النفس وشهواتها وتنفيذ ما يريد الله، فمن خالف فقد خان، فكل معصية فيها معنى الخيانة، كما قال الله تعالى فيمن ينظر إلى ما لا يجوز: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩].

ولا قيمة لأي خُلُق مع الناس والخَلْق؛ إذا كان الإنسان سيءَ الخُلُقِ والأدبِ مع الله، فمن ضيع أمانة الله فلا قيمة لكل أخلاقه، وإن تظاهر بحفظه أمانات الخَلْق؛ فليس ذلك عن أمانة، وإنما هو نفاق أو سعي إلى مصالح دنيوية، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: « حدثنا [أي النبي ﷺ] أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من الكتاب، ثم علموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال [أي النبي ﷺ]: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها

مثـل الوكـت[1]، ثم ينـام النومة فتقبض الأمانة مـن قلبه، فيظـل أثرها مثل أثر المجـل، كجمر دحرجته على رجلـك فنفط، فتراه منتبراً وليـس فيه شيء[2]، ثم أخذ الرسـول ﷺ حصى فدحرجه على رجله، ثم قال: فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلدَه، وما أَظْرَفَه، وما أعقلَه، وما في قلبه مِثقالُ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيـمان »[3]، والحديث يربط بين الإيـمان والأمانة، ويبين أن الأخلاق جميعاً تنهار إذا فُقِـدَ الإيمان من النفوس؛ فلا قيمة لما يَظهر من الإنسـان من جَلَد وصبر، أو ظَرافَة ولَطافة، أو حكمة ومنطق.

ولا ينبغي أن يظن المسلم بأن قبض الأمانة من القلوب ظُلْم، فالله لا يظلم الناس شيئاً، وإنما يكون ذلك بسبب من أفعال الناس وذنوبهم.

٢. من أدب الأمين: **أن يكون أميناً حفيظاً على حقوق الناس، ويؤديها إليهم كما هي**، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، ويدخل في ذلك كل ولاية، فيجب تأدية الحقوق إلى أهلها، وإسناد الأعمال إلى الأمناء القادرين عليها، وحفظ أموال الناس وأجسامِهم وأرواحهم وعقولهم وصيانتها مما يضرها، والسعي في إقامتهم وحفظهم على الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وحفظ أسرار الدولة مما يجب كتمانة وعدم تسريبه إلى الأعداء.

---

(١) هو الأثر اليسير للشيء.

(٢) فسر النبيُّ ﷺ المَجْلَ بأنه الجمر إذا أصاب جلد الإنسـان إصابة سريعة فإنـه يحرقه حرقاً خفيفـاً يـؤدي إلى انتفـاخ الجلد، وهذا الانتفاخ لا يحتوي عـلى شيء ذي بال، كذلك الأمانة حينما يفقدها الإنسـان، يُظَنُّ أنه أمين، وما هو إلا وهم لا حقيقة له، يتظاهر بالخلق وما هو بمتحقق به.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٧٠٨٦، ونحوه مسلم رقم ١٤٣ عن حذيفة رضي الله عنه.

ومن الخيانة خيانة العامل لرب العمل، وقد استأمنه على العمل، فيقصر فيه، ومنه خيانة رب العمل للعامل وقد استأمنه على الأجرة أن يعطيه إياها، فيخونه فيُنْقِصُه أو لا يعطيه.

وإذا كان العمل عملاً للأمة، فالأمانة فيه أكبر، والخيانة فيه أعظم وأخطر، وكلما كان أثرها في الأمة أكبر كانت أهم وأخطر.

قال رسول الله ﷺ: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين»(١)، فالمؤذن قد ائتمنه الناس على أوقات الصلاة، فلا يجوز له أن يتهاون في تحري أوقاتها، أو يقدم الأذان أو يؤخره عن وقته، فيكون سبباً في اختلال وقت الصلاة والصيام عند الناس.

٣. من أدب الأمين: **حفظ المال لأصحابه؛ بالعفة عنه ثم بأدائه كاملاً**، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ... ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ويدخل في ذلك تأدية الأموال إلى أصحابها في البيوع والديون والمواريث والودائع والرُّهون والعَواري والوصايا وغيرها.

٤. من أدب الأمين: **عدم تضييع حقوق المخالفين والأعداء والكافرين**، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فبين الله تعالى وجوب الأمانة مع الموافقين في الدين والمخالفين فيه، فلا يجوز الخيانة لهم والغدر بهم.

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٧١٦٩ والترمذي رقم ٢٠٧ وأبو داود رقم ٥١٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ حتى منعنا الله من الغدر بالكافرين المعاهِدين إذا خِفْنا من غدرهم وخيانتهم، وكان هذا الخوف ليس وهماً، وإنما هو نتيجة قرائن وتصرفات تُقَوِّي الظن بذلك، فعندئذ نخبرهم برغبتنا في إنهاء المعاهدة، وننتظرهم حتى يكونوا في جاهزية لحماية أنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ـ وحذر الله تعالى من تهمة الكافر بما يفعله المسلم العاصي، فذلك خيانة، وحذر من نصرة من يَتَّهِم الكافر بما هو منه بريء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا * وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧]، إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٢][(١)].

والغدر لا يفعله المسلم وإنما هو من صفات المنافقين، قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر »[(٢)].

(١) وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات حديث حسن عن قتادة بن النعمان ﷺ أخرجه الترمذي رقم ٣٠٣٦، وروى نحوه الطبري في تفسيره ٥/ ٢٦٥، وخلاصة ما جاء في بعض روايات الحديث؛ أن ناساً من المسلمين سُرِقوا، وكان السارق هو من قرابتهم، فاتهموا يهودياً بالسرقة، وجاؤوا إلى رسول الله يدافعون عن قرابتهم ويتهمون اليهودي، فأنزل الله يحذر نبيه من الدفاع عن السارق، ويحذر نبيه من الدفاع عن الخائنين الذين يتهمون اليهودي وهو بريء، ويدافعون عن قرابتهم وهو معتدي، ويبين إثم البهتان والاتهام بالباطل، ويدعوهم إلى التوبة.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٤ ومسلم رقم ٥٨، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وإذا ظن الغادر أن الغدر يقويه على عدوه، فالله تعالى يبين عكس ذلك، فقد بين الله عز وجل أن الغدر سبب في الضعف والوهن، وسبب في الفوضى وتمزيق الأواصر، وإفسادٌ لِما صَلُح، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: ٩٢].

٥. من أدب الأمين: **الأمانة على الأعراض**، بأن يعف عما ليس له به حق منها، ويكف الكلام عن أعراض الناس وسمعتهم، فلا ينالها بسوء كالقذف والغيبة.

ومن أدب الشيخ والقاضي والطبيب والمستشار أن يكون أميناً على أسرار الناس، وأعراضهم وسمعتهم؛ فلا يفضح ما اطلع عليه من أسرار الناس والمراجعين والمستشيرين.

٦. من أدب الأمين: **الأمانة على الأجسام والأرواح**، بأن يكف عن إيذائها بالجَرح أو القتل أو الضرر والأذى بغير حق، فحياة الناس وأرواحهم وأجسادهم أمانة، يجب أن نحافظ عليها، ولا نتعرض لها بسوء إلا بحكم الله وبإذن الله، وحياتُك وروحُك وجسدُك أمانة عندك تحفظها.

٧. من أدب الأمين: **أن ينقل الأخبار والعلوم والرسائل كما هي**، سواء كانت لفظية أو كتابية أو إشارية، فلا يجوز تحريف كتب العلماء وأقوالهم، ولا نقلها بتغيير أو من دون دقة، كما لا يجوز انتحالها، ولا نسبة جهود الآخرين إلى غيرهم أو إلى نفسك، ولا يجوز تحريف الأخبار والرسائل بالزيادة فيها أو الإنقاص.

ومن أمانتنا أن لا نقبل قول غير الأمناء والصادقين إلا بعد التثبت، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦].

ومن أعظم هذه الأمانة أن يكون الإنسان أميناً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يُحرِّف آيات الله ومعانيها، ولا يُغيِّر سنة النبي ﷺ، ولا ينسب إليها ما ليس منها، ويتأكد من صحة ما يَروِي عن رسول الله ﷺ، ويتحرى الدقة في روايته.

٨. من أدب الأمين: **أن لا يولِّيَ الحكمَ والمسؤولية إلا لأهلها، ولا يتولاها هو إن لم يكن أهلاً**، لذلك بين النبي ﷺ أن ذلك من الغدر والخيانة، فقال: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقَدْر غَدْرِه، ألا ولا غادرَ أعظمُ غَدْراً من أميرِ عامة»(١).

ولا يجوز لإنسان أن يزكي إنساناً ليوظف في عمل، لقرابة أو معرفة، دون أن يتحرى أهليته للعمل الذي يزكيه له.

وقد حذر النبي ﷺ بعض أصحابه ـ على جلالتهم وصلاحهم وعلمهم ـ من الولاية والحكم، لعدم أهليتهم لذلك، فقد يكون الرجل صالحاً وعالماً لكنه لا يصلح للإدارة والحكم، فيكون مسيئاً ومضيعاً لمن تولى عليهم، قال أبو ذر: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال ﷺ: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٧٣٨ عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي رواية: «لكل غادر لواء عند اسْتِه» [أي عند قفاه] وأخرج نحوه البخاري رقم ٣٠١٥ و ٦٥٦٥ عن أنس وابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم، ومن ألفاظه: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»، وروي عن رسول الله ﷺ الأمر بتولية من هو أصلح وأجدر، في حديث ضعفه أكثر العلماء وحسنه بعضهم: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» أخرجه الحاكم رقم ٧٠٢٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٨٢٥.

لذلك لا يكون الإنسان أميناً إذا طلب الولاية وليس بكفء لها، وإنما يختاره الناس أهل المعرفة والخبرة والصلاح[1] إذا رأوا فيه أهلية لذلك، فقد قال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[2]، والحديث يبين أنَّ مَن كُلِّفَ الإمارةَ أعانه الله عليها، لأن من يرى نفسه ضعيفاً ويخاف أن يفشل أو يُقصِّر؛ يعتمد على الله ويستعين به ويستمد منه ويتوكل عليه، أما من رأى في نفسه الأهلية وطلب الإمارة؛ فإنه يُوكَل إلى نفسه، لأنه وَثِق بها، فلا يجد عوناً من الله.

وقد عد النبي ﷺ من علامات آخر الزمان التي تشعر ببعد الناس عن دينهم أن يتولى الأمر والحكم من لا يصلح له، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: بينما كان النبي ﷺ يحدث إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ قال: إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[3].

ـ وقد يكون من الأمانة أن تطلب الإمارة وتتولاها، وذلك في حال كونك أهلاً لها؛ وإذا لم تتولاها تولاها غيرك ممن لا أهلية عنده، أو ممن يسيء فيها، أو

---

(١) وهم الذين يُسَمَّونَ في كتب الفقه: بأهل الحل والعقد، وهم نواب الناس وممثلوهم، القادرون علمياً وعملياً على إصلاح أمر العامة والقيام بشأن الحكم، بوضع القوانين المناسبة، وفق شرع الله، وإدارة شؤون الناس بما يحقق مصالحهم، مع ضبط الأمور بما لديهم من قوة وشوكة.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٢٤٨ ومسلم رقم ١٦٥٢، عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقد عملت في زماننا دول كبرى مجرمة على قاعدة توسيد الأمر إلى غير أهله، فكانت تشتري رجالاً مسؤولين في كل بلد تدفع لهم رواتب ومبالغ كبيرة؛ مقابل أن يوسدوا الأمر إلى غير أهله، وأن لا يضعوا الرجل المناسب في المكان الذي يناسبه، وبذلك أفسدوا بلادنا وأهلكوها وجعلوها متخلفة ضعيفة جاهلة فقيرة.

ممن يقدم نفسه إليها بغير حق ليعمل لصالح الكفر أو الأعداء أو المفسدين، فلا يجوز عندئذ أن تترك الإمارة لأمثال هؤلاء، بل كن كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٥].

ومثل ذلك من يصلح للإمامة في الصلاة، وإذا تركها تقدم من لا يصلح لها، ممن لا يحسن القراءة أو ممن هو فاسق.

٩. ومن أدب الأمين: **حفظ الأسرار بكتمانها**، بحفظها وعدم إفشائها، لاسيما الأسرار العامة التي تتضرر من كشفها الأمةُ كلها.

وقد وصف النبي ﷺ المنافق بأنه «إذا ائتمن خان»، والسر من الأمانة التي لا يجوز خيانتها، وأحياناً يكون من الغيبة والفضيحة، وكلاهما حرام.

والحديث الذي تَشعُر بأن مُحَدِّثك لا يرغب منك أن تنشره؛ فهو أمانة، ويجب كتمانه، قال ﷺ: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة»(١).

وقد علمنا الله تعالى في قصة يوسف أن لا ينبغي أن يتكلم الإنسان بكل خصوصياته، فما يؤدي نشره إلى ضرر ينبغي كتمانه، وهو من الأسرار التي يجب حفظها، قال تعالى ذاكراً قول يعقوب ليوسف عليهما الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: ٥].

ـ وكتمان السر يحتاج إلى صبر، فإن النفس ترغب في إظهار الأسرار، وتحب أن تُشعِر الناسَ بأنها تعلم ما لا يعلمون، لذلك ينبغي على المسلم

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٥١٠٤ والترمذي رقم ١٩٥٩ وأبو داود ٤٨٦٨ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أن يكتم سره في نفسه، ولا يُطلِع عليه أحداً فيُعرِّضه للإفشاء بذلك، فقد ينقله لغيره ويقول له: هذا سر فلا تفشه، وهذا يفعل مثله، وإذا بالسر يعلمه عشرات من الناس.

وإذا علم أحد أن عندك سراً، فأحب أن يَعرِف السِّرَّ، فلا تُطلِعْه عليه، إذ لا يرغب بمعرفة السر ـ غالباً؛ إلا من لا يُقَدِّرُ خَطرَه ومسؤوليته وحِملَه.

وقد علمنا النبي ﷺ أن بعض الحوائج لا تقضى إلا بالكتمان، قال ﷺ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»(١).

ـ والأمانة درجات، فإذا كان حفظ الأمانة لشخص يُضيِّع الحقَّ العام، أو يُضيع أمانةً أعظمَ منها، أو يضيع أمانة الله؛ فلا يجوز حفظ الأمانة الصغرى لأنها خيانة لما هو أكبر منها، فلو أن إنساناً اعترف لصديقه بأنه قتل فلاناً، واستأمنه أن يحفظ هذا السر، فلا يجوز حفظه، لأنه يضيع بذلك أمانة أكبر، ويعين على الخيانة والباطل، والأمانة مع الخَلق لا تَنقُض أمانة الله لأنها فوقها، والأمانة مع الفرد لا ينبغي أن تُضيِّع الأمانة مع المجتمع(٢).

---

(١) حديث حسن، أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص ١٨٧ عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠ / ٩٤ والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٦٦٥٥ عن معاذ بن جبل ﷺ، وروي الحديث بلفظ: «قضاء حوائجكم».

(٢) وقد ورد حديث في هذا المعنى، لكنه حديث ضعيف، أخرجه أحمد رقم ١٤٧٣٤ وأبو داود رقم ٤٨٦٩ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٤٧، عن جابر بن عبد الله قال ﷺ: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»، فبين الحديث أنه لا يصح حفظ سر أو أمانة في هذه الأمور، ولفظ: «المجالس بالأمانة» دون تتمة الحديث ورد بأسانيد لا بأس بها فهو حسن.

فلا يجوز أن يحفظ المسلم سراً للكافرين ضد المسلمين، ولا أن يكتم مجلساً يُدَبَّر فيه ضد المسلمين أو يُتَحايَل فيه عليهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقد ذكر المفسرون وأهل السير في سبب نزول هذه الآية أن بني قُريظة حينما غدروا بعهد رسول الله ﷺ يوم الخندق طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة بن المنذر ليستشيروه في أمرهم، لأنه كان من بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده الى حلقه إنه الذبح، أي سيحكم عليكم بالقتل إن نزلتم على حكمه، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعَهْدُ الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله ﷺ فيه أبداً.

فنزلت الآية فيه ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ثم قبْل فجر اليوم التالي بَشَّر رسولُ الله ﷺ أن الله قد تاب عليه(١).

١٠ . ومن الأمانة التي لا يجوز تضييعها؛ **ما يكون بين الرجل وامرأته من خصوصيات،** فهي سر لا يجوز كشفه، قال ﷺ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة؛ الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سِرَّها»(٢).

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، ٤ / ١٩٦.
(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٣٧ عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

١١ . ومن أدب الأمين: **أن يرى أن كل ما أعطاه الله إياه أمانةٌ فيها حق لله**، فالسمع والبصر والحواس والجوارح كلها لا يصح استعمالها بالعدوان، فيجب حفظها عن المعصية، فلا يسترق السمع بالخيانة، ولا يسترق النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، ولا يمس ولا يلمس ما يحرم مسه فهو خيانة، وهكذا في كل جارحة من جوارحه، فيدخل في ذلك إقامة كل طاعة، وترك كل معصية.

١٢ . من أداب الأمين: **الأمانة في العمل**، وما يتعلق به، بأن يكون المسلم أميناً حفيظاً على العمل والعمال، والمال والممتلكات، والوقت، والعقود، سواء كان العمل وظيفة في مؤسسة عامة، أو في شركة أو مركز أو عمل خاص أو غير ذلك.

وهذه نماذج من الأمانة في العمل، ينبغي التنبيه إليها في زماننا:

أولاً: أداء العمل أمانة:

ـ إذا وُظِّفَ الإنسان في عمل أو استؤجر عليه؛ فإن العمل وأداءه على الوجه المتعاقَد عليه من الأمانة، قال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(١).

ويجب الإخلاص في العمل، فلا غش، ويجب الإتقان، فلا تفريط.

فالمسلم يهتم بالعمل المطلوب منه، ويرغب في تأديته على أحسن وجه، ويقدمه بحسب الاتفاق، وبما يرتاح إليه صاحب العمل والمنتفِعون منه.

---

(١) حديث حسن، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٥٣١٢ وأبو يعلى رقم ٤٣٨٦ عن عائشة رضي الله عنها.

ولا يتهرب المسلم من عمله، ولا يكون غير مبال به، ولا يكون مضيعاً له أو لبعضه، ولا يُزَوِّرُ ولا يكذب ولا يغش، ولا يأتي به على وجه دون ما اتفق عليه، سواء كان صاحب العلم على رأسه أو كان غائباً.

ولا يجوز للعامل الإخلال بشروط العمل المتفق عليها في العقد، عمداً أو تهاوناً.

ـ وإذا كان الموظف يتعامل مع مُراجِعين ومُنتفِعين؛ فإنه يعاملهم بأجود ما يكون ويتأدب معهم، ويقدم لهم الخدمات بأسرع ما يمكن، لا يفرط في حق صاحب العمل أو المال، ولا يفرط في حق المراجعين، ولا يجوز له التأخر عن الناس وإهمال حوائجهم وملفاتهم، أو تضييع أوقاتهم ومصالحهم، أو التشاغل عنهم بغير ضرورة.

ويجب على صاحب العمل ـ سواء كان عاماً أو خاصاً ـ أن يرتب أمر انتظار المراجعين بحيث لا يكون فيه وقوف ولا تعب، ولا إذلال ولا إهانة، ولا تأخير ولا انتظار، ولا إجراءات معقدة لا فائدة منها.

ـ ولا يجوز للعامل أن يرتشي، ولا أن يمتنع عن العمل إلا أن يعطى رشوة، فذلك خيانة للعمل، وخيانة للمنتفعين من ذلك العمل، لا سيما وهو يأخذ أجره على العمل، قال ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي»(١).

ويجب المحافظة على أسرار العمل، وسمعة المؤسسة أو الشركة، ورد التهم الباطلة عنها.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٣٥٨٠ والترمذي رقم ١٣٣٧ وقال: حسن صحيح، وابن حبان رقم ٥٠٧٧.

ـ وإذا كان العمل تعليماً، فيجب على الأستاذ والمعلم أن يخلص ويتقن في تعليم طلابه، فيحضِّر الدرس، ويختار لهم أنفع المعلومات، وأسهل أسلوب لفهمها واستيعابها، ويغتنم كل لحظة لفائدة الطلاب ونفعهم، ويحرص عليهم، ويتابع مشاكلهم، ويحاسب مقصرهم، ولا يهمل أمر غائبهم ومتأخرهم، ولا يتهاون ولا يتسامح في شيء يؤدي إلى تقصيرهم أو شغبهم أو فسادهم أو إهمالهم وعدم مبالاتهم بدروسهم.

ولا يجوز للمعلم أن يضيع وقت الدرس والحصة فيما لم يجعل له، كأن يتحدث بالهاتف في الدرس، أو يقرأ قرآناً أو كتاباً لنفسه، أو يُصْلِح لوحاً أو مقعداً فيهدر أوقات الطلاب ويضيع درسهم، ولا يفعل شيئاً من ذلك إلا بالقدر الذي يعود على الدَّرْسِ والتعليمِ بالمصلحة.

ثانياً: الوقت في العمل أمانة:

ـ الوظيفة والإجارة إما أن تكون على عمل محدد، أو على وقت محدد يعمل خلاله ما يطلب منه، فتضييع العمل خيانة، وإهدار الوقت في غير العمل المطلوب خيانة محرمة، لا تجوز.

ويعطى الإنسان راتبه وأجرته مقابل عمله أو وقته، فلا يصح أن يتهاون في الوقت، فيجب الالتزام بالدوام في الحضور والانصراف، ويجب استغلال الوقت بالشكل الصحيح والأمثل الذي يحقق مصلحة العمل، وبحسب العقد والاتفاق.

فلا يجوز استغلال وقت الوظيفة في أي عمل خارج مهام الوظيفة، إلا فرائض الله وما يتبعها، ولا تستغل الفرائض لتضييع الوقت، بل بقدر الحاجة، ولا يصح الاشتغال بنافلة أو مباح يؤثر على العمل داخل وقت العمل، كقراءة

القرآن وصلاة الضحى والنافلة والأحاديث الجانبية وقراءة الجرائد وكتابة مقالات وأكل طعام وتسالي.

ويجوز فعل مثل هذه الأمور إذا كانت لا تؤثر على العمل، بأن كان العمل المطلوب يمكن إنجازه في بعض الوقت، ويبقى بعض الوقت فارغاً، فلا بأس من الانتفاع به، بل يندب ذلك في هذه الحالة، ولا يجوز لصاحب العمل أن يمنع منها ما دامت لا تؤثر على عمله.

ـ ويجب على العامل والموظَّف أن يهتم بتسجيل ما يجب تسجيله؛ من وقت الحضور والمغادرة والإجازة، وتدوين مصروفات المؤسسة أو الشركة، وحركة السيارات والباصات، ويصدق في ذلك، حتى لا يكون التهاون والكذب في ذلك سبباً في إهمال العمل أو تضييع أمواله أو سرقة منافعه، فيكون خيانة للأمانة.

ويجب على الموظف إذا اضطر للغياب، أو كان يعلم من نفسه أنه سيتغيب؛ أن يُعلِم المسؤول عنه ويبلغه، لتأمين البديل عند اللزوم، فلا يكونَ غيابُه تضييعاً للعمل وخيانةً لصاحبه.

ثالثاً: الممتلكات والمنافع في العمل أمانة:

فلا يجوز التعدي عليها، ولا تعريضها للخطر بالإهمال، ولا إساءة استعمالها، أو استعمالها في غير ما أعدت له.

ويجب على العامل والموظف أن يتعامل مع الأدوات والممتلكات ـ كالأبواب، والطاولات، والسيارات، والحواسيب وآلات التصوير والأجهزة والماكينات ـ بعناية في استعمالها، وحين نقلها، وتكون عنايته بها العناية المثلى،

وأكثر مما لو كانت له، فالواحد منا إذا كان صاحب مال قد يتسامح مع نفسه فيه، لكنه لا ينبغي أن يهمل أموال الآخرين.

ولا يجوز للعامل أن يسلِّمَها لمن لا يحسن التعامل معها، أو لا يهتم بها، أو لا يحس بالمسؤولية والأمانة تجاهها، ولا يسلمها لمن لم يؤذن له باستعمالِها أو حملِها أو الاستفادةِ منها أو أخذِها.

ولا يجوز أن يأخذ العامل شيئاً من أدوات العمل وأجهزته، ولا أن يستعملها استعمالاً شخصياً، إلا بإذن صاحب العمل، أي مالكه، إن كان ملكاً خاصاً، أما المملوكات العامة فلا يحق للقائم عليها أن يأذن بشيء من ذلك؛ إلا إذا كان فيه مصلحة العمل أو مصلحة العامة والأمة.

فليس من حق الوزير أن يأذن لنائبه أن يأخذ طابعة أو سيارة للوزارة ليستعملها لأمور شخصية.

ولا يجوز في العمل استعمال الحاسوب والطابعة لطباعة أوراق شخصية أو بطاقات لمناسبات خاصة شخصية لا علاقة لها بالعمل.

وليس من حق إمام المسجد أو المؤذن أن يستعمل مكنسة المسجد لتنظيف بيته، وليس من حقه أن يأذن لأحد بأن يستعملها في بيته وأموره الشخصية.

وليس من حق الموظفين أن يستعملوا الأجهزة والأدوات ـ كالحاسوب والمدفأة والسيارة ـ لأمورهم الشخصية، وإنما تستخدم داخل العمل بالقدر الذي يأذن به صاحب العمل أو القائم عليه، أو بالقدر المتعارَف عليه، بما لا يزيد عن الحاجة، ما لم يكن هذا العرف فاسداً.

ومن الأعراف الفاسدة في ذلك: أن يستعمل أقلام العمل وأوراقه للأمور الشخصية، إلا بعد إذن صاحب المال والعمل الخاص، ولا يجوز للقائم

على العمل العام والتبرعي أن يأذن بذلك، إلا بما فيه مصلحة العمل.

ولا بأس من التسامح ـ في العمل الخاص دون العام ـ بالقصاصة التي لا ينتفع منها، أو بالزوائد التي تلقى وتتلف، بعد التأكد من الإدارة أنها لا يستفاد منها، وبالقلم في أشياء قليلة ككتابة رقم أو تذكير بأمر مهم، بشرط ألا يكثر ذلك، أو يكون بإذن، وما جاز التسامح به فالورع تركه.

ولا يجوز ذلك في العمل العام أو التبرعي، فالنبي ﷺ لم يتهاون حتى بالتمرة من المال العام، فقال لسِبْطه الحسنِ بن علي رضي الله عنهما حينما أراد أن يأكل تمرة من تمر الصدقة: كَخْ كخ[1]، وعمر بن عبد العزيز ﷺ لم يتسامح برائحة العطر والطيب، فحينما جاءه طيب من المال العام أغلق أنفه حتى لا يشم رائحته، لأنه ليس له وإنما هو مال عام[2]، وقال ﷺ: «إن رجالًا يتخوّضون في مال الله بغير حق؛ فلهم النار يوم القيامة»[3].

ـ ولا يجوز استعمال سيارات العمل أو باص المدرسة لتوصيل أشخاص أو طلبات شخصية ليست من العمل.

ولا يجوز استخراج كراسي المؤسسة أو كراسي المسجد أو كراسي المراكز لحفل في منزل أو عرس.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٤٢٠ ومسلم رقم ١٠٦٩ عن أبي هريرة ﷺ. و«كَخْ أو كَخٍ أو كِخْ أو كِخٍ»: كلمة يزجر بها الصغار عن تناول ما لا ينبغي تناوله أو أكله.

(٢) عن «رِيَاح بْن عَبِيدَةَ قَالَ: أُخْرِجَ مِسْكٌ مِنَ الْخَزَائِنِ، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ [أي ابن عبد العزيز] أَمْسَكَ بِأَنْفِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَجِدَ رِيحَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا ضَرَّكَ أَنْ وَجَدْتَ رِيحَهُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هَلْ يُنْتَفَعُ مِنْ هَذَا إِلاَّ رِيحُهُ ؟»، ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى ٥/ ٣٦٨ رقم ٦٧٠٠، ونحوه عند النووي في تهذيب الأسماء ٢/ ٣٤٠.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٩٥٠ عن خولة بنت ثامر الأنصارية رضي الله عنها.

ولا يجوز أن يؤخذ من ممتلكات العمل لبيوت الأشخاص، فلا يصح نقل ماء من المؤسسة إلى بيته، ولا يصح لأستاذ ولا لطالب أن يأخذ طباشير المدرسة ويخرجها إلى بيته أو خارج المدرسة، ولا يصح أن يأخذ المناديل من المسجد أو المؤسسة إلى بيته، وإنما يستعملها في المسجد والعمل إن لزمت له، فلا يصح أن يأخذ منها في جيبه عدداً فوق حاجته التي طرأت في المسجد، ولا يصح إخراج الأجهزة الصوتية من العمل لأمور أو حفلات شخصية.

ولا يجوز لموظف أن يترك المال يُهدَر بلا فائدة، كأن يترك الكهرباء مشغلة بعد انتهاء الدوام، أو يترك المدفأة الكهربائية مشتعلة في غرفة فارغة لا يستفاد من تدفئتها، ولا يصح لمُدَرِّس أن يكتب بالطباشير ما لا فائدة من كتابته، تسلياً أو خربشة، فيتلف المال في غير ما صرف له.

ولا يجوز إهمال المال، بترك العناية اللازمة به أو التقصير في حفظه، كترك بعض الأدوات تتلف لعدم تغطيتها، أو بترك الأطفال أو الطلاب يعبثون بالأثاث أو المقاعد أو الدهان أو الأدوات، أو عدم تفقد الأبواب وقفلها، والنوافذ وإغلاقها، بما يعرض المؤسسة للسرقة أو الوسخ.

ـ ولا يجوز استخدام هاتف العمل لأمور شخصية، من ناحيتين: من ناحية تكلفته فيتحملها الموظف، ومن ناحية استهلاكه بهذا الاستعمال الشخصي، ولا يجوز التسامح بهذا في الأموال العامة، وما يكون من تكلفة فيجب على الموظف أن يدفعها إلى العمل أو المؤسسة، وإلا يكون قد أكل مالاً حراماً، ويجوز استعمال مثلِ هذه الأمور في الأموال الخاصة إذا أذن صاحب العمل، وبقدر إذنه، أو بقدر المتعارف عليه الذي تطيب به نفوس أصحاب الأموال، ويُتَسامَحُ باستعمال الهاتفِ في العمل العام والخاص للضرورة، وبقدر الضرورة، مع التعويض للتكلفة.

كما لا يجوز استعمال الهاتف الشخصي ـ الخلوي ـ في أوقات العمل، إذا كان ذلك يضيع وقت العمل، أو يؤثر على الانتاجية في العمل، إلا بقدر الضرورات الملحة، أو بقدر الإذن.

ـ لا يجوز التجاوز والإسراف في استعمال الأشياء عن القدر المطلوب، لتنقلب ضد مصلحة العمل، فإذا تطلَّب العمل تصوير أوراق فيتحرى العاملُ العددَ اللازم، ولا يزيد عنه بلا فائدة، ولا يجوز للسائق أن يسرع بحيث يعرِّض سيارة العمل أو الباص للخطر، وإذا كان السائق ينقل موظفين؛ فعليه أن يتحرى الطريق الأقرب والأسلم، ولا يجوز له أن يُطوِّل الطريق ليقدِّم شخصاً على غيره بغير مبرر.

ـ ولا يجوز لأحد أن يأخذ كتاباً من مكتبة بغير إذن، ولا ينبغي له التأخر بها، أو إساءة استخدامها بما يُنقِص قيمتها أو يتلِفها، ولا يجوز له إهمالها في يد أولاده الصغار فيمزقونها، أو يتركها قريباً من الطعام والشراب، فيلوثونها.

رابعاً: التعامل مع الموظفين تحتك ومثلك وفوقك أمانة:

فلا يصح الإساءة لأي عامل، ولا يصح الكيد له، ولا يصح إتعابه بغير فائدة، ولا يصح تكليفه ما لا يستطيع، «ولا يكلفه ما يعنته وإذا كلفه فليعنه».

ولا يصح السكوت عن خطإ مؤثر على العمل أو مفسد له، ويجب استعمال الكلمة الطيبة والألقاب الطيبة بين الموظفين، والاحترام المتبادل، ويجب الحذر من الغيبة والنميمة والتسرع في الاتهامات.

ويجب على صاحب العمل إن كانت أرباحه جيدة يستطيع أن يرفع أجور العمال؛ أن يرفعها إلى حد الكفاية والتوسعة على العاملين قدر الممكن، ولا

يؤخر عنهم رواتبهم ومستحَقّاتهم، ولا يجوز استغلال الموظفين بأجور زهيدة، أو استعمالهم بأكثر مما يعطيهم من أجر.

ولا يجوز لصاحب العمل أو غيره اتهامُ جميع الموظفين عند خطإ أحدهم، ولا يجوز تعميم العقوبة، بل يَخصُّ بها مَن يستحقها.

خامساً: الأموال والأرباح والعوائد والموارد في العمل أمانة:

فالموظف المحاسِب والقابض للأرباح والأموال مسؤول عن أرباح العمل، ولا يجوز له أن يكتم منها شيئاً، أو يأخذ منها شيئاً، إلا بعد الرجوع إلى صاحب العمل ومالكه، وقد سمى النبي ﷺ ذلك غلولاً، فهو يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فما يأخذه الولاة والموظفون من الأموال العامة بغير حق غلولٌ، وكذلك ما يأخذونه من الأموال الخاصة بغير إذن غلول، قال ﷺ: «يا أيها الناس من عمل منكم لنا على عمل، فكَتَمَنا منه مِخْيَطاً فما فوقه؛ فهو غالٌّ يأتي به يوم القيامة»(١)، وقال ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً؛ فما أَخَذ بعد ذلك فهو غلول»(٢).

ولا يجوز صرف الأموال التي يوكَّلُ الإنسان بها إلا لمستحقيها، فلا يصح المحاباة للقرابات والمعارف، ولا يصح صرفها في رشوات.

ولا يجوز للموظف على الصدقات صرف أموال التبرعات إلا لمن طَلَبَ المُتبرِّعُ بصرفها إليه، فلا يجوز جعل أموال المساجد للفقراء، ولا العكس، إلا في حالات الضرورة، مع التعويض إن أمكن.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٨٣٣ عن عدي بن عَميرة ﷺ.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢٩٤٣ عن بريدة ﷺ.

وإذا قُصِد بالتبرع أو الهدية جهةٌ ما؛ صارت مالكة لهذا المال، فلا يجوز اقتطاع شيء منه لغيرهم، بحجة أنه صدقات أو أن هناك من هو أفقر منهم، إلا بإذنهم.

ولا يجوز صرف أموال الفقراء والمحتاجين إلا لمن هو محتاج، وبعد التحري من حاجته، وينبغي البحث عن الأحوج.

لا يجوز للإنسان أن يتوكل ببيع مال الغير لنفسه، لأن ذلك مظنة المحاباة والتبخيس، ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]، فمن أراد أن يشترى شيئاً لنفسه من المال الذي وُكِّل به، فعليه أن يرجع إلى صاحب المال، ولا يجوز له أن يبيع لنفسه فيَبْخَس البائع، ويحابي نفسه.

ـ ولا يجوز للموظف أن يأخذ لنفسه من الهدايا التي جاءت للعمل أو بسبب العمل، أو جاءته شخصياً لكن بحكم وظيفته لا لاعتبارات في شخصه، عن أبي حُمَيد عبد الرحمن بن سعد الساعدي قال: استعمل النبي ﷺ رجُلاً يقال له ابن اللُّتْبِيَّة(١) على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أُهدِي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإني أَستعملُ الرجلَ منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: **هذا لكم وهذا هديّة أهديت إليّ!** أفلا جلس في بيت أبيه وأمه، حتى تأتيَه هديتُه إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله(٢) يوم القيامة، فلا أعْرِفَنّ

---

(١) نسبة لبني لُتْب، وهم بطن من الأَزْد، واسمه عبد الله.

(٢) أي يحمل ما سماه هدية.

أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاءٌ، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَر[1]، ثم رفع يديه حتى رُئي بياض إبطيه فقال: اللهم هل بلغت؟»[2].

(١) الرغاء: صوت الإبل، والخوار: صوت البقر، واليُعار: صوت الغنم.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٥٧٨ ومسلم رقم ١٨٣٢.

المبحث الثالث

العدل وترك الظلم

من كان حريصاً على الحق والصدق؛ يكون حريصاً على العدل، لأن العدل صورة عملية من صور الصدق وإحقاق الحق.

معنى العدل:

إعطاء كل ذي حق حقه دون زيادة ولا نقصان.

وإذا لم يمكن إعطاؤه حقَّه أعطي ما يعادله أو يساويه.

ولا يتعارض العدل مع الإحسان وإنما يتكاملان، لذلك جاء الأمر بهما معاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فإذا كان الواجب أن نعدل مع أهل الميراث ـ مثلاً ـ بإعطاء كل واحد من الورثة حقه، فإن زيادة واحد منهم لا يعد إحساناً، وإنما يعد اعتداء على حق غيره، ويكون ظلماً وميلاً عن العدل، فالإحسان في هذه الحالة وأمثالها أن نلتزم بالعدل.

أما إذا كانت الزيادة على الحق لا تكون سبباً في إنقاص صاحب حق آخر، وإنما تكون تنازلاً وتبرعاً من صاحب الحق، فهي عندئذ إحسان مندوب، كمن أعطى زوجته حق النفقة ثم زادها فوق حاجتها وحقها، من غير أن يكون ذلك على حساب واجب آخر؛ فذلك إحسان منه.

العدل مبني على إحقاق الحق:

إذا أردت أن تكون عادلاً فأنت تعطي كل ذي حق حقه، فإذا لم تكن تعرف حق كل ذي حق، فكيف ستكون عادلاً ؟

لذلك لا بد لمن تخلَّق بالعدل أن يبحث عن الحق ويعرف الحق، ويعرف لكل ذي حق حقه.

وأعظم حق هو حق الله، فمن ضيع حق الله، ولم يعترف بحق الله، فلن يكون عادلاً مع غير الله، فلا يكون إلا ظالماً.

والذي يقرر الحقوق هو الله سبحانه، لأنه مالكُ جميعِ الخَلْق، فهو خَلَقَهم وكُلُّهم له، فالأمورُ التي بَيَّنَ فيها الحقوقَ يجب الرجوعُ إلى بيانه سبحانه فيها، بالرجوع إلى كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فمن لم يرجع إلى شرع الله ﷻ في معرفة الحقوق وفي تقدير كل حق؛ فسيقع في الظلم مرتين؛ لأنه اعتدى على حق الله في التشريعِ والتقديرِ وإعطاءِ الحقوق لخلقه، ثم أعطى بهواه لبعض الخَلْق ما ليس لهم، وحَرَمَ آخرين ما أعطاهم الله إياه.

فلن يقوم العدل إلا بالرجوع إلى شرع الله تعالى.

فالأمم التي حرصت على العدل، لكنها ضيعت طريق معرفة الحق؛ لن تستطيع إقامة العدل على تمامه، لفقدها المقدمة التي ينبني عليها العدل، وهي الحق.

والله تعالى إنما أنزل الشريعة جامعة بين الحق والعدل، ففيها الوزن الصحيح والقيمة الحقيقية لكل شيء، فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ـ وكثير من الناس ينادي بمبدأ **المساواة**، والمساواة هي من العدل؛ إذا كانت الحقوق متساوية، فعندئذ العدل مع كل واحد أن يعطى مثل الآخر، لأن حق كل واحد متساوٍ مع الآخر.

أما إذا اختلفت الحقوق والواجبات، فليس من العدلِ المساواةُ.

كما لا يَصحُّ أن يُسوَّى بين المحسن والمسيء، وبين المظلوم والظالم، وبين المسلم المؤمن والكافر المجرم، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

والأستاذ الذي يُسوِّي بين الطلاب في العلامات، فيعطي الجاهل المهمل الكسول كما يعطي الفاهم الدارس المُجِدّ؛ أستاذ ظالم، أما إذا وضع مقياساً عادلاً يقيس مدى الفهم والعلم، مِن خلاله يَرسُب المقصِّر، وينجح المجتهد؛ فذلك عدل.

والواجب أن يُقَدَّم لسياسة أمور الناس؛ أعلمُ الناس، وأصلحُهم، وأكثرُهم أمانةً وعدلاً ووفاءاً، وأقدرُهم على التفكير والتخطيط والإدارة، فإذا قُدِّمَ الجاهلُ البليدُ سيءُ الأخلاق أعوجُ النية أو قُدِّم الكاذبُ الظالم الخائن المجرم؛ فذلك ظلم، أَنْ يُقَدَّم ظُلْمٌ، وأن يَتَقَدَّمَ ظُلم.

كما أن الواجب أن يقدم لقيادة العسكر؛ أقواهم وأفضلهم معرفة بالحرب والسلاح والقوة والعدوِّ والأرض، فإذا قدم الضعيف الجاهل فذلك ظلم.

والعدل واجب ومطلوب دائماً بين الذكر والأنثى، أما المساواة فواجبة بينهما في أكثر الأمور، وغيرُ مطلوبةٍ في أمور لأنها تتنافى مع العدل.

فالمطالبةُ بالمساواة المطلقةِ بين الرجل والمرأة ظلمٌ، لأن اختلاف الجنسين في أمور يقتضي عدم المساواة، ويقتضي العدل بحيث يُعطَى كلُّ جنسٍ حَقَّه، لا حق غيره، فاختلاف المرأة في خِلقتها وتفكيرها وطبيعتها[1]؛ يدل على أن

(١) تختلف المرأة في طبيعتها وخِلْقَتِها عن الرجل في أمور كثيرة، منها: =

خالقها أراد أن يخص كل جنس بأمورٍ، لتكون هناك حقوق مختلفة وواجبات مختلفة، يتكامل بها الجنسان، مع اشتراكهما في أمور كثيرة.

وهذه الحقوق المتقابلة يتحقق بها العدل بين الجنسين، وتتكامل بها وظائف البشرية.

وتحديد هذه الحقوق والواجبات؛ يجب أن نرجع فيه إلى خالق الجنسين، فهو صاحب الحق في ذلك، وهو أعلم بما يَصلُح من الأحكام والأعمال لكل جنس(١).

وليس لأحد أن يعترض على الله لماذا خَصَّ كل جِنْسٍ بأحكام تختلف عن الآخر، ولماذا جعل فوارق بين خِلقة الجنسين، فالخَلق خَلْقُه، والحكمة حكمته، وهو أعلم بهم، وأعلم لماذا خلقهم، وهو لا يظلم أحداً، ويجب تحقيق مرادِه وأحكامِه، لا ما نَتَوَهَّم أنه أصلح لهما، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أهمية خُلُق العدل وخطورةُ الظلم:

إن أعظم خلق يحتاجه الناس في التعامل بينهم ويصلح حالهم؛ هو العدل، وأخطر خلق يُفسد حال الناس؛ هو الظلم.

ومما يدلك على أهمية العدل أنه يدخل في كل شيء؛ فمجالاته واسعة، تشمل كل معاملة في الحياة، كما سنبين.

= الدماغ، الشعر، الصوت، الغدد، العظام، الجِلد، الحَبَل، الرضاعة، الحيض...

(١) وقد شرع الله أحكاماً تختلف بين المرأة والرجل، كبعض أحكام الصلاة والصيام، وأحكام العورة، وأحكام العمل والقرار في البيت، وأحكام النفقة والحضانة والميراث، وأحكام الجهاد والغنائم، وأحكام الشهادة والقضاء والحكم والإمارة، وغير ذلك.

ـ قد لا تكون كريماً، لكنك لا تسيء إلى الناس، وقد لا تكون متواضعاً، لكنك لا تتكبر على الناس ولا تظهر ذلك، وقد لا تكون شجاعاً، لكنك لا تسلط الأذى عليهم، فتلك أخلاق نفعها لنفسك قبل أن يكون نفعها للناس، ويكفي منك لو كففت شرك وسوء خلقك، لكن حينما يكون الإنسان ظالماً ولا يكون عادلاً؛ فلا بد أن يضيع حقوق الناس ويعتدي عليهم، يحولها إلى غيرهم أو إلى نفسه عدواناً بغير حق، فمن خرج عن العدل فلا بد أن يؤذي الناس ويفسد حالهم ويضيع حقوقهم ويصنع الحقد بينهم، حتى قد يؤدي إلى الانتقام والجريمة، فالظلم له أثره السيء على الأفراد والمجتمعات، ولأجل ذلك كانت عقوبته عند الله عظيمة.

ـ ولأهمية العدل وخطورة الظلم وأثره العام؛ أوجب الله تعالى على الأمة أن تتعاون على منع الظلم، وكتب عقوبة الأمة التي تترك الظالم على ظلمه وهي تقدر أن تنكر عليه وتقدر على منعه وكف ظلمه، قال رسول الله ﷺ: «إن الناس إذا رأو الظالم فلم يأخذوا على يديه عمهم الله بعقابه»[(١)].

وأوجب الله على الأمة أن تتناصر وتتعاون على رد الظالم وإجباره على الحق، وإلا استحقت اللعن والعقاب، لأن سكوتها عن الظالم مع قدرتها على ردعه يعتبر مشاركة له في ظلمه وباطله، قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله؛ نصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ على يديه»[(٢)]، وقد لعن الله بني إسرائيل لأنهم كانوا عاصين وظالمين ولا ينهون عن

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٩ وأبو داود رقم ٤٣٣٨ والترمذي رقم ٢١٦٨ وابن حبان رقم ٣٠٤، عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٣١٢ وأخرج مسلم نحوه رقم ٢٥٨٤ وفيه: «إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر»، وقد ورد في معنى الآية والحديث حديث ضعفه أكثر المحدثين ـ لكن =

المنكر، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

فلا عجب مما مر بالأمة الإسلامية من حال بئيس وعقوبات وتنافر في القلوب، وقد سكت أكثرهم عن الظلم والظالمين، أو شاركوا الظالمين في ظلمهم.

ولخطورة الظلم وفساده وإرهاقه للمجتمع؛ فقد ندبنا الله ﷻ ورسوله ﷺ إلى إنكار الظلم حتى لو لم نكن قادرين على ردع الظالم، وندبنا إلى مجابهة الظالم ونهيه عن ظلمه، حتى لو أدى ذلك إلى القتل، وجعل ذلك من العزائم الكبرى، التي ينال بها مُنكِرُ المنكرِ ورافضُ الظلمِ رتبةً عظيمة ومقاماً كريماً عند الله، فقال ﷺ: «سيد الشهداء حمزة، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»(١)، وقال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٢).

= يشهد له الحديثان المذكوران السابقان ـ ولفظه: «لتأخذنَّ على يد الظالم، ولتأطرنه أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم» رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٠٢٦٧ ونحوه عند أبي داود رقم ٤٣٣٦ والترمذي رقم ٣٠٤٨ وابن ماجه رقم ٤٠٠٦ عن عبد الله بن مسعود ﵁، والحديث روي بأطول من ذلك، ووردت الآية التي سيأتي ذكرها فيه، وفيه أيضاً أن النقص دخل على بني إسرائيل بسبب ترك النهي عن المنكر، وقولُه: (لتأخذن): أي لتمنعنه، (ولتأطرنه): أي تحملونه حملاً، (ولتقصرنه): أي تجبرونه إجباراً.

(١) حديث صحيح، أخرجه الحاكم رقم ٤٨٨٤ عن جابر ﵁.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١١١٥٩ والترمذي رقم ٢١٧٤ وأبو داود رقم ٤٣٤٤ وابن ماجة رقم ٤٠١١، عن أبي سعيد الخدري ﵁.

كيف نتخلق بالعدل:

ـ لا يمكن أن يتحقق الإنسان بالعدل ويتخلص من صفة الظلم وأعمال الظلم بكل أشكاله؛ إلا إذا كان مؤمناً بالآخرة، متوقعاً الحساب بين يدي الله، فبقدر ما يخاف من الله ويخاف عقوبته وناره، ويرجو جنته.

وبِقدْرِ ما يكون الإنسان موقناً بذلك، وبقدر ما يتذكر ذلك؛ يكون أبعد عن الظلم وأقرب إلى العدل، فالمنكر للآخرة لا يكاد يجد ما يردعه عن الظلم، والغافل عن هذه الحقيقة يظلم ويتمادى ويعتدي ويجاوز الحدود، ولا يشعر أنه فعل شيئاً، لاسيما حينما يكون والياً أو حاكماً، فيتمكن ويقدر على أن يتسلط بقوته وسلطانه وجنده، ولا يستطيع أحد من الناس أن يردعه، أو حتى أن يعظه، كالذين وصفهم الله بقوله: ﴿ تَوَلَّىٰ [1] سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

إن الذي يرى لله حقاً، وهو أن يُعبَد وتُلتَزَم أحكامُه وشرعه، لا بد أن يحرص على أداء حقوق الخلق، ويحرص على العدل بينهم، حتى لا يكون مخالفاً لأمر الله وحق الله، فالله أمرنا بالعدل.

إن الذي يرى وجوب الأدب مع الله، يرجع إلى أمر الله، ويقف عند حدوده، ولا يتجاوز أمره ونهيه.

إن الذي يعلم أنه إن ظلم الناس، فالله القاهر القادر العدل الحسيب؛ سوف يحاسبه، ويقدر على إنزال العقوبة به، فإذا عجز أصحاب الحقوق في الدنيا عن انتزاع حقوقهم في الدنيا، فالله يوفي كل إنسان حقه يوم الحساب.

---

(١) أي صار والياً وحاكمًا أو مسؤولًا عن أمر أو ناس.

إن الذي يعلم أنه مهما بلغ من القوة فالله أقوى منه، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤٥-٤٦].

إن من يعلم هذه الحقائق ويستحضرها في عقله وقلبه كل حين؛ لا يمكن أن يكون ظالماً.

ـ والظلم لا يصدر إلا عن القلب المتكبر والقلب القاسي الذي فَقَد الرحمة، فالرحيم المتواضع لا يظْلِم، بل يعطي كل شيء حقه، ومن رأى نفسه فوق الناس، ورأى أنه يستحق أكثر من الناس؛ فهو المتكبر الذي يأكل حقوقهم ولا يبالي، فيرى من حقه أن يعتدي على الآخرين، وليس من حق الآخرين أن يَقْرَبوا حقه، فهو يميز نفسه على الناس، ويرى نفسه أكبر منهم، فيَطمعُ بما ليس له، وحينما يعتدي على حق إنسان أو ينقله إلى غير صاحبه لا يؤنبه ضميره، لأنه ميت قاسٍ، لا يعرف الرحمة، ولا يبالي بقهر الناس بالتسلط على حقوقهم بغير حق.

وقد بين النبي ﷺ أن الكِبْرَ هو سببُ في الظلم، فلا يمكن أن يتحقق المسلم بالعدل إلا إذا عالج الكِبْر في نفسه، قال ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»(١).

ـ ومن كان غارقاً في حب الدنيا، طامعاً في شهواتها المحرمة؛ فإن طمعه يَغْلِبُه ويحمله على التعدي وأكل ما ليس له، والمؤمن الزاهد في الدنيا يقتصر على أَخْذِ ما أحل الله له، ولا يتمتع إلا بما يملكه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار ﷺ.

فَرْض العدل وتحريم الظلم:

أمر الله تعالى العباد جميعاً بالعدل وجعله من الفرائض، فقال: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (1)﴾ [الأعراف: ٢٩].

وأمر كل حاكم به: قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

وأمر نبيه ﷺ بالعدل: قال تعالى حاكياً قول نبيه ﷺ: وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

وحرم الله الظلم على نفسه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

وحرم الله الظلم على العباد جميعاً، وجعله من موجبات العذاب والنار، فقال ﷺ في الحديث القدسي: قال الله تعالى: «إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»(2)، وقال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة»(3).

ولقد حذر الله سبحانه من إهلاك الظالمين، وجعل إهلاك الظالمين من سنته في خَلْقِه ومُلْكِه، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١].

---

(١) القسط: العدل.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٧ عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٨ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وفي البخاري رقم ٢٣١٥ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

والله تعالى جعل سبب العقوبة والعذاب هو الظلم وليس الكفر، فإنْ عَذَّبَ الكافر فَلِظُلْمِه، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، والظلم هنا بمعناه العام، فيدخل فيه الشرك والكفر بالله، لأنه تَعَدٍّ على حق الله، ويدخل فيه المعصية والفساد والإفساد، ويدخل فيه الاعتداء على حقوق الآخرين.

ومن سنة الله أنه يعطي الظالمين مهلة عسى أن يتوبوا ويرجعوا، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]، فإذا كانت بعض البلاد تُحكَم بالظلم، ويرى حكامُها استقراراً؛ فذلك من الإمهال والاستدراج، ولن يدوم.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه، قال[1]: ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]»[2].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٤-٤٥].

(١) أي الصحابي الراوي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٤٠٩ ومسلم رقم ٢٥٨٣ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ـ والمظلوم له حق، لذلك فالله يستجيب دعاءه على ظالمه، قال ﷺ: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

والمظلوم لا يَضيع حقه عند الله، فإن لم يأخذ حقه في الدنيا أخذه في الآخرة، حتى الحيوان المظلوم يقام له العدل، ويطالب الظالم برد الحق يوم القيامة، قال ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ(٢) مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»(٣)، وقال ﷺ : «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ(٤) شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ »(٥).

فالله تعالى يقيم ميزان العدل يوم القيامة: قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ـ وحتى لا يلاحقنا عقابُ الظلمِ وظُلُماتُه إلى يوم القيامة علمنا النبي ﷺ أن نتخلص من الظلم برد المظالم والاعتذار من المظلومين، قال ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالحٌ أُخذ منه بِقَدْرِ مَظْلَمَتِه، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»(٦).

(١) أخرجه البخاري رقم ١٤٢٥ ومسلم رقم ١٩ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.
(٢) الجلحاء: التي ليس لها قرون، والقرناء: التي لها قرون، فتؤذي بها الجلحاء وتعتدي عليها.
(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) (قِيد): أي قَدْر.
(٥) أخرجه البخاري رقم ٢٣٢١ ومسلم رقم ١٦١٢ عن عائشة رضي الله عنها.
(٦) أخرجه البخاري رقم ٦١٦٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

من آداب العادل

العادل يلازم العدل في كل تصرفاته، ويتأدب به في كل معاملاته، ويحرص عليه في كل مجالاته، وفي كل موقف وظرف يتطلب العدل، فإذا تولى الحكم على عامة الناس أو بعضهم، أو تولى القضاء، أو أدى الشهادة، أو عامل الزوجات والأبناء، أو باع أو كَالَ أو وَزَنَ، أو أصلح بين الناس؛ في كل ذلك وغيرِه يعدل بين الناس، ويعطيهم حقوقهم لا يضيع شيئاً منها.

فإذا قام المسلم بالعدل في كل حال وفي كل موقف؛ اتصف بالعدل وتحلى به حتى يصير عنده سجية وطبيعة، فيكونَ خُلُقاً راسخاً، وصفة ملازمة له في جميع أعماله.

ومن أهم آداب العادل وأعمالِه وسلوكياتِه في أحواله المختلفة:

١ . **العدل في الشهادة**، بحيث لا يشهد شهادة تكون سبباً في تضييع العدل، إذ لا يقوم عدل بلا صدق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء:١٣٥]، فالمؤمن مطالب بالقيام بالقسط، أي بالعدل، غير مائل إلى جانب بغير حق، وشهادتُه يُرضِي بها الله تعالى، لا يرضي بها هواه أو أحداً من الناس، فإنه لو فعل ذلك فإنه يظلم ويأكل حق الناس، أو يعطي الحق لغير صاحبه، ومن أعرض عن ذلك بأن كتم الشهادة والحق أو رفض أداء الشهادة، أو لَوَى بأن حرَّفها؛ فالله عليم خبير بجريمته، وهو الذي يعاقبه عليها.

٢. من أدب العادل: **أنه يشهد بالحق على كل الناس**، فيقول الصدق الذي يقوم عليه العدل، ولو كان في شهادته إدانةٌ لنفسه أو والديه أو أقاربه، الفقراء أو الأغنياء، الضعفاء أو أصحاب الجاه، كما بينت الآية السابقة.

وحينما يكون الإنسان معتدياً وآكلاً لحق غيره، وتُطلَب منه الشهادةُ على نفسه؛ فيجب عليه أن يشهد على نفسه، ولا يجوز عندئذ الستر على نفسه وإخفاء جريمته وظلمه، لأن الستر في هذا الموطن يضيع حقوق الآخرين، فلا تدخل هذه الحالة في المجاهرة التي نهى عنها النبي ﷺ، إنما يستر الإنسان على نفسه فيما بينه وبين الله، وليس فيما فيه حقوق للناس، إذا كان سَتْرُه يُضَيِّعُها.

٣. من أدب العادل: **الصدق في الشهادة، ولو كنت تكره من تشهد عليه،** فلا يجوز أن يحملك الكره والبغض لمن تشهد عليه على أن تكذب أو تمتنع عن الشهادة التي تُبرِّئُه أو تُقرِّرُ حَقَّه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ[1] عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وإذا أردنا الصدق في الشهادة فلا بد أن نختار للشهادة من نرتضيه، من أهل الصدق والتقوى والعدل، فالكاذب والفاسق لا يصلح شاهداً، لأنه قد يكذب ويظلم، لذلك اشترط الله للشهادة أهل العدل، فقال سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

٤. من أهم آداب العادل: **الحكم بالعدل**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

(١) أي بغضهم وكرههم.

تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨].

والحكم بالعدل يتضمن أموراً:

أولاً: أن يكون القانون الذي يعتمده الحاكم لا يظلم ولا يحابي ولا يكون سبباً في الانحراف عن العدل، ولا يكون القانون عدلاً إذا كان يخالف أمر الله وشريعته، وأما ما لم يرد فيه نص شرعي فعندئذ يجتهد الحاكم بأن يكون القانون فيه عادلاً بين الناس، مسترشداً بمقاصد الشريعة.

ثانياً: أن يُسنِد الحاكمُ الأعمالَ إلى أهل العدل الأكفياءِ الأمناء، لأن القانون إذا كان عدلاً؛ يمكن أن يبطله أو يتحايل عليه القائم عليه والمُنَفِّذ له، إذا لم يكن أميناً عادلاً.

ثالثاً: أن يُنفِّذ الحاكمُ القانونَ تنفيذاً صحيحاً عادلاً، سواء كان القانون مما هو من أحكام الشرع، أو من الأحكام التي ترك الشرع تقنينها إلى الحاكم ونوابه ومستشاريه.

رابعاً: أن يُمكِّن الحاكمُ كلَّ فَرْدٍ من أسباب تحصيل الحقوق، وأن يمكِّنهم من أسباب الحياة والحرية وفق شرع الله، فإذا كان الحق على قويٍّ أُخِذَ للضعيف، وإذا أراد القويُّ وصاحبُ السلطة أن يتسلَّط على ضعيف أو يظلمه أو يقيد حريته؛ حماه الحاكم بالعدل، وإذا أراد الغني أن يأكل حق الفقير الذي أوجبه الله له؛ رَدَّ الحاكم للفقير حقَّه المشروعَ بالعدل، وإذا قصَّر أحد في واجبه؛ أُجْبِر عليه وحُمِل عليه بالعدل والمعروف، ومن أبى وأصرَّ على الفساد والظلم؛ شُدِّد عليه وعوقب، حتى يُردَّ إلى العدل، وحتى نحافظ على حقوق الناس وإقامة العدل فيهم، ومن كان والياً

فظَلَم؛ فيجب إزاحتُه عن منصبه، كما يجب إزالةُ ظلمِه، فلا يستحق الظالم إمامةً أو ولايةً أو مسؤولية.

وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم، ويترتب عليها أثر عظيم في الأمة والمجتمع والأفراد، لذلك كان أجر الحاكم العادل عظيماً، وكان عدله سبباً في الإكرام والنعيم العظيم يوم القيامة، قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»[1]، فأعظم مَن يَستحق الإكرام يوم القيامة هو الحاكم العادل.

وأيضاً كان إثم الحاكم الظالم كبيراً، ويُعدُّ غادراً يستحق عذاباً أليماً، قال ﷺ : «لكل غادر لواء يوم القيامة، يُرفع له بقدر غَدْره، ألا ولا غادرَ أعظمُ غَدْراً من أمير عامة»[2].

ـ ولا يتحقق العدل من الحاكم، حتى يرى نفسه محكوماً بالأحكام والقوانين ومسؤولاً عن أفعاله وأقواله، كأي فرد محكوم.

وحكم الحاكم على غيره لا يلغي أن يكون محكوماً، فهو أمام الحكم والقانون سواء كأي فرد من الشعب والمجتمع، فالجميع يخضع لموازين العدل؛ في القيام بالواجبات والمطالبة بالحقوق.

ولا يجوز أن يُعفى من عقاب لأنه شريف أو حاكم، وليس له حق فوق حقوق الناس، إلا ما أعطاه الله تعالى من حق، كالطاعة إذا أطاع الله تعالى.

وليس من حق الحاكم أن يلغي أحكام القضاء، كأن يلغي حكماً ثابتاً صحيحاً على قاتل حُكِمَ عليه بالقتل، أو على سارق حُكِم عليه بقطع يديه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٢١ ومسلم رقم ١٠٣١ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٧٣٨ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٥. من أدب العادل: **العدل في الوزن والكيل في البيوع**، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٦. من أدب العادل: **العدل في توثيق العقود والديون**، بالصدق في كتابتها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ ... وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فالكتابةُ الصادقة سبب في تقويم الشهادة وتعديلها، والكتابةُ سبب يمنع من الكذب في الشهادة عند أدائها، وبذلك يُتوصَّل إلى إقامة العدل وإحقاق الحقوق.

٧. من أدب العادل: **العدل في الإصلاح بين المختلِفين والمتقاتِلين المسلمين**، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩-١٠]، فلا بد من إنصاف الفريقين، مع رد الظالم عن ظلمه، والوقوف مع المظلوم، حتى يرجع الظالم عن ظلمه واعتدائه.

٨. من أدب العادل: **العدل مع الزوجة وبين الزوجات**، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ(١)﴾ [النساء: ٣]، وقال رسول الله ﷺ:

(١) ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾: أي حتى لا تميلوا عن العدل والحق، وقيل معناه: حتى لا تفتقروا، وقيل معناه: ذلك أقرب إلى أن لا يكثر عيالكم، فتقعون في الظلم وتتركون العدل.

«إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط»(١).

حتى لو كره الرجل زوجته وجب عليه أن يعدل معها، وأن يعطيها حقها، وأن يعاملها بالإنصاف والمعروف والعدل، إن لم يعاملها بالإحسان، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقد أمر الله من وصل به الحال إلى أن يطلِّق زوجته أن لا يسيء إليها مع الطلاق، وأَمَرَه إن أراد أن يُبْقِيَها أن يعاملها بالمعروف، فيقدم لها القدرَ المتعارفَ عليه والمشروعَ من الحقوق مع الكلمة الحسنة الطيبة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٩. من أدب العادل: **العدل في معاملةِ الأولاد والإنفاقِ عليهم**، فلا يُميِّز واحداً منهم دون إخوانه في العطاء، لغير ضرورة أو حاجة، فإن ذلك تفريق بينهم، يورث الحقد بينهم ويوقع الضغينة في قلوبهم على والدهم وعلى بعضهم، فتمام العدل أنه إذا أراد أن يعطي واحداً منهم لغير حاجة أعطى إخوانَه مثلَه، أما إذا وُجِدت حاجةٌ عند أحدهم فلا حرج أن يُعطِيَ المحتاجَ المضطرَّ بقدر حاجته دون إخوانه، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضى الله عنهما - قَالَ سَأَلَتْ أُمِّي أَبِي بَعْضَ الْمَوْهِبَةِ(٢) لِي مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ بَدَا لَهُ فَوَهَبَهَا لِي، فَقَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَنَا غُلَامٌ، فَأَتَى بِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أُمَّهُ بِنْتَ

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١١٤١ وأبو داود رقم ٢١٣٣ ولفظه: «وشقه مائل»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي طلبت الأم من الأب أن يعطي لأحد أولاده عطيةً هبةً له دون إخوانه.

رَوَاحَةَ سَأَلَتْنِي بَعْضَ الْمَوْهِبَةِ لِهَذَا[1]، قَالَ «أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأُرَاهُ قَالَ: «لاَ تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ»[2].

والتسوية في العطاء هو من العدل، كما ورد في إحدى روايات الحديث: «اتَّقُوا الله، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلادِكُمْ»، وعدم التمييز لأحد من الأبناء بالعطية أمر أخلاقي، أمر به النبي ﷺ ليحافظ على قلوب الأبناء من الحقد والغيظ الذي قد يؤدي إلى خلل في بر الأب، فقد جاء في رواية للحديث قول النبي ﷺ: «أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً ؟» قَالَ: بلى، قَالَ: «فَلا إِذاً»[3].

ومن العدل: أن يقدم الوالد للأولاد حاجتهم من الطعام والشراب واللباس، وغيرها من الحاجات.

ومن العدل المطلوب من الأم: أن ترضع الولد حاجته من الحليب، فهذا طعامه، وهو حقه، والعدل إعطاء ذي الحق حقه، فإِنْ أَنْقَصَتْ عليه وأَجاعَتْه فهي ظالمة، وإِنْ تَركَتْ إرضاعَه وأَبْدلتْه بحليب صناعي فقد ظلمته؛ إن لم تكن مضطرة إلى ذلك، فالفطرة وتمام الصحة[4] أن تُرضع الأم ولدها نحو سَنَتَين، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١) أي: فما الحكم؟

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٥٠٧ ومسلم رقم ١٦٢٣ عن النعمان بن بشير ﷺ، وفي رواية: قال: «لاَ أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ».

(٣) هذه الرواية والتي سبقتها أخرجها مسلم رقم ١٦٢٣، وقوله: (فلا إذاً): أي فلا تعط واحداً دون إخوته.

(٤) الرضاعة تزيد المناعة عند الطفل وتقوي جسده، وتزيده من الحنان والعطف والطمأنينة النفسية، ما لا يعوضه إياه أي طعام آخر مهما كان صحياً.

ولا يقتصر العدل بين الأبناء على الأمور المادية أو الحسية، بل يدخل فيه الأمور المعنوية، فمن واجب العدل عند الآباء: أن لا يفرقوا بين أولادهم في التربية والإكرام والحنان والدلال والتقريب والاستخدام، حتى لو كان بعضُهم أحبَّ إلى أبيه وأمه من غيره؛ فينبغي أن يساوي بينهم جميعاً، ولا يميز بعضهم على بعض، ليكون عادلاً، وحتى لا يكون ذلك سبباً في الكره والتباغض والتحاسد والإيذاء والقطيعة.

وقد يكون الأب عادلاً، ويتوهم الأبناء أنه غير عادل، فيحقدون ويكيدون، كما كان من شأن يعقوب عليه الصلاة والسلام، فهو لم يميز بين أبنائه، بل نبه يوسف عليه السلام أن لا يحدث إخوانه بما يُشعرهم أنه أفضل منهم، ومع ذلك فإن شعورهم بِتمَيُّزِ أخيهم عليهم دفعهم إلى الكيد، فكيف يكون حال الأبناء إذا وجدوا ظلماً من أبيهم.

١٠. ومن العدل: **الإنصاف في الحكم على الآخرين**، فلا يميل إلى جهة دون جهة، ولا يكيل بمكيالين في تقدير الناس والحكم عليهم، بل يتجرد عن هواه وميوله، ويحكم بالعدل على كل إنسان بما يستحق بحسب ما يعلم من صفاته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فليس من العدل أن إذا كان قريباً أو حبيباً أن ندافع عنه ونبرِّئَه، وإذا كان بعيداً أو غريباً نتجنى عليه ونتهمه ونسيء الظن به، بل يجب أن نُنصِف ونُسوِّي ونعدل بين الجميع، ونستعمل قانوناً واحداً إذا أردنا أن نتكلم عن أي واحد قريباً أو غيره، من جماعتك أو من جماعة أخرى.

ومن العدل في القول: **العدل في الشهادة، والعدل في إصدار الأحكام، والعدل في مخاطبة الجماعة**، بإعطاء كل واحد منهم ما يستحق من خطاب.

ومن هذا العدل: أن **نعدل بين الطلاب** في تقدير علاماتهم وفي معاملتهم، فلا نحابي ولا نظلم ولا نَجُور، ولا ننقص علاماتهم عما يستحقون.

ومن هذا العدل: **أن لا نتوسط ولا نشفع إلا بحق،** كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلِبت إليه حاجة؛ قال: «اشفعوا؛ تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء»(1)، وهذه الشفاعة لا يجوز أن تكون إلا بحق وبعِلم، فلا يجوز الوساطة والشفاعة بالكذب لمن لا نعلم حاله، ولا يجوز الشفاعة لأجل قرابة أو صحبة بغير حق، ولا يجوز الشفاعة طمعاً في رشوة، ولا يجوز أن نشفع ونتوسط في توظيف إنسان في عمل وهو ليس كفؤاً له، أو لا نعلم كفاءته لذلك العمل، ولا يجوز أن نشفع لأحد لِنُقَدِّمه على من هو أحق منه، فذلك ظلم، ولا سيما في الوظائفِ العامةِ وما يَصْلُحُ به حالُ الأمة، فإن توظيف من ليس أهلاً في الوظائف العامة يؤدي إلى ظلم كبير وفساد واسع وخطير.

ومن يتوسط ويشفع في مثل هذه الأمور الباطلة فهو آثم، ويتحمل أوزار من توسط له، وهو مشارك في إثمه وتقصيره وإساءته، قال تعالى: ﴿يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

ـ ولا يكون الإنسان عادلاً حتى يتجرد عن الظلم وعن جميع أعمال الظالمين:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٦٥ ونحوه عند مسلم رقم ٢٦٢٧ عن أبي موسى رضي الله عنه.

ومن صور الظلم

من أعمالِ الظالمين وسلوكياتِهم المذمومة التي يجب التحرزُ عنها والحذرُ منها:

١. أشد الظلم: **ظلم العبد لحق الله**، قال تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]؛ شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه، قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]»(١).

والمشرك إذ يعتدي على حق الله ولا يعترف بربوبيته وألوهيته، يعتدي على الحقيقة العلمية الأعظم في الوجود، ويرجع اعتداؤه على نفسه، لا على الله، فالله تعالى عزيز لا يَبْلُغُ ضُرُّه أحد.

ولا قيمة لأي خُلُق عند الإنسان إذا ضيع هذه الحقيقة، فما قيمة أن يكون الإنسان صاحب خلق مع الناس إذا كان يعتدي على حق الله؛ خالقِه ورازقه الذي أسبع نعمه عليه، ألا ترى أن الإنسان إذا كانت أخلاقه حسنة مع الناس وسيئة مع والديه؛ فهل هو إنسان أخلاقي؟ فكيف بمن هو سيء مع خالقه؟ يتكلم عنه بالباطل أو يسبه.

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢٤٦ ومسلم رقم ١٢٤.

٢. ومن أظلم الظلم: **الكذب على الله لإضلال الناس بغير علم**، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، فكيف يكون صادقاً وعادلاً من يخترع ويفتري ثم ينسب الباطل إلى الحق سبحانه.

٣. من الظلم: **تحريف دين الله وشريعته**، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

والله تعالى حفظ دين الإسلام من التحريف والتزوير والنقص، وحفظ القرآن الكريم من التغيير، لكن بعض الناس قد يقع في تغيير معاني النصوص، وتحريف مقاصد الشريعة، لذلك وجب على العامة الذين يجهلون أحكام الله ولا يستطيعون فهمها أن لا يتجرؤوا على نِسبة الأحكام إلى الله فيما لا يعلمونه، ويجب على العلماء أن لا يتسرعوا ولا يتجرؤوا على الفتوى إلا بعد التحري والتأكد والبحث والعلمِ بالنصوص والاستنباطِ الصحيح منها، وإلا فقد يقع الإنسان في الظلم، وهو يشعر أو لا يشعر.

ومَن قَصَد إلى تحريف معاني النصوص الشرعية فهو ظالم مجرم مفسد.

٤. ومن أظلم الظلم: **الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها**، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٥٧]، فالواجب العقلي والأخلاقي على كل إنسان أن يُصغِي إلى من يَدعُوْه إلى الحق، فإذا جاء بالبرهان والدليل الصحيح، فيجب قبولُ الحقِّ والإيمانُ به.

٥. ومن الظلم: **كتم شهادة الحق**، لا سيما إذا كانت شهادة تتعلق بالحقائق الربانية، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ (١) ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٦. ومن الظلم: **تَعدِّي حدودِ الله**، بترك ما أمرك أن تفعله، أو بفعل ما نهاك عنه، فقف عند الحدود الشرعية التي أمرك بها، ولا تتجاوز فتكون ظالماً، قال تعالى: ﴿تِلْكَ (٢) حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٧. ومِن أخطرِ الظلم: **عَوْنُ الظالمِ على ظُلْمِه**، أو أن تكون جندياً عنده، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢]، والله تعالى لم يَعْذُرْ قومَ فرعونَ المستضعَفين حينما استخفهم فأطاعوه، وكانوا جنداً يستخدمهم وعوناً له على الباطل والظلم والاستبداد، فقد سماهم فاسقين، قال عز وجل: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فلا يجوز لمسلم أن يكون جندياً ومعيناً لأهل الظلم والباطل، حتى في الأمور المباحة إذا كانت ترسخ حكمهم وظلمهم، لذلك منع الله تعالى ونبيه ﷺ أن يكون الإنسان عاصراً للخمر أو بائعاً لها أو مقدماً لها، ولعن فاعل ذلك كما لعن شاربها، وكذلك الأمر فيمن يقدم الرشوة للمرتشي، وكذلك

---

(١) فقد كان اليهود يعلمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، بل كانوا قبل اليهودية والنصرانية، لكنهم كتموا شهادتهم وكذبوا وشهدوا بالباطل فقالوا: كانوا هوداً أو نصارى.

(٢) قوله: ﴿تلك﴾: يشير إلى الأحكام الشرعية التي ذكرت قبل هذه الآية، وهي أحكام تتعلق بالخمر والميسر واليتامى والنكاح ومعاشرة الأزواج والأيمان والطلاق وغير ذلك...

الأمر في النّامِصة، وكذلك الأمر فيمن يكتب الربا ويشهد عليه، فلعن هؤلاء كما لعن آكل الربا وموكله.

وهذه قاعدة عظيمة مهمة في الدين والحياة، يجب التزام المؤمنين بها، فكل عمل في الدولة الظالمة ـ يعين على الظلم أو يثبِّت حكم الظالم ـ يجب تركه، وكل عمل يستعين به الظالم على ظلمه، أو على ترسيخ ظلمه وحكمه؛ يجب أن نتركه، ولا نكون عوناً له فيه.

ولو أن كل إنسان امتنع عن خدمة الظالم وعونه؛ لَسَقَطَ الظالمُ، وانتهى ظلمه، ولكنَّ رِضَا الناسِ بخدمة الظالمين ـ طمعاً في أموالهم ودنياهم ـ هو الذي يُثبِّت الظلم والظالمين، فيتسبب ذلك في فساد حالنا، وتسلط أهل الباطل والظلم علينا، لأجل ذلك كان عون الظالم من أخطر أنواع الظلم التي نعيشها.

٨. ومن الظلم: **مَنعُ الناسِ من مساجد الله**؛ أن يتعلموا فيها الحق، أو يعبدوا الله ويذكروه، أو ينشطوا في الدعوة وأداء رسالة المسجد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

٩. ومن الظلم: **القتل بغير حق**، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا [1] فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

(١) ولي المقتول: هو أقرب أقاربه العصبات إليه، وسلطانه على القاتل: أنه إن شاء قتله، وإن شاء عفا وأخذ الدية، وإن شاء عفا بلا دية.

وقال ﷺ: «لا يزال المؤمن في فُسْحَةٍ من دِينه ما لم يُصِبْ دماً حراماً»(١).

ومن الظلم الاعتداء على حقوق الذمي والمستأمِن والمعاهِد خلال فترة العهد، أو قَتْلُهم بغير حق، قال النبي ﷺ: «من قتل نَفْساً مُعاهِداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»(٢).

١٠. ومن الظلم: **الاعتداء على أحباب الله وأوليائه**، فإن الله يحارب من آذاهم وعاداهم، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب»(٣).

ومَنْ كان في طاعة الله، ولم يظلم؛ فهو في حمايةِ الله وحفظِه، والاعتداءُ عليه ظلم يوجب عقوبة الله، قال ﷺ: «من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنّكم الله من ذمته بشيء، فإن من يطلبْه الله من ذمّتِه بشيء يُدْرِكْه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم»(٤).

وكل مسلم له حرمته عند الله فهو في ضمان الله وأمانه، فلا يجوز أن يعتدى عليه، قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قِبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلمُ الذي له ذِمَّةُ الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»(٥).

١١. ومن الظلم: **طرد المؤمنين الفقراء والضعفاء من المجالس العامة أو الخاصة واحتقارهم**، فذلك ظلم، سواء كان لإرضاء الأغنياء وأهل الجاه أو لغير

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٦٩ عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٥١٦ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٧ عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري رقم ٣٨٤ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقد روي أن بعض رؤساء المشركين من قريش في مكة، لما رأو النبي ﷺ يجالس الضعفاء والمساكين والعبيد، طلبوا منه أن يجعل لهم مجلساً، ولأولئك مجلس، فلا يختلطوا بهم تكبراً على مجالستهم، فأنزل الله هذه الآية، وأنزل قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، فمن الحق والعدل أن نسوي بين الغني والفقير في المجالس، فمِلْكُ المالِ لا يعطي حقاً للترَفُّعِ على الناس.

١٢. من الظلم: **تقصير الداعية في دعوة الناس، وتقصير العالم في تعليم الجاهلين**، فعلى الداعية أن يَدعُوَ قومَه ومَن يستطيع من الناس، ولا يجوز أن يتركهم على ضلالهم، وهو يستطيع هدايتَهم، أو يستطيع إقامة الحجة عليه، فواجبه أن يبلِّغ دعوة الله حتى لو لم يتجاوبوا مع دعوته، وحتى لو أساؤوا إليه، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]، ظن أن الله لن يُضَيِّقَ عليه، لأنه يعتقد أنه لم يخطئ في ترك قومه ومغاضبته لهم، فقد طال الأمر ولم يستجيبوا، فلما شعر بأنه استعجل في تركهم؛ استغفر وتاب، ونظر إلى نفسه على أنه ظالم بذلك.

وكذلك العالم إذا كان يستطيع تعليم الجاهلين، فكتم العلم؛ فهو ظالم، لذلك هدده الله بالعقوبة، قال ﷺ: «من كتم علماً أُلْجِم بِلجامٍ من نار يوم القيامة»(١).

(١) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان رقم ٩٥، ونحوه عند أحمد رقم ١٠٤٩٢ =

١٣ . من الظلم: **الاعتداءُ على أموال الآخرين وأكلُها بغير حق.**

وقد وصف الله أكل أموال الناس بالباطل بالظلم، إذ قال سبحانه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

وشدد الله في تحريم أكل المال لإرضاء الحكام والمتسلطين، فمن أعان الظالم فهو ظالم مثله، ومن استعان بالظالم ليأكل الحقوق فهو ظالم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وصور الظلم بأكل مال الغير بغير حق كثيرة جداً في الواقع، وقد ذكرنا كثيراً منها وتحذير الشريعة منها(١)، ونذكِّر هنا بأهمها:

- أكل أموال الضعفاء كاليتامى، ومهور النساء وميراثهن، وأكل الدَّين، وأخذ الرشوة.
- منع الزكاة أو تأخيرها عن الفقراء والمحتاجين، أو التصرف بها بغير إذنهم ورضاهم.
- الغلول، وهو أكل المال العام(٢)، أو التصرف فيه بغير حق ومصلحة، فليس من حق الحكام والمسؤولين أن يتصرفوا في أموال الأمة كيفما اتفق

= وأبي داود رقم ٣٦٥٨. و (اللجام): الحديدة التي توضع على فم الفرس ووجهه.

(١) ذكرنا ذلك عند الحديث عن ذنوب المال الحرام؛ في الباب الثالث: التزكية العملية.

(٢) وقد يطلق الغلول على أكل المال الخاص.

أو تبذيراً، وإنما واجبهم أن يبحثوا عمّا هو أنفع للأمة، وعما يحقق المقصود من الحكومة والحاكم والدولة، فينفقوا الأموال فيها أولاً، ثم ينتقلون إلى المندوبات والمباحات، ولا يجوز أن يستعملوها في حرام، ولا أن ينفقوها في مباح قبل تحقيق الواجبات، وليس من حق الحاكم أن يخص عائلته أو أزلامه أو بعض رعيته دون بعض من مال الدولة بغير حق.

- قبول الهدايا التي تقدم للموظفين بحكم وظيفتهم، لا بحكم المعرفة الشخصية، فهي ليست من حق الأشخاص والموظفين والحكام.
- السرقة من أموال الآخرين أو أراضيهم أو مخازنهم أو طعامهم؛ ظلم.
- وأخذ الربا ظلم، لذلك قال الله تعالى بعد أن أمر بأن يترك المرابي الربا ويكتفي برأس ماله، قال: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩].
- والقمار والغش والاحتكار ظلم، فهي محرمات يُتَوَصَّل بها إلى مال حرام.
- استغلال الأجراء والموظفين، وعدم إعطائهم كفايتهم، مع القدرة على ذلك، أو تشغيلهم بأجور زهيدة؛ استغلالاً لحاجتهم، وكل ذلك ظلم.

فمن حق الموظف أن يأخذ كفايته، وأن يكون مكفولاً في طعامه وشرابه ولباسه وطبابته وسكنه، قدر إمكان من يَستعمِله ويُوَظِّفُه، قال ﷺ: «من وَلِيَ لنا عملاً، وليس له منزل؛ فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليس له دابة فليتخذ دابة، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غالّ»(١)، لكنه لا يجوز للعامل والموظف أن يأخذ ذلك من غير الرجوع إلى

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد ٤/ ٢٢٩ والطبراني في المعجم الكبير ٧٢٥ عن المستورد بن شداد رضي الله عنه.

من هو مسؤول عن ذلك، وقال ﷺ: «من استعملناه على عمل؛ فرزقناه رزقاً فما أَخَذ بعد ذلك فهو غلول»(١).

- ومن صور الظلم في استعمال المال: فسق المترفين، فبدلاً من أن يستعملوا المال الزائد عن الحاجة في الخير والعون؛ يستعملونه في الفسق والمعصية والشهوات والمجون والتكبر والتفاخر والإفساد، وذلك موجب للهلاك والعقوبة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وواجب المسلم أن يعتدل في إنفاقه، مهما أغناه الله، ويحذر من التبذير والإسراف، ويحذر من الإنفاق للشكليات الفارغة والمظاهر الوهمية والمفاخرات الباطلة.

وعلى الحاكم أن يحذر من التبذير في مال الأمة، ويجب عليه أن ينفق بحسب القدرة، ولا يستدين للشعب والأمة من الكافرين، بالربا أو غيره، ولا يأخذ ضرائب من أغنياء الشعب؛ إلا لضرورة معتبرة، ولا يستدين من أموال الشعب إلا بحق، ولا ينفق منها إلا فيما فيه مصلحة حقيقية شرعية، مع مراعاة الأهم والأولى.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود ٢٩٤٣ عن بريدة ﵁، ومعنى غلول: أي سرقة.

المبحث الرابع

التواضع وترك الكبر

معنى التواضع:

ـ التواضع يعني أن ترى نفسك أخفض وأصغر وأوضع من أخيك المسلم، فلا ترى نفسك أحسن منه، ولا أكبر منه قدراً، فلا تُظهِر له أنك أكبرُ منه ولا أعز، ولا تعتقد في نفسك أنك أكبر منه وأعز.

وقد وصف الله المؤمنين بهذا الوصف فيما بينهم فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والتواضع هو من الرحمة التي أوجبها الله بين المسلمين، لذلك عبر الله تعالى عن التواضع وأثره في لين المعاملة؛ عبر عنهما بالرحمة، فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، فقد ذكر الرحمة في مقابل الشدة.

وإذا كان التواضع مطلوباً مع كل مسلم؛ فهو مطلوب أكثر مع الأقارب والأهل والأبناء والزوجات، وهو مطلوب أكثر مع الوالدين، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فمن كان عنده رحمة استخرج منها ذلة وتواضعاً، ومن فقد الرحمة لم يجد تواضعاً، وإنما يكون قاسي القلب مستكبراً ظالماً.

ـ ولا يعني التواضع أن تكون مهاناً عند الناس، ولا يعني أن يتواقح الناس عليك وتستسلم لهم، فليس من التواضعِ التواضعُ للمتكبر والظالم والمعتدي والوقح، بل واجبنا أن نمنع تمادي هؤلاء، وأن نوقفهم عند حدهم.

وإذا وجدنا في المسلمين من هو ضعيف أو غافل أو أخرق أو قليل الحيلة أو مبتلىً؛ لا يستطيع أن يُحصِّل حقه، ولا أن يدافع عن نفسه؛ فواجبنا أن ننصره ولا نخذله، ولا نقبل تمادي أحد عليه وعلى حقه حاكماً أو غيره.

ولا يعني التواضعُ تضييعَ الحقوق، والجبن عن تحصيل الحق ورد الاعتبار؛ فذلك ضعف وخَوَر، وإنما التواضع أن تكون قادراً على تحصيل حقك؛ وتعفو عنه، وقادراً على تحصيل احترام الناس لك وتسامحهم إن أخطؤوا في حقك.

أهمية التواضع:

ـ التواضع من الأخلاق التي تزيد التراحم والتعاون والمحبة، لأن النفوس لا تحب من يتعالى عليها، ولا تستريح إلى من يرى نفسه فوقها، والكِبْر وترك التواضع سبب في فَقْد المحبة، وإذا فُقِدت المحبة فُقِدت الأُخُوَّة والتراحم وفُقِد التعاون، وحصلت الشحناء والبغضاء والعداوات، وحصل الظلم والاعتداءات.

ولقد بيَّن النبي ﷺ أن التواضع يؤدي إلى أداء الحقوق إلى أصحابها وعدم ظلمهم، ويمنع التفاخر والتعالي على الناس، قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»(١).

وإنما كان ترك التواضع يؤدي إلى التعالي والظلم وأكل حقوق الآخرين، لأن من لم يتواضع رأى نفسه فوق الناس، وأنه يستحق أكثر من الناس، فيأخذ ما لهم مما ليس له، ويُظهر عُلُوَّه عليهم وهو مثلهم في حقيقته وحقوقه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

ومن هنا كان التواضعُ سبباً في العدلِ وإعطاءِ كل ذي حق حقه، وكان التكبرُ سبباً في ظلم الناس وأكلِ حقوقهم.

كما أن الكِبْر يقود صاحبه إلى رفض الحق وإنكاره، وإذا نبهه الناس إلى الحق احتقرهم واستصغرهم، قال ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ[1]»[2].

ـ ومن كان مؤمناً فواجبنا أن نحترم إيمانه ونحترمه لإيمانه، فمن استصغر المؤمن واحتقره لأجل إيمانه كان كافراً، وأدى به ذلك إلى العداوة مع المؤمنين وإيذائهم، ومن عظَّم الكافرين تعظيماً لكفرهم ومنهجهم وطريقتهم الكافرة؛ فذلك كافر، يؤديه ذلك إلى مناصرة الكافرين وموالاتهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

ومن تواضع للمؤمن واحترم ما يحمل من إيمان؛ فذلك من دواعي الألفة والوحدة بين المسلمين، ومن دواعي التعاون، ومن دواعي التجاوز عن الصغائر والأخطاء، ومن دواعي احترام اجتهاداتهم، وإحسان الظن بهم أنهم يريدون الحق، ولكن قد يخطئون كما قد نخطئ، فلا نسيء الظن بهم ونحسن الظن بأنفسنا.

الأمر بالتواضع:

التواضع الذي يكون بين المسلمين هو من فرائض الأخلاق.

وعكسه التكبر عليهم، وهو من الكبائر المحرمة.

---

(١) (بَطَرُ الحقِّ): دفْعُهُ وردُّهُ على قائِلِهِ، (وغَمْطُ النَّاسِ): احْتِقَارُهُمْ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٩١ عن عبدِ اللهِ بن مسعُودٍ ﷺ، وتمام الحديث: «لا يَدْخُلِ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مَنْ كِبرٍ»، فقال رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُه حسناً، ونعلهُ حسناً، قال: «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ».

أوجب الله تعالى على عباده التواضع، ليكون سبباً في القرب من الله، وسبباً في دخول الجنة، وسبباً في محبة العباد، وإكرامهم للعبد، فبيَّن الله سبحانه أن الجنة إنما ينالها من كان متواضعاً، خالياً من الكبر والتعالي وحُبِّ الإفساد، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

والله تعالى وعد المتواضعين بأن يرفعهم وينفعهم ويَأْجرهم، وأن يرفع قدرهم بين عباده، وشَرْطُ ذلك أن يكون المتواضع مخلصاً لله في تواضعه، قال ﷺ: « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، **وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله** »(١).

ـ ولقد كان نبينا وقدوتنا محمدٌ ﷺ أعظمَ الناس تواضعاً، على الرغم من رفعة مقامه وقدره، فكان مِن تواضعه أنه يعمل في بيته مع أهله ويعاونهم في أمور البيت وخدمته، فقد سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت ؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج»(٢).

وكان من تواضعه أنه لا يتكبر عن خدمة أصغر الناس وأضعفهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت»(٣)، أي ليؤدي لها خدمة أو يقضي لها حاجة، أو لينتصر لها من ظلم أو غير ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٠٤٨.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٧٢٤.

وقد أمر الله نبيه ﷺ بهذا التواضع لأصحابه المؤمنين، فقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥]، وقال: وقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨]، فإذا كان النبي ﷺ مأموراً بالتواضع للمؤمنين؛ فكم ينبغي أن يتواضع المؤمنون لبعضهم؟

النهي عن الكبر وبيان عقوبته:

بين الله تعالى أن المستكبر يستحق العقوبة من جنس عمله، فكما يحب أن يهين الناس؛ فهو يستحق الإهانة، قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فالمتكبرون في الدنيا يستحقون مزيداً من الإذلال يوم القيامة، وكذلك قال النَّبِيِّ ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فيُساقون إلى سجن في جهنم...»(١).

والمتكبر يستحق نار جهنم، قال رسول الله ﷺ يقولُ:

«أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ(٢) لَوْ أَقْسَم عَلَ

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٦٦٧٧، والترمذي رقم ٢٤٩٢ والنسائي في سننه رقم ١١٨٢٧، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما.

(٢) (كُلّ ضَعِيف مُتَضَعَّف): أي يَسْتَضْعِفهُ النَّاس وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَيْهِ لِضَعْفِ حاله فِي الدُّنْيَا، وقُرئت (مُتضعِّف) بكسر العين، ومَعْنَاهَا: مُتَوَاضِع مُتَذَلِّل لله لا يرى نفسه فوق الناس، وفيه إشارة إلى رِقَّة الْقُلُوب وَلِينهَا وَإِخْبَاتهَا.

الله لأبرَّه[1]، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ[2] مُسْتَكْبِرٍ»[3].

وحتى نعلم كم يستحق المتكبر من العقوبة الكبيرة فقد ذكر النبي ﷺ أن الله تعالى خَسَف الأرض برجل أعجبته نفسه، فلا زال يتقلب في الأرض إلى يوم القيامة.

كيف نتخلق بالتواضع ونتخلص من التكبر:

تحقق الإنسان بالتواضع هو بحد ذاته علاج للتكبر، وعلاج التكبر يصنع التواضع، ويكون ذلك بأمرين:

١. **أمر قلبي**: بأن يتذكر أحدُنا أنه لا يفترق عن الناس في شيء، إلا بالتقوى، والتقوى يعلمها الله، فهي غيب عنا، لا يجوز لنا أن نبني عليها تمييزاً لأنفسنا على الناس.

ثم إذا كنت فعلاً خيراً من غيرك، فهل تستطيع أن تجزم بأنك ستبقى خيراً منهم، فربما صَلُح أمرُهم وتَحَسَّنوا وتَراجَعْتَ، فصاروا خيراً منك، وختم الله لهم بخير مما أنت عليه الآن، وبخير مما يختم الله لك به، فبأي حق ترفعت عليهم وتكبرت؟

فمن أكثر من تَذَكُّر هذه الحقائق؛ صنعت عنده التواضع، وطهرت قلبه من التكبر.

---

(١) (لَوْ أَقْسَمَ عَلَىَ الله لَأَبَرَّهُ): أي لَوْ حَلَفَ يَمِينًا طَمَعًا فِي كَرَمِ الله تَعَالَىَ بِإِبْرَارِهِ لَأَبَرَّهُ، وقيل معناه: لَوْ دَعَاهُ لَأَجَابَهُ.

(٢) العتل: الشديد الغليظ الفظ الجافي اللئيم، الجواظ: الجموع المنوع، أو الذي ينتفخ بما ليس عنده. أو الضَّخْمُ المُخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٤٦٣٤ ومسلم رقم ٢٨٥٣ عن حارثة بن وهب الخُزاعي ﷺ.

ـ ولأجل ذلك كان التواضع مرتبطاً بالإيمان بالغيب، فالذي يدعي أنه أكبر من غيره كأنما يدعي أنه يعلم الغيب، وأنه يعلم أنه هو خير من غيره عند الله، وأنه مقبول عند الله، وهذا غيب لا يستطيع أحد أن يدَّعيه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وغياب هذا المعنى أو الجهل به؛ هو الذي يجعل بعض الجماعات الإسلامية أو المذاهب أو العشائر أو المؤسسات تتعالى على بعضها، وكأنها تعلم يقيناً قَدْرها وقَدْر غيرها عند الله، وكأنها تعلم مَن المقبول والناجي عند الله، ممن هو مردود عمله.

فكثير من التفاخر بين العشائر والجماعات وغيرها ناشئ عن التعدي على الغيب، فنتكلم ونتصرف وكأننا نعلم الغيب.

ـ وقد يستكبر بعض الناس بما آتاهم الله من النعم، ويتطاولون بها على الناس، بينما المؤمن يرى أن النعمة توجب مزيداً من الشكر والتواضع لله، ويعلم المؤمن أن كل نعمة تقتضي تكليفاً، وعلى المؤمن أن يقوم بحقها، فمن كانت عنده نعمة فهو أكثر تكليفاً ممن لم يُعْطَ تلك النعمة، وسيحاسب على هذه النعمة وعلى القيام بحقها، فكيف يستكبر بها على غيره، وهو خائف ألا يقوم بحقها.

٢. **أمر عملي**: وهو أن يتعلم آداب التواضع التي سيأتي ذكرها، ويلتزم بها ويتكلفها، حتى يعتادها وتصير سجية عنده وطبيعة فيه.

ـ وفيما يأتي آداب المتواضعين من تحلى بها صار متواضعاً، ومن ضيعها صار مستكبراً.

من آداب المتواضعين

أمرنا الله بالتواضع، وأمرنا بجميع مظاهره التي تدل عليه وتنبع منه، لأن المقصود من الأخلاق ليس هو مجرد وجودها في القلب، وإنما المقصود من وجودها التعامل بها مع الخلق.

وإذا كان الكِبْر خُلُقاً قلبياً مذموماً، ومرضاً نفسياً، حرَّمه الله تعالى، فكذلك حرَّم علينا معه كل مظاهر التكبر التي تظهر في أعمال الإنسان، وتدل على وجود الكِبْر في القلب.

ومن أعمال المؤمنين وآدابهم في التواضع وترك التكبُّر:

١. **التواضع لله والخضوع له ولأحكامه والطاعة لرسوله ﷺ**[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

٢. من أدب المتواضع: **التواضع للوالدين**، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فواجب المسلم أن يتواضع لوالديه ويذل لهما، رحمة بهما ووفاءاً لهما، وكأن الذل جناح لطائر، يَحمِل عليه والديه ويتلطف بهما.

٣. من أدب المتواضع: **التواضع للمؤمنين**، وعدم التبختر والإعراض والإدبار عن المسلمين، تكبراً عليهم وتعالياً، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

---

(١) وسيأتي تفصيل هذا في الباب الخامس: تزكية القلب.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨-١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

ومن التواضع للمؤمنين: **أن لا يسخر منهم ولا يحقِّرهم ولا يهزأ منهم**، فالسخرية استعلاء واستكبار على الآخرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

٤. من آداب المتواضع: **عدم مدح النفس**، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]، أي لا تمدحوا أنفسكم، فربما تظن نفسك على شيء؛ ولا تدري ما قدرك عند الله، وربما تظن الخير في غيرك، وهو يُخفي سوءاً، أو يتظاهر بالخير ويتصنع، مع التذكير بوجوب حسن الظن بكل مسلم ظاهره الاستقامة.

وبدلاً من أن تمدح نفسك بما عندك من خير؛ فتذكر بأن الله تعالى هو الذي مَنَّ عليك بهذا الخير، وهو الذي أمدك به، وهو الذي هيأ لك أسبابه، وهو الذي دلك عليه من خلال شريعته، وهو الذي ثبتك عليه، فَاشْكر الله، ليتحول الإعجابُ بالنفس، إلى إعجاب بربك الذي أعطاك وجَمَّلك.

وكلما نظرت إلى نفسك بالتعظيم، وكلما أردت أن تشكر نفسك؛ اشكر ربك، ورُدَّ الأمرَ إلى صاحب الفضل سبحانه، قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ـ ولا يستخدم المسلمُ مدحَ نفسِه وأعمالِه وسيلةً لتحقيرِ الآخرين وازدرائهم، وكأنه يقول بلسان حاله: لا يفقه هذه المسألة أحد غيري، ولا يصلح لهذا الأمر أحد غيري، وإذا سمعت إليه وهو يتحدث عن نفسه تشعر كأنه يقول: إن الله لم يخلق مثلي أحداً.

كما لا يستخدم المسلم أسلوب تخطئة الناس ليُظهِر كبرياءَه ومكانته، فصاحب هذا الأسلوب لا يمدح نفسه، لكنه حينما لم يعترف بأحد، ولم ير أحداً على صواب أو خير؛ كأنما يشير إلى نفسه، ويعظم نفسه.

٥. من أدب المتواضع: **عدم قبول مدح الناس لك وتعظيمهم لك**، حتى لا يتسبب ذلك في انتفاش النفس وتعاظمها وغرورها، لذلك نهى رسول الله ﷺ عن قبول مدح الناس، قال المقداد ﷺ: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المادحين التراب»(١).

كما حذرنا ﷺ من أن نمدح الآخرين، فنتسبب في غرورهم، بل علينا أن نعينهم على التواضع.

عن بكرة عن أبيه ﷺ قال: مدح رجل رجلاً، فقال له النبي ﷺ: «ويحك قطعت عنق صاحبك» [مراراً] ثم قال: «إن كان مادحاً أخاه لا محالة؛ فليقل له: أحسبه، ولا أزكي على الله أحداً»(٢)، وبين الحديث أنك قد تُضطر لمدح أخيك، في وجهه أو في غيابه، وأنت لا تدري حقيقته وباطنه، وصدقه من كذبه، وإنما تحكم بحسب ما تظن ويظهر لك، لذلك لا بد أن ترد الأمر إلى علم الله، فتقول: «أحسبه»، أي أظنه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٠٠٢ والترمذي رقم ٢٣٩٢ وابن ماجة رقم ٣٧٤٢.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٥١٩ و ٥٧١٤ و ٥٨١٠ ومسلم رقم ٣٠٠٠ عن أبي بكرة ﷺ.

وقد كان سلفنا الصالح يستغفرون الله إذا مدحوا، ويبينون أنهم أوضع مما يظنهم الناس عليه، فكان بعضهم يقول: «اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيراً مما يظنون»(١).

٦. من أدب المتواضع: **ترك حب المدح** بما ليس من أفعالك وأوصافك، فمن أبشع صور الكبر: التفاخر بما لم يصنع الإنسان، ولا يجوز للإنسان أن يحب مدح الناس بما فيه، فكيف بشيء لم يفعله أو لا يتصف به، قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ومن ذلك: لا يجوز لحاكم أن يفعل موظفوه شيئاً ثم ينسبه إلى نفسه، ولا يجوز لمسؤول أن يأخذ جهد عماله وموظفيه، سواء كان جهداً فكرياً أو علمياً، أو عملياً أو مَخْبَرِيّاً.

٧. من أدب المتواضع: **أن يعرف الإنسان قدره وقُدُراته**، فلا يَدَّعي أكثر من قدراته، ولا يرى نفسه فوق إمكاناته، ولا يقدِّم نفسه على من هو أقدر منه، ومن الكبر أن يرى الإنسان نفسه أهلاً للقيادة والإدارة والحكم والإمارة، وهو ليس كذلك، أو يتولى أمراً يحتاج إلى متخصصين، وهو ليس منهم، ومن طبع الإنسان أن يرى نفسه أكثر أهلية من غيره، ومن طبع الناس أن يظن كل واحد منهم أنه قادر على أن يحكم أو يكون أميراً، لذلك حذر النبي ﷺ من التساهل في قبول الإمارة والرئاسة والإدارة، وبين عظم مسؤوليتها وندامتها لمن لا يستطيع

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ٧٦١ والبيهقي، شعب الإيمان رقم ٤٨٧٦، ونسبه إلى بعض السلف.

القيام بحقها، فقال ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة»(١).

٨. ومن أدب المتواضع: **عدم الشعور بالتميُّز على الناس، وعدم الرغبة في تعظيمك**، قال ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً؛ فليتبوأ مقعده من النار»(٢).

٩. ومن أدب المتواضع: **عدم رؤية النفس والإعجاب بها إذا تجمّل أو لبس جميلاً**، قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة(٣)، تعجبه نفسه، مُرَجِّل جُمَّتَه(٤)، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل(٥) إلى يوم القيامة»(٦)، وفي رواية زاد: «يَخْتَالُ في مَشْيَتِهِ»، وليست هذه العقوبة لأن مشَّط شعره أو لأنه لبس الثياب الجيدة، فذلك جائز، وإنما معصيته التي استحقت العقوبة المُذِلَّة هي إعجابه بنفسه، وتعاظمه في نفسه.

١٠. ومن أدب المتواضع: **عدم التكبر عن قبول العطاء إذا كنت محتاجاً**، وجاءك من غير مِنَّة، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٧٢٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقوله: «فنعم المرضعة»: أي إن الإمارة تعطي الأمير من المنافع العاجلة واللذات والجاه والسلطان، «وبئست الفاطمة»: فإذا انفطم عن الإمارة بموته لم يبق له من منافعها ولذاتها شيء، وإنما بقي الحساب والسؤال، فلا يجد إلا شراً إن لم يقم بحقها.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد ٤/ ١٠٠ والترمذي رقم ٢٧٥٥ وحَسَّنَه، وأبو داود رقم ٥٢٢٩ عن أبي مجلز رضي الله عنه، وبعضهم يرويه بلفظ: «مَن سَرَّه».

(٣) (الحلة): هي ثوب من قطعتين.

(٤) (مرجل): أي ممشط، (الجُمّة): الشعر إذا كان كثيراً طويلًا يصل إلى الأذن.

(٥) (يَتجلْجَلُ): أَيْ يغوصُ وينْزِلُ ويتقلب.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٥٤٥٢ ومسلم رقم ٢٠٨٨ نحوه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم؛ شيخ زان، وملك كذاب، وعائل(١) مستكبر»(٢).

فهؤلاء مُنعوا من الرحمة واستحقوا العذاب؛ لغرابة هذه الأفعال منهم أكثر من غيرهم، فالغني لا يحق له أن يتكبر، فكيف بالفقير الذي عنده عيال كثيرون وهو محتاج، والإنسان العادي لا يجوز أن يكذب، فكيف بالملك وهو يحكم ويتصرف كما يشاء، ما حاجته إلى الكذب، إلا خساسة في نفسه، والشاب لا يجوز له الزنا، فكيف بالشيخ الكبير، وقد بلغ سناً تعف فيه النفس وتعجز عن الشهوات.

١١. من أعمال المتواضع: **أن لا يستعملوا الآخرين في خدمتهم، إلا إذا اضطروا لذلك**، وأن لا يرى الواحد منهم نفسه أنه أحق بأن يُخدَم، فالمسلم أولى بخدمة نفسه من غيره، وأولى بأموره وأشيائه وأعماله، ولا يستخدم الآخرين تكبراً عليهم، ولا يستخدم الآخرين ولا يطلب منهم شيئاً إلا مضطراً.

وقد بايع رسول الله ﷺ بعض أصحابه على مثل ذلك، بايعهم على أن لا يسألوا الناس شيئاً، حتى كان الواحد منهم يسقط سوطه فلا يطلب من أحدٍ أن يرفعه إليه(٣).

---

(١) أي فقير له عيال وأهل وأولاد كثيرون.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٠٧.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٤٥٠ عن عَوْف بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ ﷺ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ: «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ فَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ»، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، =

وعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا، فكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً شَيْئاً[1].

وهـذا الأدب يقتـضي مـن المسـلم أن يخـدم نفسـه، حتـى لـو كان غنياً يسـتطيع اسـتئجار الناس لخدمته، وإذا اضطر لاسـتئجارهم واسـتخدامهم؛ تعامـل معهم بـأدب رفيع واحترام ورحمـة ولين، ولم يعاملهم بقسـوة وتكبر، ولم يكلفهـم ما لا يطيقون، ولم يُشـعِرهم بالذلة والصَّغار، فهم إخوانه، والمال جعلـه الله ليقضي حوائج الناس، لا ليتخذوه مطية لاسـتعباد الناس وإذلالهم وإهانتهم.

١٢. ومن أدب المتواضع: **خدمة المسلمين، وحب الخدمة لهم**، والسعي في قضاء حوائجهم، والسعي في راحتهم، وعدم الترفع عن خدمة أي مسلم، لا سيما من كان من المحتاجين أو الضعفاء أو النساء أو الأطفال أو الملهوفين أو الغرباء أو المنكوبين أو الغارمين أو الجائعين أو الذين لا مأوى لهم أو المتورطين في ورطة يبحثون عن حل لها، كل هؤلاء وأمثالهم؛ يجب على المسلم أن يهتم بهم، وبقضاء أمورهم، وإصلاح شأنهم، ولا يحق لمسلم أن يهمل أمورهم أو يُطَنِّش عنهم، وهو يستطيع أن يقدم لهم شيئاً، وكل واحد منا قد يبتلى بمثل ما ابتلوا به، وقد يحتاج يوماً إلى من يُعِينه فلا يجد.

= فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ، قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا، وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً: وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ.

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ١٦٤٣.

والله تعالى أمرنا بالتعاون على الخير: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)]، وقال ﷺ: «ولا يخذله»[(٢)].

وبـين النبـي ﷺ أن مـن أعمال الخير عند المسـلم مسـاعدة النـاس وإعانة الضعفـاء وقضاء حوائجهم، «تعين صانعـاً أو تصنع لأخرق[(٣)]»[(٤)]، فالضعيف والمسـكين والـذي لا يحسـن أن يتـولى أمـوره باب من أبـواب الخـير والأجر، والمتواضـع لا يترك قضاء حوائجهـم وهو قادر عليها، إنما يتركها من كان عنده تكبر أو احتقار للآخرين أو إهمال أو غفلة أو ضعف إيمان.

---

(١) أخرجه البخاري رقم٢٣١٠، ومسلم رقم ٢٥٨٠، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومعنى (من كان في حاجة أخيه) أي مشى في قضائها وأعانه عليه، (كان الله في حاجته): أي أعانه الله تعالى وسهل له قضاء حوائجه، (كربة): أي مصيبة من مصائب الدنيا، تجعله مهموماً مغموماً، مشغول الفكر.

(٢) في رواية أخرى للحديث، ومعنى (لا يخذله): أي لا يترك الإعانة والنصر، وهو قادر على ذلك.

(٣) (أخرق): أي قليل الحيلة، لا يحسن تدبير أموره، أو إصلاحها، ويطلق على من لا يحسن العمل أو لا يقدر عليه.

(٤) أخرج البخاري رقم ٢٣٨٢ ومسلم رقم ٨٤ «عن أبي ذر ﷺ قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أغلاها ثمناً وأَنْفَسُها عند أهلها، قلت: فإن لم أفعل، قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قال: فإن لم أفعل، قال: تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تَصَدَّقُ بها على نفسك»، وفي رواية مسلم: «أرَأَيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعملِ ؟»، ومعنى (أنفسها عند أهلها): أي النفيسة منها التي يحبها مالكوها.

١٣. من آداب المتواضع: **أن لا يستكبر من صارت له مكانة وجاه عن مجالسةِ الناس** ومحادثتِهم وهداياهم والسعيِ في حل مشكلاتهم وخدمتهم.

وقد كان النبي ﷺ يتحدث إلى الأطفال ويلاطفهم، ويجالس الضعفاء والفقراء، ويزور المرضى والمغمورين، ويتقبل هداياهم مهما كانت قليلة، ويجيب دعوتهم إلى الطعام مهما كان الطعام متواضعاً، قال النبي ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلى كُراعٍ أَوْ ذِرَاعٍ(١) لقبلتُ، وَلَوْ أُهْدى إِليَّ ذِراعٌ أَو كُراعٌ لَقَبِلْتُ»(٢).

والنبي ﷺ كان يعين أهله ويكون في مهنتهم وأعمالهم، وكان يقضي حاجة الجارية أو الأمة.

وزار أم سُلَيْم رضي الله عنها وهي أُمُّ خادِمِه أنس بن مالك ﷺ، ولاطف ولدها الصغير أبا عمير، فقال له: «يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر»(٣)، وكان ﷺ يُسَلِّم على الصبيان(٤)، ويمسح خدودهم(٥).

---

(١) الكراع: ما استدق من ساق الغنم والبقر وكان قليل اللحم أو عارياً منه، والذراع: أكبر وأكثر لحماً من الكراع.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٤٢٩ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٧٧٨ و ٥٨٥٠ ومسلم رقم ٢١٥٠ عن أنس بن مالك ﷺ، (النغير): تصغير لاسم الطير الذي كان يلاعبه أبو عمير.

(٤) أخرج البخاري رقم ٥٨٩٣ عن أنس ﷺ أنه مر على صبيان فسلّم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله، وأخرج الترمذي رقم ١٩٨٩ عن أنس ﷺ: «إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا» ثم ذكر ما قاله لأبي عمير.

(٥) روى مسلم رقم ٢٣٢٩عن جابر بن سَمُرةَ قال: «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خَدَّيْ أحدهم واحداً واحداً، قال: وأما أنا فمسح خدّي، قال: فوجدت ليده برداً أو ريحاً، كأنما أخرجها من جُؤْنة عطار». (صلاة الأولى): أي الظهر، (جونة عطار): أي من السلة التي يضع فيها متاعه وعطره.

١٤ . من آداب المتواضع: **أن لا ترى من حقك مضاعفة العقوبة لمن اعتدى عليك.**

وقد نهى النبي ﷺ عن الفجور في الخصومة، وهو أن يرد الإنسان على خصمه بأكثر مما يستحق، وأن يبالغ في الرد أو الاتهام أو الانتقام، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

فلا يصح أن نربي أبناءنا على أن يردوا الصاع صاعين، على من يؤذيهم أو يعتدي عليهم من إخوانهم المسلمين، بل واجبنا أن نربيهم على العفو والمسامحة، إلا حينما يكون المعتدِي قاصداً الإساءة ويُخشَى تماديه أو إذا كان لئيماً متكبراً؛ فعندئذ نعاقبه بمثل ما يستحق ولا نزيد.

١٥ . من أدب المتواضعين: **عدم التكبر الجماعي، في عشائرهم وجماعاتهم ومذاهبهم**، فكما لا يجوز أن تتكبر بشخصك على المؤمنين؛ لا يجوز أن تتكبر بعشيرتك على غير عشيرتك، ولا بجماعتك على غير جماعتك، ولا بمذهبك على غير مذهبك، من عشائر المسلمين وجماعاتهم ومذاهبهم.

التكبر بين العشائر:

وقد بين الله تعالى أنه جعل الناس شعوباً وقبائل لأجل التعارف، ولا يحصل تعارف من غير تمييز، فهذا التمييز بين قبيلة وقبيلة لأجل التعارف والتعاون وإدارة الحياة، لا لأجل التكبر والتفاخر، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد بين النبي ﷺ أن رفع شعارات التفاخر والتعالي هو من بقايا الجاهلية الساقطة البغيضة، فعن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»(١).

التكبر بين الجماعات والمذاهب:

قد تستطيع أن ترجح أن منهجك أفضل من منهج غيرك، لكنك لا تستطيع أن تجزم بذلك، وإن جزمت بذلك في أمور؛ فالشك موجود في أمور أخرى، وإذا كنت تظن نفسك على الحق؛ فغيرك أيضاً يظن نفسه على الحق، وإذا كنت تظن نفسك أصدق من غيرك؛ فغيرك يظن نفسه أصدق منك، والكل في محل الاختبار في الدنيا، والحكم عند الله ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٩].

وقد تواضع ناس في حق أنفسهم فلم يستكبروا على إخوانهم أفراداً، لكنهم لم يتواضعوا في حق جماعات، فتكبروا على ألوف أو ملايين من غيرهم، ورأوا أنهم أهل الجنة، وغيرهم أهل النار، أو رأوا أنفسهم على الصواب، وجزموا بذلك لأنفسهم وجماعاتهم، وجزموا بالخطإ والانحراف لغيرهم، فيما هو محل خلاف واختلاف واجتهاد.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٦٢٢ ومسلم رقم ٢٥٨٤، وقوله: (كسع رجلًا): أي ضربه على دبره برجله أو بيده أو بشيء آخر. (منتنة): أي قبيحة كريهة مؤذية، كالجيفة التي خمّجت وخرجت رائحتها المقرفة.

وذلك من التكبر، وربما وقعوا فيه من حيث لا يشعرون.

ومـن التكـبر على المسـلمين في الرأي والاجتهـاد: أن تجتهد في مسـألة، وتدعـي أنك على الصواب، وغيرك يجتهد في المسـألة نفسـها، ويدعي أنه على الصـواب؛ وهـذا لا حـرج فيـه، لكن مـن التكبر أن تكـون المسـألة اجتهادية خلافيـة؛ فيدعـي كل طـرف ـ أو أحدهما ـ أنها ليسـت من مسـائل الاجتهاد، وأنـه لا يجـوز فيها الخـلاف، ليقمع الطـرف الآخر ويصادر عـلى رأيه ويتهمه بالانحـراف، ويسـتكبر عليه، وكأنه يـرى الحق، ويريد الحـق، وغيره لا يريد الحق ولا يراه.

ـ فإذا تواضعت الجماعات وأهل المذاهب والعشائر لبعضها، وتركت الكبر والتعالي والتفاخر؛ فذلك الذي يجعلها تحترم بعضها، وتنظر بأدب إلى اجتهادات الآخرين، وتستمع إلى غيرها حينما ينصحها، وتسعى للنظر الواسع الخالي من الهوى والتعصب؛ فيما تُتَّهَم به من أخطاء، لتعالج ثغرات أو أخطاءاً ربما يقع فيها أي إنسان.

وإذا فهمنا هذا الأدب فذلك مما يوحد الأمة، ومما يوجب بينها التواضع والاحترام والتعاون والتناصح.

١٦. من أدب المتواضع: **التواضع لأهل المكانة والفضل**، من الصالحين والعلماء والكبار والحكماء والحكام العادلين، واحترامهم وتقديمهم، وعدم التقدم عليهم.

ومن ذلك أمرنا النبي ﷺ أن نقدم أهل الاستقامة والعقل ليكونوا خلف الإمام في الصلاة، عن أَبي مسعودٍ ﵁ قال: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَمْسحُ مَناكِبَنَا في الصَّلاةِ، ويقُولُ: «اسْتوُوا ولا تَختلِفوا فتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِني مِنْكُم أُولُوا

الأَحْلامِ والنُّهَى[1]، ثمَّ الذينَ يلُونهَمْ، ثُمَّ الذِين يَلُونهَمْ»[2].

ومن ذلك أمرنا النبي ﷺ أن نقدم الكبير في الحديث وفي الضيافة[3].

١٧ . مـن أدب المتواضع: **أن لا يسـتعين بالمعصية والاعتـداء والأخطاء؛** يظن أنه يصير بذلك رجلاً أو مُهمّاً.

كما يفعل بعض الشباب؛ إذ يَدْعون إخوانهم الشباب إلى التدخين، ليصبحوا رجالاً؛ فذلك من الوهم ومن الكبر، والشاب المستقيم لا يتطلع إلى أن يُرَى، ولا يتصنع شيئاً ليتكبر ويعلو، وإنما يعلو الإنسان ويكبُر بإنجازاته وأعماله الصالحة وبصدقه وتقواه، والإنسان المستقيم يعرف أنه لا ينبغي أن يتكبر، فكيف يحتاج إلى شيء يتكبر به، وكيف يقبل تصرفاً حراماً يُوهِم نفسَه بأنه يصير به رجلاً أو كبيراً.

وكذلك يجب أن نربي أبناءنا وأطفالنا الذين يخرِّبون ويؤذون ويضربون ويعتدون؛ ليلفتوا النظر إليهم، يجب أن نربيهم بأن تصرفاتهم هذه تجعلهم مكروهين وسفيهين، لا تجعلهم مهمِّين ولا كباراً.

---

(١) (لِيَلِني مِنْكُم أُولُوا الَأحْلامِ والنُّهَى): أي ليكن خلفي مباشرة في الصف الأول في الصلاة أصحاب النباهة والعقل الذين ينهون أنفسهم عن الهوى والمعاصي.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٤٣٢.

(٣) وسيأتي تفصيل ذلك وبيان أدلته فيما بعد.

المبحث الخامس

الصبر وترك الغضب والتسرع والانتقام بغير حق

معنى الصبر:

حمل النفس على فعل المطلوبات، من غير كسل ولا ضجر ولا ملل، وعلى تحمل المشقة والآلام والبلايا، من غير ضجر ولا جزع، وضبط النفس عن فعل المحرمات، من غير تعلق بها، ومجاهدة النفس وحبسها عن الشهوات المحرمات وعن الطمع فيما ليس لها، ومنع النفس من الاندفاع والغضب والانتقام بغير حق.

ولا يزال المؤمن يتدرب على الصبر ويترقى فيه حتى يصير سجية له من غير تكلف، فيصير قادراً على ترك الطمع والشهوات من غير اشتياق لها ولا مبالاة بها ولا حزن على فواتها، ويتلقى البلاء بسعة صدر فلا يحتاج معه إلى تجلُّد وضيق صدر، ويأتي بالطاعات من غير مكابدة، ويترك المحرمات من غير مجاهدة، فنفسه قد اهتدت إلى الحق، فلا يعاند الحقَّ في نفسه شيء، ولا يستثقل ما يجري من القَدَر عليه مهما اشتد بلاؤه.

والصبر يشمل الصبر على طاعة الله، والصبر على ترك معصيته، والصبر على بلائه ومقاديره، والصبر على الخلق وإيذائهم، وكلامنا في هذا المبحث عن النوع الأخير، فهو الجانب الأخلاقي في التعامل مع الناس، أما الأنواع الأخرى من الصبر فهي مختصة في علاقة العبد مع ربه، ونتحدث عنها في أحوال القلب وتزكيته.

أهمية الصبر:

الصبر قوة نفسية وإرادة، ناشئة عن تَوَقُّعِ الأذى وعن احتمالِ الإساءة من

الآخرين، فإذا أقنع الإنسان نفسه بأن الأذى يمكن أن يأتي من كل جانب؛ فإنه لا يفاجئه شيء، يجعله يغضب بسرعة وينتقم، وإذا أقنع الإنسان نفسه بعظيم الأجر الذي يأخذه على الصبر وما يعوضه الله من نعيم عليه؛ فإن ذلك يهدئ من نفسه ويؤخره عن الغضب والانتقام والرد.

وهذه هي الرجولة، وهذه هي البطولة، كما وصفها النبي ﷺ بقوله: «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(١)، فإذا كان الإنسان قوياً لا يَغلِبُه الآخرون، لكنه كان لا يملك نفسه عند الغضب؛ فهو مغلوب بضعف نفسه، وربما تقوده نفسه إلى فِعلٍ يَندَمُ عليه، أو يُعاقَب عليه، فيصير مغلوباً مقهوراً ضعيفاً من نتيجة فعله وغضبه.

فكم من غَضْبة جاهلةٍ أو حمقاءَ أوردت صاحبها السجن، أو كلفته غرامة كبيرة، أو استحق بها القِصاص؛ فهل كان قوياً إِذْ غضب، أم كان ضعيفاً؟ إذْ أدّى بنفسه إلى شدة تنزل به أو سوء يُقضَى عليه.

أما من كان يصبر ويضبط نفسه عند الأذى وعند دواعي الغضب؛ فإنه يكون قادراً على التحكُّم في تصرفاته، وأن يختار منها الخيار الأنسب، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «والصبر ضياء»(٢)، فهذا الصابر لا يستعجل، ولا يفقد صوابه، ولا يضيق نظره عند الأذى والاعتداء، ولا يعمل بردة الفعل التي يدخل فيها نزغ الشيطان.

ـ ومَن يدَّعي أنه صابر فلا معنى لصبره ولا قيمة له ولا يكون متحققاً به؛ إذا لم يكن قادراً على امتصاص الصدمة الأولى من الأذى، حين فَجْأَتها،

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٣ ومسلم رقم ٢٦٠٩ عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣ عن أبي مالك الأشعري ﷺ.

ومن امتص الصدمة الأولى وشدة المفاجأة؛ فهو على ما بعدها أقدر على التحمل والمسامحة، لذلك قال النبي ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(١).

ـ ولأهمية الصبر أمرنا الله أن نتواصى به ونذكر أنفسنا وإخواننا به، ليعين بعضنا بعضاً بالصبر على شدائد الدنيا وحوادثها، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [وَالعصر: ٣]، وقال تعالى بعد أن ذكر عدداً من أعمال الإحسان: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

الأمر بالصبر على أذى الناس:

أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر على تكذيب الناس له، فقال له: ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**﴾ [ص: ١٧].

ـ أجاز الله لنا أن نعاقب المعتدي والمسيء بقدر إساءته، ثم ندبنا إلى الصبر وترك العقوبة وبين لنا أن ذلك خير لنا، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧]، ويُفهم من الآية أن النفس ترغب بالانتقام، فمِن الصبر أن يغالِبَها الإنسان ويمنعها من الانتقام، ويعفوَ ويسامحَ مَن آذاه.

ـ وإيذاء الناس لك يصنع كراهية وبَغضاء وعداوة في النفس تجاه من يؤذيك، فتحملك هذه العداوة على الغضب والانتقام، فأمرنا الله تعالى بالصبر والتحامل على النفس، وأن نقابل الإساءة بالإحسان إلى من أساء، وبيّن أنه لا

(١) أخرجه البخاري رقم ١٢٢٣ ومسلم رقم ٩٢٦ عن أنس بن مالك.

يستطيع فِعلَ ذلك إلا من تحقق بالصبر، فكان له حظ عظيم من صلاح النفس والأخلاق الرفيعة السامية، كما بين سبحانه أن هذا الأسلوب في التعامل يجعل العدو صديقاً نصيراً ومحباً شديد التعلق بك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

ـ كما عَلَّمَنا الله تعالى في وصايا لقمان أن نربي أبناءنا على الصبر: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وقد مدح النبي ﷺ الحلم والأناة والرفق واللين، وكل ذلك من نتائج وجود الصبر عند المسلم.

النهي عن الغضب والتغيظ والانتقام:

بين الله تعالى أن من أوصاف المتقين أنهم إذا حقدوا بسبب أذى وقع عليهم؛ كتموا حقدهم وحبسوه في أنفسهم، ولم يَتَصَرَّفوا مُندفِعين منه، بل ويَعفُون عمن ظلمهم، فيخرجون الحقد من قلوبهم، ويُحسنون إلى من أساء إليهم، فيستوجبون حبه لهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال رجل للنبي ﷺ: أوصني، فقال: «لا تغضب»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كيف نتحقق بالصبر ونتخلق به:

أولاً: الأساس الفكري الذي يُوَلِّدُ الصبر:

هذه حقائقُ إذا عَلِمَها المسلمُ أَسَّسَتْ عنده لخلق الصبر، وإذا تذكَّرها مَكَّنَتْ عنده خلق الصبر وأدامته بإذن الله:

١. بين الله تعالى ورسوله ﷺ أن أجر الصبر كبير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤]، وإذا تذكَّر المسلم أجر الصبر دفعه ذلك إلى الصبر والتحمل.

٢. والمؤمن يعلم أن الدنيا ابتلاء واختبار، فينظر إلى كل بلاء وأذى يصدر من الناس إلى أنه اختبار من الله له، فقبل أن يتعامل مع الناس بحسب ما صدر منهم، يتعامل مع الله على أنه يختبره بهذا الأمر، ويتوقع المسلم في كل وقت اختباراً من الله.

لذلك قال بعض الصالحين: وطنت نفسي أن الدنيا دارُ بلاء، فما أصابني من بلاء فذلك طَبْعُها، وما جاء على خلاف ذلك فهو فضلٌ ورحمة.

٣. والله تعالى أعلمنا أن كل ما يحدث من مصائب هو في علم الله وتقديره وحكمته، ليتذكر المؤمن أن المصيبة من الله لا من غيره، وليتذكر المؤمن أن المصيبة اختبار وليست شيئاً آخر، **فالمصيبة التي جاءت** يتلقاها بالصبر، ولا يحزن على ما فات، فالخير في الآخرة، وليس في الدنيا التي فاتَتْ أو نَقَصَت، **والمصيبة التي مضت** ينساها ولا يشتغل بوهم التمني، ولا يقول: لو أني فعلت كذا وكذا، **والمصيبة التي ستأتي** مستعد لها فلا تفاجئه ولا تقعده ولا تؤثر على نفسيته.

لأنه يعلم أنه لا بد أن يتعامل مع المصائب ومع ما يقضيه الله؛ لا بد أن يتعامل معه وفق أمر الله ونهيه، فيشكر الله على الخير والأجر الذي في المصيبة،

ويصبر على الشدة التي فيها، ويقوم بأمر الله في التعامل معها.

فإن كانت مرضاً سعى في علاجه.

وإن كانت خسارة سعى في لَمْلَمَةِ أمره وإصلاح أوضاعه.

وإن كانت سرقة سعى في استرداد حقه، ولجأ إلى القضاء عند لزومه.

وإن كانت رسوباً في طلب علم جَدَّ في تعويضه.

وإن كان احتلالاً من العدو سعى في تحرير بلاده.

وإن كان خُلِقَ معاقاً أو مريضاً أو دميماً سلَّم لأمر الله ورضي بقضائه، ولم يحزن من سخرية الجاهلين؛ لأن مصيبته ليست بيده، ولا هي من فعله، فيسخرون منه وهو لا ذنب له ولا إساءة منه، فلا ينزعج لذلك، بل يترك الأمر لله ليوفيهم ما يستحقون.

وإن أُعطِي المسلم نِعمة لم يفرح بها، لأن النعمة ـ ما دامت في الدنيا ـ فيحتمل أن تكون مصيبة، لأنه في دار الاختبار، لذلك فالمؤمن لا يحزن لفقد، ولا يفرح لِوَجْدٍ وعطاء.

وهكذا كل أمر؛ يتعامل معه المسلم بحسب ما فرضه الله وأمر به.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وهذا التسليم مع الصبر مع عدم تضييع العمر في الحزن على المصائب هو من قوة المؤمن، كما أخبر النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ

أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

٤. والصابر يجب أن يتوقع البلاء والأذى من كل جانب، فإذا توقع أن له حدوداً، أو لا يجوز أن يأتي الأذى من جهة ما؛ فإنه سيفقد الصبر حين وقوع الأذى من تلك الجهة، وسيكون شديد الغضب حين ابتلائه بذلك، فبعض الناس يصبر على كل الناس إلا على أرحامه وأقاربه، بحجة أنه لا ينبغي أن يحصل الأذى منهم، فيصبر على كل الناس، ويغضب ويقاطع وينتقم من أرحامه، وهم أحق بالصبر وأولى بالعفو، لكنه لما ألغى توقع الأذى منهم منع نفسه من الصبر عليهم، ففقد خُلُق الصبر في أهم مجالاته.

٥. وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تعالى لم يجعل من سنته رفع البلاء عن الأتقياء الصالحين، بل على العكس، إذا صار الإنسان قوياً صلباً في دينه فإن الله تعالى يبتليه ليرفعه درجات عنده، فمن أراد أن يكون من الأولياء الصالحين المقربين فلا يترك الصبر في أي حال، ولا في أي ظرف، فعن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(٢).

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان رقم ٢٩٠١ عن سعد بن مالك رضي الله عنه، وأخرج الحاكم أوله، رقم ٨٢٣١.

٦. وقد عَلَّمَنا الله تعالى أن نقول في حال البلاء: ﴿ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ليتذكر المسلم أنه لله، مملوك لله، وعبد لله، وخاضع لله، فمهما نزل به من البلاء فهو مستسلم له، وراض عنه وعن قدره وبلائه، ويتذكر المسلم أنه راجع إلى الله وينال ثواب صبره وأفعاله.

والإنسان ليس له اختيارٌ ولا محيص في الدنيا في أن يطيع أمر الله أَوْ لا يطيع، كما أن الإنسان ليس له محيص عن أمر الله وقضائه في الآخرة، فإنْ كانَ مِن أهل النار فسوف يعذب، سواء صبر أم جزع.

والصبر على أوامر الله التي لا محيص عنها في الدنيا، والتي قد تراها شديدة أو مخالفة لهواك؛ خيرٌ من الصبر على نار جهنم، قال تعالى مبيناً حال الكافرين يوم القيامة: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١]، هذا حالهم في الآخرة، فلَيْتَهم كان هذا حالَهم في الدنيا، ليتهم علموا أن لا محيص لهم عن أمر الله وقدره، ليتهم علموا أن ليس لهم أن يرفضوا أو يعترضوا أو يغضبوا من أوامر الله أو يجزعوا أو يحزنوا، لو علموا ذلك لصبروا، ونجوا مما لا محيص عنه يوم القيامة.

٧. والله تعالى جعل المصائب مذكِّرة وواعظة ومطهرة لذنوبنا، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، والمصائب إنما تكون مُطَهِّرة لنا إن صبرنا عليها وأحسنّا فيها، لا إن جزعنا وأسأنا واعترضنا على الله فيها، فتصير ذنباً آخر، فواجب المسلم الصبر عليها، حتى تكون سبيلاً لتطهيره وترقيته.

ثانياً: الجانب العملي للتخلق بالصبر:

من لم يكن صابراً فعليه أن يتكلف الصبر، ويتكلف آداب الصابرين وأعمالهم، ويتصنع أخلاقهم وأعمالهم، ويحاول الظهور بمظاهر الصابرين، من التجلُّد والصمت وهدوء النفس عند أول المصيبة، ويقلِّد أهل الحكمة والحِلْم فيما يتصرفون به في الشدة والبلاء والغضب، ويذكِّر نفسه بدواعي الرضا والمسامحة، ويتظاهر بالرضا في موضع الشدة والبلاء، ولا يبادر إلى التسخط والشتم، ولا يسارع إلى الانتقام، ولا ينزعج قلبه مما نزل به من إساءة، بل يذكر نفسه بوجوب الاستسلام لله، فإذا فعل ذلك مرة بعد مرة؛ تحقق بالصبر وتخلق به، فصار سجية، فتصدر عنه أفعال الصبر تلقائياً بغير تأخر ولا حاجة للتفكير والتقدير.

وقد أمرنا الله بهذا التكلف للصبر، وبين أنه يُمِدُّ بالصبر مَنْ تَصبَّرَ وتكلَّفَ وتصنَّع، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال ﷺ: «ومن يتصبر يُصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ١٤٠٠ ومسلم رقم ١٠٥٣، عن أبي سعيد الخدري ﵁.

من آداب الصابرين

إذا تأدب المسلم بالصبر في كل موقف يحتاج إلى صبر؛ فإنه يصير متخلقاً بالصبر، فالصبر هو مجموع التحقق بآداب الصبر في كل مجالاته، ومن أهم مجالات الصبر وآداب الصابرين وأعمالهم فيها:

١. من أدب الصابر: **الصبر على قضاء الله**، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

٢. من أدب الصابر: **الصبر على طاعة الله**، قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، فواجب المسلم أن يصبر على أحكام الله ويصبر على الالتزام بها والاستقامة عليها، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وكل أمر الله من أحكام الله فيه مشقة وكلفة يقدر عليها المكلفون من العباد، فيجب عليهم أن يصبروا ويتحملوا، وبين الله تعالى في الآية أن الصبر على حكم الله يعني عدم طاعة الكافرين والعاصين الآثمين، ومن أطاعهم في شيء من كفرهم أو فسقهم وإثمهم وعصيانهم؛ فقد خرج عن الصبر على أحكام الله.

- وكل طاعة تحتاج إلى صبر، صبر على بذلِ الفكر، أو بذلِ الوقت، أو بذل الجهد والتعب، أو بذل المال، أو بذل النفس والروح والتضحية بالجسد.

- وبعض الطاعات شرعها الله لتُعَلِّم الصبر وتقويه عند المؤمن، كما

روي في الصوم: «الصوم نصف الصبر»(١)، والصوم فيه من المجاهدة والجوع والتحمل؛ ما يقوي خلق الصبر عند المؤمن.

٣. من أدب الصابر: **الصبر على ترك المعصية**، قال تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠].

٤. من أدب الصابر: **الصبر على التفكر والنظر في الظواهر الكونية**، للتوصل إلى ما فيها من حقائق وآيات ودلالات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: ٣٠] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١].

٥. من آداب الصابرين: **الصبر على البلايا والخوف والجوع والمِحَن في المال والنفس والأهل**، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فهذه سنة الله في خلقه أن يختبرهم من يصبر منهم ومن لا يصبر، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، فمهما كنت تعيش في استقرار وراحة فتوقع أن يغير الله الأحوال وتدخل في بلاء، فتخرج من الأمن وتكون خائفاً على نفسك وحياتك، وعلى أهلك وعرضك، وعلى مالك وأكلك، وعلى بيتك وبلدك، وغير ذلك، أو يزول ملكك ومالك

---

(١) حديث حسنه بعض العلماء، وضعفه بعضهم، أخرجه أحمد رقم ٢٣١٤٨ والترمذي رقم ٣٥١٩ وحسّنَه عن رجل من بني سليم، وابن ماجه رقم ١٧٤٥ عن أبي هريرة ﷺ.

وتتلف مصانعك وبيوتك، أو تهدم أو تتزلزل، أو تحرق أرضك أو يصيبها آفة، والصابر هو الذي يتوقع ذلك، ويتحمله إن وقع، وينظر إلى الآخرة ولا يحزن على دنياه، ولا يضيق صدره مهما اشتد البلاء، فيكرمه الله بمدد الصبر، ويزيده تحمُّلاً، ويعطيه رحمة، وذلك هو المهتدي الذي علم حقائق الحياة الدنيا والآخرة، ولماذا هي، وكيف يتعامل معها.

والمؤمن يعلم أن هذه الدنيا لا تستحق أن يحزن عليها وعلى نعيم فيها يفوته فيها، ويعلم أن الله تعالى لا يضيع شيئاً من أجر المؤمن، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، كل ذلك يجعل المؤمن مسلماً لقضاء الله تعالى في هذه الدنيا، وكل ذلك يجعل المؤمن يوطن نفسه على المحن والصبر عليها، فإنه عما قليل تزول ونفارق الدنيا جميعاً، والموعد عند الله، ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

والمؤمن يعلم أن كثيراً من البلاء تطهيرٌ له فلا يزعجه ذلك، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤمِنَةِ في نَفْسِهِ وَولَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تعالى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(١).

٦ ـ من أدب الصابر: **الصبر على المرض وإصابة الأعضاء**: قال ﷺ: قال الله تعالى: «إذا ابْتَلَيْتُ عبدي بحبيبتيه(٢)، ثم صبر عوضته منهما الجنة»(٣)، وقال ﷺ لأم السائب حينما قالت عن الحمى(٤): لا بارك الله فيها، فقال: «لا

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٧٨٤٦ والتِّرْمِذيُّ رقم ٢٣٩٩ وقال: حديثٌ حسنٌ صحِيحٌ، وابن حبان رقم ٢٩٢٤، عنْ أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه.

(٢) أي عينيه، والمعنى أنه صار أعمى.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٣٢٩ وأحمد ١٢٤٩٠ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) (الحمى): ارتفاع حرارة الجسم.

تسبي الحمَّى، فإنها تُذهِب خطايا بني آدم، كما يُذهِب الكير خبث الحديد»[1]، والحديث يبين أن الصبر على البلاء فيه أجر وتكفير للخطايا والذنوب، وعلى المسلم أن يتذكَّر ذلك، فيحمله ذلك على الصبر.

وعَنْ عائشَةَ رضي اللهُ عنها أنهَا سَأَلَتْ رسولَ الله ﷺ عَن الطَّاعونِ، فَأَخبرَهَا أَنَهُ كَانَ عَذَاباً يَبْعَثُهُ الله تعالى عَلَى منْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ تعالَى رحْمَةً للْمُؤْمنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُون فَيَمْكُثُ في بلَدِهِ صَابِراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[2].

٧. من أدب الصابر: **الصبر على فقدِ الأحبة وموتهم**، قال ﷺ: يقول الله تعالى: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صَفِيَّه[3] من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»[4]، ومعنى الحديث أنه صبر فلم يعترض على الله، ولم يجزع، بل رَجَى الأجرَ عند الله بتحمله لمصابه وفقده لحبيبه.

وكان النبي ﷺ يُذَكِّر مَن تُوفِّيَ له ميت بالصبر، ويعزيه بقوله: «إن للهَّ مَا أَخَذَ، ولهُ مَا أعْطَى، وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسمًّى، فلتصْبِر ولتحْتسبْ»[5].

٨. من أدب الصابر: **الصبر على مخالطة الناس**، وما ينتج عن ذلك من أذى وإساءات وبلايا، فالله تعالى جعل مخالطة الناس محلاً لاختبار الناس، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٥ وابن حبان رقم ٢٩٣٨ عن جابر بن عبد الله ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٤٠٢ و ٣٢٨٧ عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) صفيه: أي حبيبه الذي اصطفاه من بين الناس، فكان أحبهم إليه.
(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٠٦٠ وأحمد ٩٣٨٢ عن أبي هريرة ﷺ.
(٥) أخرجه البخاري رقم ١٢٢٤ و ٦٩٤٢ ومسلم رقم ٩٢٣ عن أُسامَة بن زيد رضِيَ الله عنهُماَ.

ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم؛ خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»(١).

والصبر على مخالطة الناس لا يعني أن تختلط بمن تؤدي الخلطة بهم إلى ضياع دينك أو فتنتك عن الحق، بل يجب اعتزال الفتنة وأصحابها، وإنما يحرص المسلم على مخالطة من ينتفع منهم، ويصبر على مجالستهم والأخذ عنهم، ويصبر على مخالطة إخوانه وأرحامه على الرغم مما قد يصدر منهم من الأذى والإساءات، ويصبر على مخالطة مَن يُضطَر لمخالطتهم من أهل الدنيا والباطل، ويحاول أن يكون داعية إلى الله فيهم، ينقل الخير ويتحصن من التأثّر بالشر وأهله(٢).

٩. من آداب الصابر: **الصبر على بر الوالدين، والصبر على الأهل والقرابة، والصبر على تربية الأبناء**، بالصبرِ على حسن الخُلُق معهم والمعاملةِ الطيبة لهم، والصبرِ على أخطائِهم وحسدِهم، والصبرِ على تربيتهم ونصيحتهم.

فطاعة الوالدين وبِرُّهما والتواضع لهما والإحسان إليهما وخدمتُهما؛ تحتاج إلى صبر، وحسن العشرة مع الزوج وقضاء حوائجها يحتاج إلى صبر، وزيارة الأرحام وصلتهم ومعاونتهم تحتاج إلى صبر، كما يحتاج المسلم إلى الصبر على ترك الإيذاء لهم، والصبر على أخطائهم وإساءتهم وعداوتهم والأذى الذي يكون منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٣٨٨ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأحمد رقم ٥٠٢٢ والترمذي ٢٥٠٧ عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ يراه ابن عمر.

(٢) وتفصيل ذلك وبيان قواعد الخلطة والعزلة ستأتي في الباب السادس من هذا الكتاب إن شاء الله.

ولا بد من الصبر على نصيحة الوالدين والأهل، وتربية الأولاد والبنات وتعليمهم، من غير ضجر ولا ملل، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦]، وقال ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»(١)، وقال ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو»، وضم أصابعه(٢).

ـ ويجب على المسلم الصبر على حسد الناس والأقارب، إذ تضيق أعينهم عن رؤية النعمة عليك، وقد يدفعهم الحسد وتمني زوال النعمة عنك أن يعملوا لإفساد النعمة عليك، فيتهمونك بباطل، أو يتآمرون لإخراجك من عملك، أو غير ذلك، فالمسلم يحصن نفسه من الحسد والعين بأذكار الصباح والمساء، ويحرص على الكتمان فيما يستطيع كتمانه، ليستريح من الحسد وآثارِه، ويصبر على ما يصيبه نتيجة حسد الناس، ويَدْفعُ من ذلك ما يستطيع دَفْعَه، بالحُسْنى أو بالعدل.

وقد ضرب الله لنا مثلاً من الصبر على كيد الإخوان والأقارب، الناتج عن الحسد، ضرب مثلاً لذلك بيوسف عليه الصلاة والسلام وإخوته، دفعهم الحسد إلى محاولة قتله، أو تشريده، والرضا ببيعه واستعباده، ومن ذلك قول الله تعالى مبيناً صبر والدهم على ما فعلوا: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۞ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٦-١٨]، ثم ذكر الله صبرَ يعقوبَ مرة أخرى

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٥٢ و ٥٦٤٩ ومسلم ٢٦٢٩ عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٦٣١ عن أنس بن مالك ﷺ والترمذي رقم ١٩١٤ نحوه.

حينما فقد ولده الثاني، وهو يخشى أن يكون ذلك من كيد إخوانه به، فقال سبحانه ذاكراً قوله بعد قولهم: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٢-٨٣]، وذكر الله ما أصاب يوسف بسبب حسد إخوانه، وذكر سعةَ صبرِه وحِلْمِه عليهم؛ إذ اعترفوا بخطئهم وقَدِر على الانتقام منهم فعفا عنهم، ورَفَعَ العَتَبَ عنهم، وأكرمهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩١-٩٢].

١٠. من أدب الصابر: **الصبر على ترك الشهوات المحرمة وعلى مُغْرِيات الحياة**، فالمسلم لا يطمع بما يرى في أيدي الناس من الدنيا، بل يصبر على الزهد والعفة والتورع والقناعة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]، فمغريات الحياة فتنة، والمؤمن لا يتعلق بها، بل يأخذ ما أحل الله له مما يحتاج منها، ومما يأمره الله به، ويصبر على ترك ما زاد على ذلك مما لم يأمره الله به.

والصبر على ترك الشهوات المحرمة يسمى عِفَّة، قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣]، والإنسان ما لم يستعفَّ ويصبرْ على ترك الشهوات الجنسية المحرمة؛ فإنه يُعرِّض نفسه للفتنة، ويفتح على نفسه أبواباً من الشَّرِّ تُتْعِبُه.

ـ وقد أذن الله تعالى لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ولم يكن قادراً على تزوج الحرائر لعدم القدرة المالية أو لغيرها؛ أذن له أن يتزوج من الإماء

المؤمنات العفيفات، إن كان ذلك متاحاً، ومع ذلك ندبه إلى الصبر على شهوته وترك ذلك، والانتظار عسى أن يمن الله عليه بزواج حرة مؤمنة عفيفة، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٥].

١١. من أدب الصابر: **الصبر على طلب العلم وصحبة العلماء والدعاة والمُرَبِّين**، إذ إن بعض العلم واجب، وطَلَبُه وتَعَلُّمُه واجب، والصبر على طلبه واجب، وصحبة العلماء واجبة حتى يُحصِّل المسلمُ الحدَّ الأدنى من العلم الذي ينجو به في الآخرة، وصحبة أهل التربية والتزكية واجبة؛ حتى تزكوَ نفسه ويأخذ من التربية ما يُصلِح حاله وقلبه وعملَه وسلوكه وأخلاقه.

وطلب العلم يحتاج إلى جِدٍّ واجتهاد وسعي ورغبة واهتمام، كما يحتاج إلى تواضع واحترام، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ [عبس: ٨-٩].

والعالم لا يستطيع أن يوصل جميع علمه إلى الطالب في درس واحد ولا في دروس كثيرة، فلا بد أن يصبر الطالب على أستاذه حتى يأخذ ميراثاً جيداً من أستاذه، والطالب لا يستطيع أن يميِّز الصواب من الخطإ والحق من الباطل في كثير من الأحيان، فلا بد أن يصبر على طلب العلم والاستفادة من العلماء، حتى يصلَ إلى القدرة على التمييز بين الحق والباطل، وتتسعَ معرفته بنصوص الكتاب والسنة، ويملكَ ناصية العلم ومفاتيحه، ويتشربَ مَلَكَة الفقه وأسراره وقواعده، ويدركَ الأصول والأدلة والاستدلال والترجيح بين المتعارضات.

وإن لم يصبر طالب العلم على هذا؛ فإما أن يتكبر على العلماء من غير نضوج، وإما أن ينكر عليهم وما هو بأهل للإنكار، وإما أن يقلد بغير علم ويبقى مقلداً ومسلِّماً لكل ما يسمع، ولا يرتقي إلى رتبة العلماء والمجتهدين.

وطالب العلم الذي يتعلم ما يكفيه للنجاة؛ يكتفي بأن يتبع من يثق بعلمه وتقواه.

أما طالب العلم الذي يسعى ليكون عالماً ومحققاً ومجتهداً؛ فلا يجوز له أن يتخذ قراراً بصواب هذا العالم أو ذاك، أو أفضلية هذا المذهب أو ذاك، قبل أن ينضج في العلم وأصوله، وقبل أن يستمع من هذا وهذا، ويتعلم من هذا وهذا، ويدرك أدلتهم ويصل إلى القدرة على التمييز والتحرير والترجيح، وإن استعجل فاعتَبرَ أحدَ العلماء أو أحدَ المذاهب صواباً أو أفضلَ من غيره؛ فقد اتخذ قراراً بالتقليد والاتباع بغير علم، وربما يصل به ذلك إلى التعصب.

لذلك كان من أدب طالب العلم ـ إن كان يريد أن يصل إلى مراتب العلم العالية ـ أن يستمع ولا يستعجل في الحكم، ويستسلم لمُعَلِّمه حتى يفهم وينضج، ولا يكتفي بمدرس واحد ومذهب واحد، وإن كان من الطبيعي أن يبدأ بشيخ واحد ومذهب واحد، ثم يتوسع ويتدرج في طلب العلم وأدلته وأصوله.

ما دام طالب العلم لا يحيط بالأدلة ولا يحيط بالعلم الذي يعلِّمه إياه أستاذه؛ فعليه أن يصبر، ولا يستنكر إلا ما اتضح نكرانه[1]، كما علمنا الله

(١) ذكر النبي ﷺ الفتن وتضييع العهود وعدم القيام بالأمانات، ثم أوصى عند ذلك بأمور منها: «وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر»، وهو حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٣٤٣ والنسائي رقم ١٠٠٣٣ والحاكم رقم ٧٧٥٨، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، =

ذلك في قصة موسى مع العبد الصالح خضر، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠].

وإذا علم طالب العلم أن أستاذه عالم رباني وحكيم؛ فعليه أن يترك الأمر لأستاذه ليختار ما يبدأ به، وما يعطيه أولاً وثانياً، وقد فَسَّرَ بعضُ السلفِ معنى الربانيّ بأنه الذي يبدأ بصغار العلم قبل كباره[1]، أي يبدأ بالأصول والمهمّات والواضحات قبل غيرها من الفروع والتفصيلات والخلافيات، وهكذا أدَّب الله ﷻ نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وعلى طالب العلم أن يصبر على صحبة أستاذه، ولا يكون سبباً في إزعاجه وإرهاقه، وهذا الأدب يجب مع الأنبياء ومع ورثتهم من العلماء، قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

كما أدبنا الله مع النبي ﷺ أن لا نثقل عليه وعلى أهل بيته، فكذلك الأدب مع العلماء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا

= وأحمد عنه رقم ٧٠٦٣ بلفظ: «تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون»، وأخرجه ابن حبان رقم ٦٧٣٠ عن أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «تعمل بما تعرف، وتدع ما تنكر».

(١) ذكره البخاري قبل حديث ٦٨، فقال: «وقال ابن عباس: كونوا ربانيين: حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

١٢. وكما يجب صبر الطلاب؛ **يجبُ صبرُ العلماءِ والدعاة والمُرَبِّين على الطلاب**، على تعليمهم ودعوتهم وتربيتهم، لا سيما إذا آنَس منهم إخلاصاً وصدقاً وصلاحاً وأهلية للعلم، كما أمر الله نبيَّه ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

١٣. من آداب الصابرين: **الصبر في الدعوة إلى الله**، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فسنة الله تعالى أن ينصر الدعاة الذين يقومون بحق دعوتهم ويثبتون على ذلك، وواجب الداعية الذي يحمل رسالة ربانية ويسعى إلى هدف عظيم؛ أن يصبر على الدعوة مرة بعد مرة، ويتحمل الإعراض والأذى الذي يواجهه، بِعَفْوٍ وحِلْمٍ وسَعَةِ صَدْر، فلا ينتقم لنفسه، ويحرص على استمالة القلوب، ويجتهد لتغيير الفساد، وإصلاح المفسدين ومواجهتهم، بحكمة وتصرف مناسب في كل موقف، ولا يصبر على ذلك إلا من كان موقناً أنه على الحق.

١٤. **الصبر على الهجرة في سبيل الله** حينما تجب على المسلم، والصبر على ما يترتب على الإيمان بالحق والدعوة إلى الحق، وقد وعد الله الصابرين المهاجرين المظلومين بخير في الدنيا، مع ثواب كبير في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

١٥. **الصبر على الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو**، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمر الله بالرباط، وهو صبر في حراسة بلاد المسلمين من أعدائهم، وعدم الملل والتهاون، وأمر بالصبر، ثم أكده بالأمر بالمصابرة، وذلك بأن يكون صبرنا أكبر من صبر أعدائنا، فالمصابرة مغالبة العدو في صبره، فمَنْ يحمل الحق ويقاتل للحق أولى بأن يصبرَ أكثرَ ممن يقاتِل بالباطل ولنصرة الطاغوت.

وقد بين الله تعالى أهم أسباب النصر في ثلاث آيات فذكر منها الصبر، وبين أنه يؤيد الصابرين ويكون معهم، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧].

وأكد النبي ﷺ أن مِن سُنَّةِ الله أن النصر مرتبط بالصبر فقال: «وإن النصر مع الصبر، وإن الفَرَجَ مع الكرب، وإن مع العسر يسراً»(١)، وكل خيرٍ وثمرةٍ يسبقها عسر وشدة تحتاج إلى صبر ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥-٦].

وقال ﷺ: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم **فاصبروا**، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(٢).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٨٠٤ والحاكم في المستدرك رقم ٦٣٠٣ و٦٣٠٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٨٠٤ و ٢٨٦١ ومسلم رقم ١٧٤٢ عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ.

١٦. **الصبر على اعتداء المعتدين** وظلم الظالمين وأذى المفسدين المعنوي والحسي، قال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٣].

فالظالم الذي تستطيع أن تردعه حتى لا يتمادى على أهل الحق؛ يجب أن تردعَه بعقوبته وتنتصرَ للحق.

وإذا لم تستطع صبرت على ما أصابك.

وإذا كنتَ تستطيعُ ردعَه لكنك ترجو بالعفو أن تصلحه ويستقيم؛ فالأَوْلى والأعظم أجراً أن تعفو وتصلح.

وحينما لا تستطيع رَدَّ ظلمِ الظالم، ولا رفع البلاء؛ فإن انتظار الفرج من الله هو الصبر، وهو عبادة نتقرب بها إلى الله سبحانه، فالله تعالى أمر نبيه ﷺ ـ في مرحلة الضعف ـ بالصبر والتحمل وتجنب أذاهم ما استطاع، فقال سبحانه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠](١).

---

(١) وقد روي بهذا المعنى حديث ضعيف بلفظ: «أفضل العبادة انتظار الفرج» أخرجه الترمذي رقم ٣٥٧١ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٧ . صبر المؤمنين والدعاة على إيذاء الطغاة الكافرين، إلى أن ينصر الله دينه الحق، وقد حدثنا الله تعالى في كتابه عن صبر الأنبياء والرسل على تكذيب الكافرين والمكذبين والطغاة، وإيذائهم للأنبياء وتهديدهم بالقتل والتهجير، حتى جاء التأييد والنصر من عند الله، وجاء معه إهلاك الظالمين، أو جاء النصر والتأييد ممن آمن بالله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١١-١٤]، وقد بين الله تعالى في آخِر الآيات أن هذا النصر يأتي لمن عظم الله وخاف عقابه.

وتُعَلِّمُنا الآيات أن نتوكل على الله ونلجأ إليه، ونعتمد عليه ونستعين به، مع صبرنا وإصرارنا على سبيل الهداية.

ومن لجوء المسلم إلى الله يدعو الله بالنصر للمؤمنين وإنزال البأس الشديد على الكافرين الذين يرفضون الهداية، ولقد كان النبي ﷺ يدعو على المشركين المجرمين بالشدة ويدعو للمؤمنين بالنجاة(١).

ـ وقد جعل الله الصلاة عوناً للمؤمن، وسبباً يعين على الصبر، ويأتي بالرحمة والفرج، فالحرص على الصلاة مع اللجوء إلى الله مكمل لمعنى الصبر

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، والوليد بن الوليد، اللهم أنْجِ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدُد وَطْأتك على مُضر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف» أخرجه البخاري رقم ٩٦١ و ٦٥٤١ ومسلم رقم ٦٧٥.

ومقصوده، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥].

وأخبرنا النبي ﷺ عن نموذج من أثر الصلاة والدعاء في دفع ظلم الظالمين وعدوانهم، فقال ﷺ: «هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ: مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: لا تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللهِ إِنْ عَلَى الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ[1]، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ[2]، فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِي[3]، فَقَالَتِ: **اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي؛ فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ**، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ[4]، قَالَتِ[5]:

اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ؛ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ[6]، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى

---

(١) (إنْ): بمعنى ليس، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام يبين وجه الصدق في كلامه، بأنها أخته في الإيمان، ولا يعني أخته في القرابة، وهذا من التورية التي تجوز عند الضرورة.

(٢) أي طلب الملك من إبراهيم أن يرسل إليه سارة، فجاءت.

(٣) وربما كان معنى الصلاة في الحديث: الدعاء.

(٤) (فَغُطَّ): أي انسدت مجاري نفسه واختنق، (حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ): أي ارتجف بسبب الاختناق كالمصروع.

(٥) (قالت): أي قالت في نفسها، حينما رأت ما أصابه، وخافت أن يموت مما حصل له.

(٦) أي ذهب عنه ما كان يجد من الصرع، بعد خوفها من أن يموت.

زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ؛ فَيُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا **أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَاناً**، أَرْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا آجَرَ[1]، فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَتْ: **أَشَعَرْتَ أَنَّ اللهَ كَبَتَ الْكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً**»[2]، فكانت كرامتها حينما لجأت إلى الله بأن نجاها الله، وزيادة على ذلك رجعت بخادمة.

ـ والمؤمن يعلم أنه على الحق، فسواء جاءه النصر في الدنيا، أم لقي وجه الله وهو يواجه أعداء الله، فكل ذلك نصر ونجاح للمسلم، فكلاهما حسنى، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

والمؤمن يعلم أن لله حِكَماً ومقاديرَ يُمضيها، مِنها اختبار المؤمنين، مَن يصبر على الجهاد، ويصبر على أذى الأعداء، حتى يأتي قدر الله في النصر، وحينما شكا بعض أصحاب النبي ﷺ إليه تعذيب الكافرين؛ بشرهم وبشر المؤمنين بالنصر، لكنه أخبر أن ذلك إنما يأتي بعد الصبر، لا بالاستعجال، وقد تكون التضحيات كبيرة، فعن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له[3] في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط

(١) أي هاجر.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢١٠٤ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

(٣) (متوسد بردة له): أي جعل عباءته وِسادة يتكئ عليها، أو يجعلها تحت رأسه.

الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، واللهِ **لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ** حتى يسير الراكب من صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وقد أخبرنا الله عن أهل الأخدود في سورة البروج، وكيف صبر المؤمنون وثبتوا على دينهم وماتوا على الحق، حينما هُدِّدوا بالموت والحرق إن لم يرجعوا عن دينهم، «لما آمن قوم ذلك الملك[2] في اليمن، فأَمَرَ بالأُخْدود في أفْواه السِّكَك[3]، فَخُدَّتْ، وأَضْرَمَ النيران[4]، وقال: من لم يرجع عن دينه؛ فَأَحْمُوهُ فيها، أو قيل له: اقْتَحِم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فَتَقاعَسَتْ أن تقع فيه، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ اصبري، فإنك على الحق»[5].

ـ وحينما يصير الإسلام غريباً، ويَشتدُّ مكرُ الكافرين وحربُهم على المؤمنين وإيذاؤهم؛ فالمؤمن يحتاج إلى مزيد من الصبر والتحمل، ويكون أجره مضاعفاً أضعافاً كثيرة، كما قال النبي ﷺ: «فإن من ورائكم أياماً؛ الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم»[6]، ولعل هذا الزمان الذي نعيشه، ونحن نجد غربة الإسلام في بلاده، يدخل فيما أشار إليه رسول الله ﷺ، وواجب المؤمنين أن يصبروا في أيامنا هذه أكثر من صبر المؤمنين في أي زمان، فالأجر والثواب عظيم، وذلك جزاء عدل لما يعانونه

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٤١٦ عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢) يُرَجِّحُ بعضُ المؤرخين والمفسرين أنه ذو نواس اليهودي.

(٣) (أفواه السكك): أي منافذ الطرق.

(٤) أي أمر بحفر خنادق على بدايات الطرق، فحفرت ثم أشعل النار فيها.

(٥) جزء من حديث الراهب والساحر والغلام، أخرجه مسلم رقم ٣٠٠٥ عن صهيب رضي الله عنه.

(٦) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٨ وقال: حسن غريب، وأبو داود ٤٣٤١ وابن ماجه رقم ٤٠١٤ وابن حبان في صحيحه رقم ٣٨٥ عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

ويتحملونه مع الشدة التي يلاقونها، ولا ينال هذا الأجر أهل الكسل والتخاذل والضعف، بل أهل العمل والاجتهاد، كما بين الحديث بقوله: «للعامل».

ـ وضرب الله لنا أمثلة كثيرة من صبر الأنبياء ومن معهم على الطغاة والمتألهين، ومن ذلك صبر موسى ومن آمن به على تهديد فرعون بتعذيبهم وتصليبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم، فحذروا فرعون من أن يغتر بقدرته على القضاء بالظلم في الدنيا، فقالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]، وثبتوا على المبدأ والإيمان، واستمدوا الصبر والعون من الرحمن، وعلموا أن العاقبة لأهل التقوى، فانتظروا الفرج واتخذوا أسباب النجاة من الظالم، فأخذ الله عدوهم بألوان من العذاب قبل أن يهلكهم، عسى أن يرجعوا إلى الحق ويؤمنوا بالله، ثم احتاج المؤمنون إلى الصبر بعد النصر، الصبر بالثبات على الحق، وإقامة الحق وحسن المعاملة فيما بينهم، فلا يزال الصبر مطلوباً بألوانه المختلفة حتى نلقى الله[1].

---

(١) كل ذلك بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ، قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ، قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّـهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ، وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا =

ـ معركة الحق مع الباطل مستمرة في كل زمان، والصبر مستمر باستمرارها، والبلاء متوقع في كل حال وفي كل زمان، ولا يقتصر البلاء على حالة القتال بين المؤمنين والكافرين، فالدعوة مستمرة، والصراع مع المنافقين وأهل الشر مستمر، والبلايا التي ينزلها الله بالعباد ليختبرهم مستمرة، مِنْ قَحْطٍ وجوع، ومرض وخوف، وزلازل وفيضانات، وحَرٍّ وبَرْد، وغير ذلك.

فلا ينبغي أن يتوهم المسلم أن الخلافة الإسلامية إذا عادت، وأن الإسلام إذا حَكَم البلاد؛ فإن الدنيا ستستقر لأهل الإسلام، وأن الراحة والرخاء سيعمّ، وأن الغنى والمال سيفيض، كل ذلك وأمثاله قد يحصل، لكن ذلك لا يستمر، ولا يلغي البلاء والابتلاء.

وراحة المؤمن وسعادته تأتي بطمأنينة قلبه، وثقتِه بربه، ويقينِه بآخرته، وكثيراً ما يرافقه البركة في الرزق والوقت والعمل والأهل، ويرافقه التيسير للعسير، والعطاء والرحمة من حيث لا يحتسب ولا يتوقع، وعلى الرغم من ذلك؛ لا ينبغي لمسلم أن يتصور أنه إن كان مؤمناً فإنه لن يصبر، ولن يتعب، ولن يتحمل، ولن يضحي، ولن يبتلى.

والله تعالى نبهنا إلى هذا المعنى حينما أخبرنا أن اليهود تصوَّروا أن الإيمان بالله والاستجابة للرسول موسى ﷺ وقيام دولة الحق تعني الرخاءَ وزوالَ كلِّ

= يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ، وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٣٧].

شدة، فشكوا ذلك لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالُوٓاْ (1) أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا (2) قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ثم بين الله تعالى أن الكافرين وضِعافَ الإيمان يفترضون أن لا يُبْتَلَوا بعد أن صار الأمر إلى موسى ﷺ، وكلُّ بلاءٍ ينزل بهم يَعُدُّونَه لِضعفِ إيمانهم وأمراضِ قلوبهم؛ يَعُدُّونه علامةً على عدم صدق موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ (3) بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ (4) وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١].

١٨. من أدب المسلم ومن أخلاق الصابرين: الجمع بين طرفين من أطراف الصبر، **أن يصبر على ترك الإساءة إلى غيره، ويصبر على تحمل الإساءة من غيره**، وعدم إظهار الاستياء.

فالمسلم لا يؤذي الأخرين: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(5)، وإذا أصابته الإساءة من غيره رَجَّح العفو والصفح والمسامحة: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) القائلون هم قوم موسى الذين آمنوا به وتركوا فرعون.

(٢) يفترضون أن إيمانهم بموسى ﷺ وصحبتهم له تعني انتهاء الأذى.

(٣) ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: أي يتشاءمون.

(٤) ﴿طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ﴾: أي ما يتشاءمون منه ويخافون منه سيقع لهم في الآخرة، فهو مدخر لهم عند الله، وسينالونه بسبب ضعف إيمانهم أو تكذيبهم.

(٥) أخرجه البخاري رقم ١٠ و ٦١١٩ و مسلم رقم ٤٠ عن عبد الله بن عمرو ﷺ، ومسلم رقم ٤٢ عن أبي موسى ﷺ.

أما الذي يريد أن يؤذي الآخرين ويجرح شعورهم ولا يبالي، وإذا أوذي أدنى أذى انفجر وغضب وانتقم؛ فذلك ليس من أخلاق الإسلام والمسلمين، بل هو من أخلاق الكبر والمتكبرين.

١٩. من آداب الصابرين: **الصبرُ عند الغضب**، وكظمُ الغيظ، والدفع بالتي هي أحسن.

وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، فالمؤمن لا يجري مع دوافع الغضب، وإنما يسامح ويعفو ويصبِّر نفسه ويحلُم.

وقد أكد النبي ﷺ في وصيته على ترك الغضب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد مراراً قال: «لا تغضب»(٦).

وحينما يطلب هذا الصحابي وصية ليصلح بها أمره ويتقرب بالعمل بها إلى الله، فيأتيه الجواب بترك الغضب؛ يدلك ذلك على أن ترك الغضب له أثره الكبير في تطهير النفس وصلاحها، وله أجره الكبير الذي يتقرب به العبد إلى الله.

وأهل التقوى إذا تحرك الغيظ والحقد في نفوسهم كتموه وأخمدوه، ولم يسمحوا لأجسادهم وجوارحهم وأيديهم أن تتحرك للانتقام، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

---

(٦) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن أكرمه الله بالصبر يستطيع أكثر من ذلك، يقابل إساءة الآخرين بالإحسان إليهم، وبالكلمة الطيبة والعفو، فينقلب أعداؤه أصدقاء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

ـ الغضب هو ثورة النفس من أمر يطرأ على الإنسان لا يوافق هواه.

والمسلم يرتقي بنفسه من موافقة الهوى إلى موافقة أمر الله، فعليه أن يكافح هذا الخُلُق الغريزي، ويهذبه، ويوجهه، بحيث يغضب حينما يأمره الله بالغضب، ويترك الغضب حيث يأمره الله بتركه.

فالغضب يكون محموداً حينما يثور الإنسان للحق، ويغضب لله، فيدفعه ذلك لينتصر للحق على الباطل.

والنبي ﷺ كان أكثر الناس حلماً، لا يستفزه شيء ولا يغضبه، إلا إذا انتُهِكت حرمات الله، فلا يقوم لغضبه شيء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا خُيِّرَ رسول الله ﷺ بَينَ أَمْرينِ قَطُّ إلاَّ أَخذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُن إثماً، فإنْ كانَ إثماً كَانَ أَبعد النَّاسِ مِنْهُ، ومَا انتَقَمَ رسول الله ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إلاَّ أَن تُنتَهكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَينتَقِم لله تعالى»(١).

وقد غضب النبي ﷺ حينما جاءه أسامة بن زيد رضي الله عنه يشفع في حد من حدود الله، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٧٥ ومسلم رقم ٢٣٢٧ عن عائشة رضي الله عنها.

سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»(١).

وغضب ﷺ حينما رأى نخامة في قبلة المسجد(٢).

أما الغضب المذموم الذي يجب الصبر على كَظْمِه وحبسه؛ فهو ما يأثم به الإنسان ويؤاخذ عليه، ويؤاخذ على التمادي عليه، وعلى التصرُّف بما يقتضيه.

من أسباب الغضب:

قد تصادف في حياتك أموراً كثيرةً تؤدي إلى غضبك: قد يحتقرك إنسان، قد يسفِّه عقلك، قد ينفي حقاً ثابتاً لك، قد يكذب عليك، قد يتهمك بقول لم تقله، قد يغتابك شخص أو يسبك، قد تجد أميرك أو مديرك يضيع حقك وهو الذي يفترض أن يكرمك.

قد ينكب كأس من الشاي ساخنٌ في حجرك، فيلوث ثيابك وقد يحرقك، قد تلقي امرأة من نافذة البيت كيسَ أوساخ فيأتي على رأسك، قد يصيبك حجر يتقاذفه الصبيان، قد يعتدي على ولدك أحد من أولاد الجيران، قد تأتي إلى بيتك فتجد الطعام أو الغداء لم يحضَّر بعد، أو تجد الطعام بدون ملح أو تجده مالحاً.

قد تكون مسؤولاً أو مديراً وترى أخطاءاً كثيرة أو إساءة أو اعتداءاً، أو تقصيراً؛ فتحتاج إلى صبر في إصلاح الموظفين، وتحتاج إلى صبر في معالجة

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢٨٨ ومسلم رقم ١٦٨٨ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي رأى في قبلة المسجد نخامة، فَحَكَّها بيده، فتَغَيَّظَ، ثم قال: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة فإن الله حِيالَ وجهه، فلا يَتَنَخَّمَنَّ حِيال وجهه في الصلاة».

الأخطاء والتقصير والكسل والإهمال، وتحتاج إلى صبر وحزم في مجابهة الباطل والاعتداء.

أمور كثيرة في حياتك تلقاها وتجابهها؛ قد تغضبك.. كل هذه أمور تُغضِب، فتفور النفس ويغلي الدم، وقد ينطق اللسان بالشتائم والمسبات، وقد تندفع اليد باللكمات واللطمات، وقد يطلِّق زوجته، وقد يتجاوز حدوده، إذ تصدر عنه أفعال وأقوال يندم عليها حين يفيق من غضبه، وقد يجد نفسه مسؤولاً أمام القضاء.

والحليم والعاقل هو الذي يكظم غيظه ويكبح جماح ثورته، فهو القوي الذي يضبط نفسه، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة[1]، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2]، فالنبي ﷺ يخبرنا أن أحدنا ما لم يكن قادراً على كبح جماح غضبه فهو ضعيف، والله يحب المؤمن القوي، فكن قوياً على نفسك في ضبطها وتهدئتها والتأني بها، والرجوع إلى الحق، بدل الاندفاع في باطل، أو في أمر لم يتضح لك بعدُ كيف تتعامل معه.

بماذا ندفع الغضب:

إن الغضب سرعة وهجوم وانفعال وثوران، فلا يحجزه إلا هدوء وحلم وتأني.

والغضب بغضاء وحقد يتفجر، فلا يحجزه إلا سلامة صدر وسعة صدر وعفو وتلطف، بحيث يرى أن الأمور تُحَلُّ باللطف والإحسان والتروي والتجاوز والصبر والتحمل، مع إعذار الناس قدر الإمكان والتبرير لأخطائهم

(١) (الصَّرُعة): الذي يصرع الناس ويطرحهم على الأرض.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٣ وبمعناه عند مسلم رقم ٢٦٠٨ عن أبي هريرة ﷺ.

بأنها غير مقصودة أو ناتجة عن أسباب تستحق المسامحة والعفو والإصلاح، لا العقاب والتعنيف.

فمن سلم صدره من الحقد وتوسع صدره بالحلم فذلك الذي يملك ما يمنع الغضب من أصله.

فإذا حصل الغضب فيعينه على دفعه وتخفيفه أمور، أهمها:

أولاً: الهدوء والجلوس وترك الحركة، ذلك أن الغضب يولد اندفاعاً وتهجماً عند الغاضب، فعليه أن يقمع هذا الاندفاع والهجوم، ويُهَدِّئ من نفسه، وقد صَوَّر النبي ﷺ الغضب وما فيه من انقضاض واندفاع؛ بأنه شعلة أو جمرة من النار، كما ذكر النبي ﷺ أحوال الناس في الغضب والصحو منه، في حديث حسنه بعض العلماء، قال ﷺ: « ... ألا وإن منهم البطيءَ الغضبِ سريعَ الفيءِ[(١)]، ومنهم سريعُ الغضبِ سريعُ الفيء، فتلك بتلك[(٢)]، ألا وإن منهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، ألا وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء... ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن أدم، أما رأيتم إلى حُمْرَةِ عينيه وانتفاخ أوداجه[(٣)]، فمن أحس بشيءٍ من ذلك **فليَلْصَق بالأرض**»[(٤)].

---

(١) سريع الفيء: أي ينتهي غضبه بسرعة، ويضبط نفسه، ويعفو ويصالح من آذاه، ويعود إلى سلامة الصدر.

(٢) (فتلك بتلك): أي خير هذه يقابل شر تلك.

(٣) الودج: الشريان الكبير الذي في الرقبة.

(٤) حديث حسن، ضعفه بعض العلماء، أخرجه الترمذي رقم ٢١٩١ وقال: وهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد رقم ١١٦٠٤ ونحوه ١١١٥٩ والحاكم رقم ٨٥٤٣ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فبين النبي ﷺ لنا علاجاً من أدوية الغضب وحرارته في هذا الحديث، وهو أن يحرص على الجلوس أو الاستلقاء، ليبتعد عن الثورة والفورة والاندفاع والضرب والتهجم ونحو ذلك.

وقد روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه فعل مثل ذلك حينما استغضب.

ثانياً: الاستعاذة من الشيطان، فقد مر النبي ﷺ برجل قد اشتد غضبه، واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، من شدة الغضب، فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١)، وذلك أن الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيحاول أن ينفث وينفخ في الإنسان، وأن يوسوس بما يزيد الغضب، ويدفع الإنسان إلى تصرف يندم عليه، ويؤذي فيه ويتضرَّر هو ويُضِر به غيره، فالشيطان يستغل هذه المواقف المغضِبة ليوسوس بالشر ويدفع إلى الباطل ويفسد العلاقة بين المسلمين، والله أمرنا في هذه الحالات بالاستعاذة: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠١].

ثالثاً: الحرص على الكلمة الحسنة والجواب اللطيف، وقد أمرنا الله أن نتجنب نزغ الشيطان بالحرص على الكلمة الطيبة الأحسن: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]، فالكلمة السيئة تؤدي إلى مزيد من الغضب، والكلمة الحسنة قد يفهمها الناس على غير وجهها أو يدعون أنه قصد كذا وكذا، فتؤدي إلى مزيد

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٤ ومسلم رقم ٢٦١٠ عن سليمان بن صُرد رضي الله عنه.

من الغضب، لذلك أمرنا الله أن نبحث عن الكلمة الأحسن، التي لا تدع مجالاً لسوء الفهم، ولا تدع احتمالاً لثورة الغضب.

رابعاً: الوضوء، أمر النبي ﷺ بالوضوء للغضبان، ليهدِّئ غضبه ويُبرِّد حرارته، قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»(١).

خامساً: أن يتذكر أجر الصبرِ على الغضب وعدمِ الانتقام، فكظم الغيظ ممن يستطيع إنزال العقوبة التي يشاء بمن أغضبه؛ أجره عظيم وكرامته كبيرة، قال النَّبِيَّ ﷺ: «مَنْ كظَمَ غيظاً، وهُو قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخلائقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»(٢).

ومَن كان ليناً هيناً لطيفاً عَفُوّاً بعيداً عن الغضب فهو ممن حرمه الله على النار، قال رسول الله ﷺ: «أَلا أَخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ ؟ تَحْرُمُ على كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ»(٣).

٢٠. من آداب الصابرين: **الرفق بالمسيئين الجاهلين**، فالرفق من أخلاق الصبر والرحمة، والتَّرَفُّق سبيل للإصلاح والتربية والتعليم، بدلاً من العنف الذي ينفِّر، وهذا الخلق أحوج ما يحتاجه الأباء والمربون والدعاة والعلماء والحكام مع من تحت ولايتهم وتربيتهم.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٤٧٨٤ عن عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه.

(٢) حديث حسن، أخرجه التِّرْمِذيُّ ٢٠٢١ و ٢٤٩٣ وحسنه وأَبُو داوُدَ رقم ٤٧٧٧ عنْ مُعاذ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي ٢٤٨٨ وحسنه وأحمد رقم ٣٩٣٨ وابن حبان رقم ٤٧٠، بألفاظ متقاربة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: بال أعرابي في المسجد فقام إليه الناس لِيَقَعُوا فيه[1]، فقال النبي ﷺ: «دعوه[2]، وأريقوا على بوله سَجْلًا[3] من ماء، أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين »[4]، وقد تلطف النبي ﷺ بهذا الأعرابي فتركه يقضي حاجته ثم علمه، فقال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن»[5].

والرفق تيسير وتلطُّف ورحمة، وهو مدخل من مداخل تحبيب الحق، وعدم تكريهه للناس، فواجب الآباء والدعاة والمعلمين أن لا ينفِّروا من الدعوة والدين والعلم، وأن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوسيلة مناسبة لطيفة تُرَغِّب بالحق، وهذا لون من ألوان الصبر، فالنفس تستعجل وتظن في كثير من الحالات أن الشدة من الغضب للدين، لكن الشدة إذا انقلبت مُنَفِّرة من الدِّين؛ لم تعد حقاً بل صارت باطلاً، ويجب الصبر على تركها.

٢١. من آداب الصابرين: **الحِلْم والأناة**، بحيث لا يستفزك أي شيء، ولا تسرع بالغضب أو الانتقام، ولا تستعجل في الحُكْم، بل تعقل نفسك عن الانفعالات المتهورة، وتنظر بهدوء ماذا يجب أن تتصرف، وترجع إلى عقلك وحكمتك، كما ترجع إلى شرع الله، فلا تتصرف تصرفاً مستعجلاً يخالف شرع الله وينافي منطق العقل والحكمة، وقد مدح الله أهل الحلم في كتابه، كما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

---

(١) أي ليعنفوه أو يمنعوه أو يؤدبوه.

(٢) وفي رواية: لا تزرموه، أي لا تقطعوا بوله، دعوه يتم بوله.

(٣) أي دلواً.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٢١٧ و ٥٧٧٧.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٢١٦ ومسلم رقم ٢٨٥ عن أنس بن مالك ﷺ.

وصور الحلم التي نحتاجها في حياتنا كثيرة منها:

ـ إذا رأيت من زوجتك تَصَرُّفاً يُزعِجك، أو خُلُقاً تكرهه، أو تأخرت عن بعض واجباتها، أو رفعت صوتها عليك وغضبت منك؛ فعاملها في كل ذلك بلُطْف وحِلْم، ولا تستعجل إلى تطليق أو مسبة أو تحقير أو ضرب أو انتقام، وتذكر أنها ليست عبداً عندك، وتذكر أنك إن طلقتها وتزوجت غيرها ففي غيرها سيئات أخرى، وأنت أيضاً لك سيئاتك وأخطاؤك، وتذكر أنها إن كان عندها عيوب؛ فعندها حسنات كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ(١) مؤمن مؤمنة، إنْ كَرِهَ منها خُلُقاً رَضِيَ منها آخر»(٢).

ـ إذا أساء إليك قريبك فكن حليماً، ولا يحملك ذلك على القطيعة والغِيبة والانتقام، بل عامله بمزيد من الصلة واللطف والإحسان، عسى أن يستقيم، كالذي شكى إلى النبي ﷺ أنه يصل قرابته ويقطعونه، ويحسن إليهم ويسيئون إليه، فقال له: «كأنما تُسِفُّهم المَلَّ(٣)، ولن يزال معك من الله ظهير»(٤).

ـ إذا سُرِقَ مالُك، أو احتال عليك محتال أو نصّاب؛ فلا يَحْمِلْك غضبك على أن تهتم وتغتم وتمرض وتكتئب، فتصيب نفسك في صحتك مع ما أصابك مِن فَقْدِ مالِك، بل كن حليماً صبوراً، وتذكر أن الدنيا لا تزن جناح بعوضة، وتذكر أن ما سُرِق مِنْك يكتب لك عند الله صدقةً، واستفد من خطئك، وخذ من ذلك درساً أن توثِّق العقود وتُشهِد عليها، وتحتاط

(١) (لا يَفْرَكْ): أي لا يُبْغِض ولا يُفارِق، ومعنى الحديث: أن لا يكره معاشرتها، فيفكر في فراقها وطلاقها، لوجود عيب عندها.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٦٩ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) (تسفهم الملَّ): أي تضع في أفواههم الرماد الحار.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٨ عن أبي هريرة ﷺ.

لمالك ونفسك، وارجع إلى القضاء لتسترد حقك إن استطعت، ولا يحملْك ما أصابك على أن تنتقم بأكثر مما يستحق السّرّاق والنَّصاب، فتقْتُلَه، فإذا قتلته فقد جاوزت الشرع والعقل، فالشرع لا يسمح لك بقتله، والعقل يُدرِك أنك إن قَتَلْتَه سُجِنْت أو قُتِلْت به، فلم تَستَرِدَّ مالَك، وأضفت إلى نفسك بلاءاً آخر.

ـ إذا رأيت طفلاً أو صبياً في المسجد، وشاغب أو أزعج المصلين، فلا يجوز أن تعنفه، فتنفره من المسجد والصلاة، بل يجب التلطف به والتحدث إليه لإقناعه بأدب المسجد وحرمته، وحث الآباء على تربية أبنائهم على الانضباط في المسجد، وكن حليماً مع الآباء الذين يحضرون أبناءهم معهم فيشاغبون، فربما تضطر يوماً إلى إحضار ولدك إلى المسجد، وتذكر كيف أن النبي ﷺ حينما خرج إليه ابني بنته الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهو يخطب، فحملهما معه إلى المنبر، وأتم خطبته[1]، وحينما يركب أحدهما على ظهره ورقبته، وهو ساجد يصلي بالناس إماماً؛ ينتظره حتى يقوم عن رقبته، ويتأخر في القيام من السجود[2].

---

(١) عن عبد الله بن بريدة ﷺ قال: سمعت أبي يقول: «كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي فرفعتهما» حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٣٠٤٥ والترمذي رقم ٣٧٧٤ وقال: حسن غريب وابن حبان رقم ٦٠٣٩.

(٢) عن أنس ﷺ «كان رسول الله ﷺ يسجد، فيجيء الحسن والحسين، فيركب ظهره، فيطيل السجود، فيقال: يا نبي الله؛ أطلت السجود، فيقول: ارتحلني ابني، فكرهت أن أعجله» حديث صحيح، رواه أبو يعلى رقم ٣٤٢٨، وأخرجه النسائي رقم ١١٤١ والحاكم رقم ٤٧٧٥ والبيهقي ٣٢٣٦ بزيادة: «فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

ـ إذا سمعت إزعاج طفل أو رنة هاتف في المسجد؛ فلا تغضب ولا تتغيظ، فتفسد على نفسك الخشوع، بل تصرف بحلم، واعتبر الأمر عادياً، وتصرف في المسجد كما تتصرف في بيتك حينما تصلي وتسمع شغب الأولاد وأصواتهم، وتسمع رنين الهواتف، ولا يمنعك ذلك من مواصلة صلاتك، ولا تعتبر ذلك مفسداً لخشوعك.

ـ أيها المسلم: لا تكن كالنفط، عود ثقاب أو شعلة نار تفجِّره، بل كن كالبحر، أَيُّ حريق يخمده ويطفئُه.

ـ وليس من الصبر والحلم: أن يتأخر الإنسان عن إنجاز الواجبات والإصلاحات وما لا بد منه، فتأخير الزوج لحوائج البيت واحتياجاته وضرورياته، كإتيان بطعام أو إصلاح ساتر أو باب أو صنبور أو ما يحصل منه الأذى كالمجاري، أو نحو ذلك؛ فليس تأخير ذلك من الصبر والحلم، بل هو من الإهمال والتضيع، قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يُضَيِّع من يَعُول»(١).

---

(١) حديث حسن، أخرجه النسائي رقم ٩١٧٦ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأبو داود رقم ١٦٩٢ بلفظ: «من يقوت»، وأخرجه مسلم رقم ٩٩٦ عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ عَمْرٍو إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ قُوتَهُمْ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ». والقهرمان: هو الخازن القائم بحوائج الإنسان وهو بمعنى الوكيل.

الصبر الحرام

الصبر والاحتمال والحِلم والهدوء له حدوده الشرعية، فهناك حالات لا يجوز للمسلم أن يسكت عن وجودها، أويترك النهي عنها، أو يترك مقاومتها والتخلص منها، أو يترك العقاب عليها.

لذلك كان النبي ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله.

وذم الله اليهود بأنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، فصبرهم وسكوتهم على المنكر باطل.

وحث النبي ﷺ على دفع الصائل والمعتدي على المال أو النفس أو العِرض، فأمر بمُقاتَلَتِه، وإذا اضطر لقَتْلِه قتَلَه، فهنا نحن مطالبون بالصبر على دفعه، لا بالصبر على اعتدائه، عن أبي هريرة ﷺ قال: «جاء رجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فَقَال: يا رسول الله أرأيت إنْ جاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مالي ؟ قال: «فَلا تُعْطِهِ مالَكَ» قال: أَرأَيْتَ إنْ قَاتلني ؟ قال: «قَاتِلْهُ» قال: أَرأَيت إن قَتَلَني ؟ قال: «فَأَنْت شَهيدٌ» قال: أَرأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ ؟ قال: «هُوَ في النَّارِ»(١)، ولو علم المعتدون والمجرمون والظالمون أننا نصبر على اعتدائهم بالاستسلام لهم؛ لكان ذلك أمراً يُسعِدُهم ويُعجبهم ويجرِّئُهم على الجريمة والاعتداء(٢).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٤٠.

(٢) وليس هنا موضع العمل بحديث النبي ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ، فَإِنْ دُخِلَ - يَعْنِي عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ - فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ»، حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٢٥٩ وابن حبان رقم ٥٩٦٢ وأحمد ٤/ ٤١٦ =

وصَبْرُ قومِ فرعونَ على ظلم فرعون واستعباده لهم؛ صبر حرام، لم يمدحهم الله فيه، بل بين أنهم كانوا بذلك فاسقين، لأنهم كانوا عوناً لهذا الظالم المجرم على الظلم والباطل والكفر، وبين أن صبرهم إنما هو خنوع وهوان وقبول لاستخفاف فرعون لهم، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فلا يجوز الصبر على الظالم، إذا كان الصبر عليه يزيده ظلماً وبغياً على الفرد أو المجتمع، ويستعملنا في باطله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢] وبين سبحانه أن التعاون مع المجرمين قد يكون كفراً ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١].

ونهانا الله عن الصبر على مجالسة الخائضين بالباطل، وأمرنا بعدم القعود معهم، ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

= عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وفي حديث آخر صحيح عن أبي ذر ﷺ قال ﷺ: «... كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم... قال فإن خشيت أن يَبْهَرَك شُعاع السيف فألْقِ ثوبك على وجهك، يبوء بإثمك وإثمه» أخرجه أبو داود رقم ٤٢٦١ ونحوه عند أحمد رقم ٢١٤٨٣، وفي حديث آخر وصف نحو تلك الفتن ثم قال ﷺ: «اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية» أخرجه ابن ماجه رقم ٣٩٦٢ عن محمد بن مسلمة ﷺ، ونحوه عند أحمد والحاكم.

وإنما يُعمَل بهذه الأحاديث في موضع الفتنة التي لست متأكداً أنك تُقتَل بغير حق، ولا يكون الحق قد اتضح لك أنه مع جهة ما مِن المتقاتِلين، ولا تجد ما يدل في الشرع على وجوب مقاتلة جهة ما أو شخص ما، ولم تر بوادر الاعتداء عليك فلا تدفع عن نفسك، فعندئذ لا تشارك في القتل، فربما يأتيك القتل من حيث لا تتوقع؛ فذلك خير لك من أن تشارك في الفتنة والقتل.

ولا ينبغي أن تُفهم هذه النصوص على غير وجهها، بحيث تضرب نصوصاً أخرى، ويُرَوَّجُ من خلالها ثقافةٌ يَفرَح بها أهل البغي والجريمة والظلم.

كما حذر النبي ﷺ من الصبر على طاعة الأمير حينما يأمر بمعصية الله، فقال للذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا النار، فعصوا أميرهم: «لودخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة»(١)، «إنما الطاعة في المعروف»(٢).

ومنع الله المؤمن من مطاوعة الآباء في الكفر، فنصبر على حسن المعاملة والتلطف والحكمة في التعامل معهم، لكن لا نجاملهم في شأن الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

والأب الذي يمنع أولاده من الصلاة أو من فرائض الله أو من الجهاد الواجب أو من صحبة الصالحين والعلماء؛ فلا يطاع، ولا صبر عليه.

وكذلك تصبر المرأة على زوجها؛ إذا لم تكن عوناً له على ظلمه لها، فإذا أمكنها الخروج من ظلمه بتحصيل حقوقها في النفقة والمعاشرة والمبيت وحسن المعاملة وغير ذلك؛ فذلك واجب، وإلا فإن أمكنها التخلص من ظلمه بالفراق والطلاق؛ فذلك واجب.

وصبرها على حياة الجحيم والذل والاستعباد والضرب بغير حق لا يأمرها الله به.

وإنما تؤجر المرأة بالصبر على الشيء القليل الذي يُغتَفَر ويُسامح به عادة، وتؤجر بالصبر على الزوج الذي يتوب ويعتذر، ولا يتمادى ولا يرضى بالظلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس رضي الله عنه أتت النبي ﷺ

(١) أخرجه مسلم رقم١٨٤٠ وأحمد رقم ٧٢٤ وابن حبان رقم ٤٥٦٧ ورواية عند احمد ٧٢٤ عن علي بن أبي طالب

(٢) هذه رواية عند أحمد أيضاً رقم ٦١٧ عن علي رضي الله عنه ولفظه: «... ما خرجتم منها أبداً...».

فقالت: يا رسول الله؛ ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُق ولا دِين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديقته[1]، فقالت: نعم، فقال الرسول: اقْبَلِ الحديقة، وطلقها تطليقة[2]، فهذه المرأة طلبت الطلاق من زوجها، على الرغم من أنها مدحته بأنه ليس فيه ما يُكرَه، فقالت: «ولكني أكره الكفر في الإسلام» وهي لا تعني أنه كافر، فقد مدحته في دينه وخلقه، لكنها تعني أنه لا يُقبَل في الإسلام أن يُجبَر الإنسان على ما لا يرتاح إليه، فذلك من شأن الكفر والجاهلية، لا من شأن الإسلام، فقد كان أهل الجاهلية يجبرون المرأة على الزواج ممن تَكْرَهُ، أو ممن لا تريد، أو على من يظلمها، فطلقه النبي ﷺ منها بشرط أن تَرُدَّ عليه ما دَفع مِن مَهْر.

ـ وإذا كان صبر الزوجة سبباً في زوال إيمانها أو ضعف دينها أو تضييع عبادتها، فعندئذ يحرم الصبر، ويجب الفراق إن تعذر الإصلاح، فقد نهينا عن صحبة أهل السوء وعن مخالطة من يفتننا عن ديننا، فكيف يَقبل الإسلام من امرأة وأبناء أن يصبروا على صحبة نَهَى عنها.

والله أمرنا بصحبة الصالحين وترك صحبة الفاسدين والمفسدين والظالمين والأشرار، وكذلك الزوجة منهية عن ذلك، فلا تُطالَب بالصبر على صحبة زوج فاسد يفتنها عن دينها وأخلاقها، أو يؤذيها ويعذبها، أو يذهب بسعادة حياتها.

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ يدل على أن من الظلم ما يجب أن ننتصر عليه، لا أن نصبر عليه.

(١) أي المهر الذي دفعه إليك.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٩٧١.

ويكون الجزاء والعقوبة للمعتدي بقدر الاعتداء، قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤٠-٤١].

والصبر على الكافرين والمنافقين؛ له حدود، فنصبر عليهم إذا كان الصبر والعفو سبيلاً لإصلاحهم، ثم يجب الشدة عليهم والإغلاظ عليهم، لا سيما من ظلم وبغى وآذى ونحن قادرون على عقابه وردعه، قال تعالى: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التوبة: ٧٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣] ﴿ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ [النساء: ٦٣].

المبحث السادس

الكرم وترك البخل

الكَرَم: خُلُقٌ يدفع صاحبه إلى العطاءِ، وبذلِ المال، وقضاءِ حوائج الآخرين، والإحسانِ إليهم، ببذل ما يُعِينُهم ويُدخل السرور والفَرح عليهم.

وهذا العطاء منه ما هو واجب كحقِّ النفقة الواجبة للأقارب والزوجة، وحقِّ الزكاة للسائل والمحروم، وحقِّ مصالح المسلمين ومنه نصرةُ الدعوة والجهادُ بالمال.

ومنه ما هو سنة ومندوب ونافلة وإحسان، كالصدقة والهدية والوصية والوقف وإطعام الطعام.

والبُخْل: يُقابِل الكرم، وهو مَنْعُ ما ينبغي بذله، مع القدرة على العطاء.

ولا يوصف بالبخل مَن بَذَلَ الواجبَ ومَنعَ ما يُسَنُّ تقديمُه ويُستحسنُ بَذلُه، لكنه يُمكِنُه أن يكون أكثر كرماً وسخاءاً وعطاءاً، إذا اتَّبعَ السُّنةَ وبَذَل.

ـ من لم يكن سَخِي النفْسِ مُحِباً للعطاء؛ فإنه لا يكون كريماً، فإذا أعطى وهو يكره العطاء، فذلك لا يكون قد تحقق بالكرم.

لكنه يحمل نفسه على العطاء ويجبر نفسه عليه؛ حتى يصير كريماً، ويعمل بأعمال الكرم وآدابه؛ حتى يصير سجية عنده، ويعتاد عليه، فيصير كريماً حقاً.

ـ قد يكون الإنسان سخي النفس كريماً في قلبه، لكنه لم يجد في يده ما يُعطي؛ فهو كريم ولو لم يظهر أثر الكرم منه.

وأما من كان شحيح النفس بخيلاً في قلبه، وأعطى لغير الله، رغبةً في مدح أو مصلحة دنيوية أو طلباً لجاه أو عوض؛ فهذا ليس بكريم، ولو ظهر بمظهر الكريم أمام الناس.

بين الإنفاق والإمساك:

أمر الله تعالى بالكرم والعطاء، ليكون محققاً لمصالح البشر والخلق، ونهى عن الإمساك الذي يضيِّع تلك المصالح، فإذا كان العطاء في غير محله، أو كان مُضيِّعاً للمصالح، فذلك ليس من الكرم ولا من الإنفاق المطلوب الممدوح، بل هو مذموم ومكروه، ويجب الإمساك عندئذ.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، أي عَدْلاً واعتدالاً، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فمن أمسك عن الإنفاق عند وجوبه؛ فسيكون نادماً وملوماً يوم القيامة، ومن أنفق كل ماله مسرفاً أو مبذراً بغير حق؛ فسيكون نادماً وملوماً في الدنيا، ويجد نفسه محتاجاً ولا يجد ما يقضي حاجاته.

فقد جعل الله المال وسيلة يستعين بها الإنسان على قضاء حاجاته، وتحصيل مطالبه، فبه يحصِّل المرء طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وزواجه وعلاجه، ومنه ينفق على زوجته وأبنائه، وبه يصل رحمه، وبه يطلب العلم، وبه يحفظ كرامته، ويصون عرضه، وبه يحسن إلى الأقارب والأرحام والجيران والأصحاب، وبه يواسي الفقراء والمرضى والبؤساء والمنكوبين، وبه ينفق على الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، لتبليغ دعوة الحق ولحماية الأمة، ومنه ينفق في أعمال صالحة، والواجب أن لا يبخل ولا يُقَتِّرَ في شيء من ذلك، إذا كان

قادراً على البذل في كل ذلك، فإن لم يكن قادراً فإنه يُقدِّم الأَوْلى والأوجبَ وما كان مُلِحّاً مُستعجَلاً.

وينفق المسلم من المال فيما أباح الله من الحلال الطيب، والواجب أن لا يُسرِف في ذلك ولا يُبَذِّر.

فالله أخرج المال والطيبات لتكون للمؤمن عوناً، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ـ وحَرِيٌّ بالمسلم أن يستثمر المال في وجوهٍ مشروعةٍ ومشاريعَ نافعةٍ له وللأمة وللبشرية، فلا يَكْنِز المال ولا يُجمدُّه، ويُحققُ به عمارة الدنيا التي أمر الله بها، من غير أن ينشغل بذلك عن واجباته وعباداته.

ويجمع المسلم بين حاجات الدنيا وأعمال الآخرة، فإذا قضى حوائجه الدنيوية وفرائضه المالية؛ حَرِصَ على أن ينشغل بالطاعة، عن أن ينشغل بمزيد من طلب الدنيا، مما يُمكنُ الاستغناءَ عنه.

ولا يقدم دنياه على ما هو أنفع في آخرته.

وإذا خير المسلم بين أمرين في التعامل المالي؛ قَدَّمَ أوجبهما وأنفعهما في آخرته.

وإذا وُجِدَت حاجةٌ إلى المال، في الوقت والحال، لنفسه أو لإخوانه أو لدينه؛ لم يحبس المال للمستقبل.

أهمية الكرم:

ـ الكرم من أعظم مظاهر الرحمة والإحسان والتعاون، يخرج به الإنسان

عن أنانيته، ليكون جزءاً من المجتمع والبشرية، يحس بحاجة الآخرين وآلامهم، ويعينهم.

ـ الكرم يؤدي دوراً اجتماعياً عظيماً، فحينما يتخلق به الأفراد ويَشيعُ في المجتمعات؛ فإنه يقضي على كثير من مشكلات البشرية، فيقضي على الفقر والجوع، ويَسدُّ عَوَزَ المحتاجين والمساكين، ويحل مشكلة الجهل والتخلف ويعالج البطالة(١) وآثارها السيئة، ويكون عوناً على معالجة المرضى، وكسوة العارِين، وإيواء المشردين، وتدفئة البَرْدانِين.

ـ الكرم يجعل الأغنياء يُخرجون من أموالهم، لتؤدي رسالتها الدينية الربانية، في نشر العلم والدعوة، وفي إقامة دولة الحق، وجهادِ أهلِ الباطل.

ـ الكرم يُشعِر الإنسان بأُخُوَّة الإنسان، فحينما يحس بك أخوك ويعطيك ما يقضي حوائجك، وأنت تفعل معه مثل ذلك حين حاجته، فذلك الذي يؤلف بين القلوب ويجمعها ويصنع الحب بينها، فإذا تَمَكَّنَتْ فيها المحبة تمكَّن فيها الاحترام والإحسان والمسامحة والعفو، وطابت النفوس تجاه بعضها، ولهجت بالدعاء لمن أحسن إليها(٢).

أما إذا رأى المحتاجُ الأغنياءَ من حوله يُتْرَفون ويَترفَّهون بأموالهم، وهو لا يستطيع أن يَشبعَ من طعام، أو يُعالِجَ مرضاً، أو يَجِدَ مأوىً، أو يَسدَّ حاجة من حوائجه؛ فإنه يحقد على الأغنياء، ويحصل بينه وبينهم من الجفوة

---

(١) من وظائف الزكاة وثمراتها أنها تشارك في القضاء على البطالة، حيث يجوز أن يعطى الفقير من المال ما يفتح به مشروعاً أو عملاً يستغني به عن السؤال والزكاة، فكيف إذا كان العطاء والكرم من الزكاة ومن غيرها؟ ألا تحل مشكلة البطالة؟.

(٢) وإبقاءاً على المحبة نهى الله تعالى عن إيذاء الفقير بالمنّ عليه بما نعطيه، فقال سبحانه: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والكراهية والعداوة والبغضاء ما يتسبب بكثير من المشكلات والمآسي والفرقة والقطيعة(١).

وقد يؤدي البخل إلى القتل وسفك الدماء واستحلال الحرام، فقد يستبيح الفقير لنفسه سرقة الأموال والاحتيال والرشوة ونهب المال العام، بحُجَّةِ أنه محتاج ولم يعطه الأغنياء حاجتَه وحقَّه، وقد ينظر إلى الأغنياء على أنهم سببٌ في مآسي الفقراء، فيستبيح مقاتلتهم، وقد يُعرِّض حياة الناس إلى خطر وقتل وهو يسطو على بيوتهم وأموالهم ليسرق، فكثير من جرائم البشرية ناتج عن بخل الأغنياء وعدم إحساسهم بالفقراء، قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يوْمَ القِيامَة، **واتَّقُوا الشُّحَّ**، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ منْ كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُم على أَن سَفَكُوا دِمَاءَهم واستحَلُّوا مَحَارِمَهُم(٢)»(٣).

ـ الكرم يذكر بحقيقة الدنيا، وأن الأموال ليست لتُجمَع وتُمنَع، بل لتكون عوناً لصاحبها ولمن حوله، ولتكون سبباً في إصلاح الفكر وبناء حضارةٍ إنسانية وتقدمٍ مدنيٍّ أخلاقي، ولتكون وسيلة إلى الآخرة.

ومَنْ فَهِم حقيقة الدنيا؛ لم يبخل بالمال عن مصالح نفسه ومصالح البشرية، ويعلم أن الله لم يجعله مالكاً للمال، فالمال عن قريب يزول من بين يديه، ويتركه خلفه ويمضي إلى قبره، فالمال لله يورثه من يشاء، وفي الفترة التي كان المال بين يديك كان لاختبارك، فكنت خليفة فيه ووكيلاً عليه، ومسؤولاً عن إنفاقه كما يريد الله، الذي أعطى كل شيء، ويملك كل شيء.

(١) قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالزكاة تطهر المال مما قد يدخله من حرام، كما تطهِّر قلبَ الفقير من الحقد، وتطهر قلبَ الغنيِّ من التعلق بالدنيا.

(٢) أي ما حرم الله عليهم.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٨ عن جابر ﷺ.

وقد بين الله هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ـ والله تعالى قد ابتلانا بالمال، فلا يرضى ممن يملك مالاً لا يحتاجه أن يحبسه عمن يحتاجه، ولا يرضى أن يكون المال متداولاً بين بعض الناس فقط، فاللهُ خلق المالَ ليتداوله الجميع ويستفيد منه الجميع، فشرع الله من الواجبات المالية ما يوصل المال إلى أيدي الجميع فيتداولونه جميعاً، قال تعالى مبيناً الحكمة من تشريع بعض الواجبات المالية: ﴿ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

وهذا التداول ليس من مصلحة الفقراء فقط، بل هو من مصلحة الأغنياء أيضاً، ذلك أن الفقير إذا كان لا يملك شيئاً فإنه لا يشتري من الأغنياء شيئاً، فإذا أعطاه بعض الأغنياء فإنه يشتري من الأغنياء، فيكون قد رد المال إليهم، وهذا من معنى قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقولِ النبي ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[1]، فالأغنياء إذا كانوا كرماء انتفعوا من الأجر عند الله، وسيرجع إليهم المال الذي قدموه إلى غيرهم، فجمعوا بين نفع الدنيا والآخرة.

وكلما كان عدد الأغنياء الذي يفعلون هذا أكثر؛ كان حال المجتمع والبشرية أرقى وأغنى وأسعد.

وإذا كان الكرم ينفع أصحابه في الدنيا، فإنه لا ينفعهم في الآخرة إلا أن

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة ﷺ، وتتمة الحديث: «وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وجلَّ».

يكون خالصاً لله يبتغون به مرضاةَ الله، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ـ والكريم يُسعِد نفسَه ويَطمئِن فؤادُه، والبخيل يُضيِّق على نفسه، فقد صوَّر النبي ﷺ الحالة النفسية للكريم والبخيل، فقال ﷺ: «مَثَلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِن حَديد مِنْ ثَدِيِّهِما إلى تَرَاقِيهما(١)، فَأَمَّا المُنْفِقُ؛ فَلا يُنْفِقُ إلاَّ سَبَغَتْ، أَوْ وَفَرَتْ على جِلدِهِ حتى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ؛ فَلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيئاً إلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُو يُوَسِّعُهَا فَلا تَتَّسِعُ»(٢).

فالكريم حينما ينفق يوسع على نفسه ويزيل الضيق عن صدره، كما لو أنه كان يلبس ثوباً ضيقاً ليس له أكمام، واليدان محبوستان في الثوب، فإن تصدَّق وَسَّعَ الثوب وارتاح، وكان ممدوحاً عند الله والناس، وإن بخل ضيقه على نفسه، وآذى نفسه، وكان مذموماً مبغوضاً.

والحديث يدل على أن الكرم والعطاء مرة بعد مرة يعالج طبيعة الشحِ والبخلِ والمنعِ في النفس، فترتاح النفس للعطاء شيئاً فشيئاً، وتتدرب عليه ويصير من سلوكها وأخلاقها.

الأمرُ بالكرم وثوابُه وفضيلتُه:

ـ أمر الله تعالى بالكرم والجود والعطاء والسخاء، وسمّاه إنفاقاً، وأمر أن يكون من المال الحلال الطيِّب، وأن يكون في سبيل الله، وفي وجوه الخير التي

---

(١) الترقوتان: العظمان اللذان تحت الرقبة على جانبي النحر.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٣٧٥ ومسلم رقم ١٠٢١ عن أبي هريرة ﵁.

ترضي الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ـ وأوجب الله البذل حينما يكون مع المسلم ما يزيد عن حاجته، مع وجود حاجة للآخرين من المسلمين، إلى الطعام أو اللباس أو المركوب أو غير ذلك، فعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ قال: بينَمَا نَحْنُ في سَفَرٍ مَعَ النَّبيِّ ﷺ إذ جاءَ رَجُلٌ على رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ[١] فَليَعُدْ بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَن كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ[٢]، فَليَعُدْ بِهِ على مَن لا زَادَ لَهُ»، فَذَكَرَ مِن أَصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ، **حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأحدٍ مِنَّا في فَضْلٍ**[٣].

ـ وبين الله فضل الكرم والصدقة والعطاء وأنه أجر كبير، قد يزيد عن سبعمائة ضعف، لا سيما إن كان في الجهاد، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾ [البقرة:٢٦١].

ـ والكرم والإنفاق والعطاء سبب في تثبيت الله للمسلم على دينه، كما فيه مضاعفة المال الذي تصدقت به، ومضاعفة الأجر، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ[٤] أَصَابَهَا

(١) (فَضْل): أي زيادة عن حاجة الإنسان، (ظَهْر): أي دابة يُركب ظهرها.

(٢) (زاد): أي طعام.

(٣) أخرجه مسلم رقم١٧٢٨.

(٤) ﴿بربوة﴾: أي بمكان مرتفع من الأرض.

وَابِلٌ[1] فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ[2] وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ـ والكريم المنفق يتكفل الله بذريته وأبنائه، فإذا كان الغني يتكفل بأبنائه فقد يتلف ماله ويضيع، لكن كفالة الله دائمة ثابتة، قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَابٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ[3] وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ[4] فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فهذا مَثَلُ الذي يَدَّخِر بنفسه لأبنائه، فقد يذهب كل شيء، وقد يكون كبيراً في السن لا يستطيع أن يَعُوْل أبناءه، وهم صغار لا يعولون أنفسهم، أما الذي يتصدق فإنه يدخر لأبنائه عند الله، فلا يضيِّعُهم الله.

ـ وعلى المؤمن أن يكثر من الإنفاق، عند كل موقف فيه ما يدعو إلى الصدقة، حتى تصير النفقةُ والصدقة والكرم صفةً له، عندئذ فقد وعده الله بالأمان مع الأجر، قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

ـ وكما أن المنفِق في سبيل الله يرحم إخوانه، وييسر أمورهم، ويُقدِّم لهم الخير؛ فالله تعالى يتولى المتصدِّق المنفِق الكريم، ويبارك له، ويُيَسِّر أموره،

---

(١) ﴿وابل﴾: أي مطر كثير.

(٢) ﴿فطَلّ﴾: الطل: أي مطر خفيف رذاذ، أو نَدَى.

(٣) أي الكِبَرَ في السِّن.

(٤) ﴿إعصار﴾: ريح عاصف وزوبعة شديدة تمحق الزرع وتهدم البيوت.

ويقضي حوائجه، قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١) ﴾ [الليل:٥-١١]، والآية تُبين أن الله يجُازي البخيل بالتشديد عليه والتعسير لأموره، كما تُبيِّن أن البخل ناشئ عن التكذيب بالآخرة ونعيمها، وناشيء عن ظنِّ الغنيِّ البخيلِ أنه هو الذي أغنى نفسه، وأنه يدفع بماله عن نفسه، فينسى فضل الله، وينسى أنه سيموت ولن يدفع عنه ماله شيئاً.

وقد ضرب النبي ﷺ لنا مثلاً من إكرام الله للكريم وتيسيره له، كيف يسوق الله له المطر والرزق، ويخصه بالرحمة، فقال ﷺ: «بيْنَما رَجُلٌ يَمشِي بِفَلاةٍ مِن الأَرض، فَسَمِعَ صَوتاً في سَحَابَةٍ(٢): اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذلكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ في حَرَّةٍ(٣)، فإذا شَرَجَةٌ(٤) من تِلْكَ الشِّراجِ قَدِ اسْتَوعَبَتْ ذلِكَ الماءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الماءَ، فإذا رَجُلٌ قَائِمٌ في حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسحَاتِهِ(٥)، فقال له: يا عَبْدَ اللهِ ما اسْمُكَ؟ قال: فُلانٌ، للاسْمِ الَّذِي سَمِعَ في السَّحَابَةِ، فقال له: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَال: إني سَمِعْتُ صَوتاً في السَّحَابِ الذي هذَا مَاؤُهُ يقُولُ: اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ؛ لاسمِكَ، فما تَصْنَعُ فِيها؟ فقال: أَمَا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإني أَنْظُرُ إِلى ما يَخْرُجُ مِنها، **فَأَتَصَدَّقُ بثُلُثِه**، وآكُلُ أَنا وعِيالي ثُلُثاً، وأَرُدُّ فِيها ثُلثَهُ(٦)»(٧).

---

(١) أي هل يدفع عنه ماله العذاب إذا سقط في النار وهلك.

(٢) أي أسمعه اللهُ هذا الصوت، ليُظهِر الله له كرامةَ الرجل المتصدق الكريم.

(٣) (الحَرَّةُ): أَرضٌ ذات حجارة سوداء.

(٤) (الشرجة): مكان مسيل الماء.

(٥) (المِسْحاة): المجرفة، يجرف بها الطين والتراب.

(٦) يعني يحتفظ بثلث الحبوب ليزرعها مرة أخرى.

(٧) أخرجه مسلم رقم ٢٩٨٤ عن أبي هريرة ﷺ.

ـ قدوتُنا رسولُ الله ﷺ عاش يجوع ويشبع، لا يدخر أكثر من حاجته، ولا يتوسع في المباحات والزينة، وينفق ما زاد عن حاجته، لأمته ولدينه وللجهاد، ويؤثر المحتاجين على نفسه، ويتمنى أن يعطيه الله مثل جَبَلِ أُحُدٍ ذهباً لينفقه في سبيل الله.

الحَضُّ على الإنفاق، ودعوة الأغنياء إليه:

لما كان المقصودُ من الإنفاقِ الإحسانَ إلى الآخرين وحلَّ مشكلاتهم؛ فالكريم إذا كان فقيراً أو لم يكن قادراً على الإعطاء؛ لا يرى واجبه قد انتهى، بل يرى من واجبه أن يعين المحتاجين، بدعوة الأغنياء والقادرين إلى الإنفاق، لقضاء حاجات الفقراء، وإيصال حقهم إليهم، لذلك بيّن الله وجوب الحثِّ والحضِّ على إطعام المسكين، بيَّن ذلك حينما ذمَّ مَن لا يَحُضُّ فقال سبحانه: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٧-٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١-٣].

تحريم البخل:

ـ حرم الله تعالى ونبيُّه ﷺ البخل والشُّحَّ وحذرنا منهما، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فكيف يبخل الإنسان والمال الذي بين يديه هو

من فضل الله، والله يأمره بالإنفاق، فكيف لا يطيعه، وكيف يبخل الإنسان ورازق المال يطالبه بالإنفاق، ويُطَمْئِنُه بأنه سيرده إليه.

والبخل شر للإنسان، يتسبب في منع الآخرين له، كما يمنعهم، ثم يخسر في الآخرة أجر الإنفاق، بل سيُعذَّب بماله الذي وجب عليه إنفاقُه ولم ينفقه.

ـ وبين الله تعالى أن الدنيا والأموال التي لا يحتاجها الإنسان ليست شيئاً ذا قيمة، فكيف يحرص عليها ويبخل بها ويجمعها ويمنعها، فلينفقها لتصير ذات قيمة، ليُحصِّل بها في الآخرة شيئاً ذا قيمةٍ، وليبقى مستحقاً لرحمة الله وعطائه، فنحن فقراء إلى الله، لا نستغني عنه، فكيف نعصيه ونبخل بعطاءِ ما أَمَرَنا به، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۞ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ(١) تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ(٢) ۞ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٦-٣٨]، فالله لم يطالبنا بكل المال، وإنما طالبنا بما نستطيع مما لا نحتاجه؛ وبيَّن أن الذي يمنع شيئاً من ذلك مذمومٌ، حيث وصف هذا المانع بأنه بخيل، وأنه يبخل بالأجر على نفسه، وأنه سيستبدلهم بمن هو خير منهم، فيأتي بقوم يبذلون وينفقون في سبيل الله.

(١) ﴿فيحفكم﴾: أي إن الله لم يطلب منا الصدقة بما يستأصل المال كله، أو يجهدنا بطلب كل المال، وإنما طلب منا ما زاد عن حاجتنا.

(٢) ﴿أضغانكم﴾: أحقادكم، والمعنيأنه لو طلب منا أموالنا التي نحتاجها لحقدنا وكرهنا دين الله.

ـ ولما كان البخل صفة سيئة في النفس، وله أثره السيّء الخطير في المجتمع والبشرية؛ فهو يستحق أن نستعيذ منه كما استعاذ النبي ﷺ منه، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من البخل»[1]، واستعاذة النبي ﷺ من البخل دليل على أن البخل قبيح وحرام.

ـ وحينما يغلِبُ البخل على الإنسان؛ فإن البخل يصير إماماً له، فيَتَّبِعُ ما يقتضيه البخل ويتصرف بناءاً عليه، وذلك من فساد الحال، وقد حذرنا النبي ﷺ من ذلك، كما أمرنا باجتناب المجتمع الذي صار بخيلاً، وأمرنا بالبحث عن ناس صالحين يقودهم الكرم والإحسان وحسن الخلق، قال ﷺ: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدانِ لك به؛ **فعليك خُوَيِّصَةَ نفسِك**»[2]، وخويصة الإنسان: هم أصحابه الذين يختصهم فيتناصح معهم ويتعاون معهم على الحق والخير، ويتجنب من سواهم من العامة ممن ساءت أخلاقهم وفسدت أحوالهم[3].

وحينما يصير البخل هو المتَّبَعُ وهو المحرِّك للإنسان، فإن يتسبب بقطع الرحم وقطيعة الإخوان، وذلك أن البخيل يَثقُل عليه أن يتحملَ مصروف الطريق، وهدية القريب والصديق، ويَبخلُ بوقته عن مثل هذه الطاعات، بينما

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٢٧ عن سعد بن أبي وقاص ﷺ ومسلم رقم ٢٧٠٦ عن أنس بن مالك، وتتمة الحديث: «... والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات».

(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٨ وأبو داود رقم ٤٣٤١ ابن ماجه رقم ٤٠١٤ وابن حبان رقم ٣٨٥، وللحديث تتمة، وقد ضعف بعض العلماء بعض الحديث.

(٣) وهذا لا يعني ترك الدعوةِ إلى الله والتناصحِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما يجد المسلمُ القدرةَ على ذلك.

هو لا يبخل على نفسه بما تشتهيه نفسه من اللهو أو المتابعة للرياضة والأفلام والمسلسلات، ويبذل في ذلك مالاً ووقتاً.

وحينما يصير البخل إماماً؛ يُقَصِّر البخيل في النفقة الواجبة عن الزوجة والأقارب والأبناء، ويُنْقِصُ العاملَ أجرَه المتفقَ عليه أو يأكلُه عليه، أو يعطيه أجرةً غيرَ مُجْزِيَة.

وحينما يصير البخل إماماً؛ لا يبالي البخيل بجاره وإخوانه؛ جاعوا أم شبعوا.

وكل ذلك من صور البخل التي نهى الله وسوله ﷺ عنها.

ـ وقد نبه الله تعالى إلى **علاقةٍ بين البخل والكِبر**، قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٣-٢٤]، فالمتكبر يستصغر الناس، فلا يرى لأحدٍ حقّاً، فيبخل، ويظلم، والأغنياء المتكبرون يرفضون صحبة الفقراء، ويتواصون فيما بينهم بازدراء الفقراء وإهمالهم واتهامهم بالكسل، فيأمرون بعضهم بالبخل.

وكذلك جمع رسول الله ﷺ بين صفة الكِبْر والبُخل، فقال ﷺ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ**[١] **مُسْتَكْبِرٍ**»[٢].

ـ وقد بين الله تعالى أن الشح غريزة في النفس، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، فالشح وصف ملازم

(١) العتل: الشديدُ الغليظُ الفظُّ الجافي اللئيم، الجوّاظ: الذي يَجمَعُ المالَ ويمنعُه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٦٣٤ ومسلم رقم ٢٨٥٣ عن حارثة بن وهب الخُزاعي ﷺ.

للنفس، والإنسان يُقَتِّر فينفق أقلَّ مما يملك، وأقلَّ مما يستطيع أن يُنفق؛ خوفاً وجهلاً وبخلاً، وواجب المسلم أن يتخلص من هذا الشح، ويحمل نفسه على الخير الذي أمره الله به.

ـ ومِنْ شُحِّ النفس وبخلها وكذبها أن يتعذر الإنسان ويبرر لنفسه البخل والمنع؛ بِاسْم الاقتصاد والتوفير فيقع في التقتير، وبِاسْم مصلحة الأبناء وضرورات الحياة ومفاجآت المستقبل؛ فيمنع حق الحاضر.

وبحجة أن الله تعالى رزاق ومعطي ومانع؛ يتناسى أن الله كلفه بإخوانه واختبره بهم، وجعل رزق بعض الناس عن طريقه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧].

ـ وقد بين الله تعالى أن النفس الإنسانية لا يزال فيها مرض الشح والبخل والمنع، حتى تؤمن بالله وتجتهد في طاعة الله، فيُطَهِّرُها الإيمان والطاعة من بقايا الشح في النفس، ومن الخوف من الفقر عند العطاء، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا(١) * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥]، فلا تنفك الأخلاق

(١) ﴿هلوعاً﴾: أي خائفاً مرعوباً، ﴿جزوعاً﴾: أي قليل الصبر، مُتوقِّعاً لما هو أَسوأُ.

عن الطاعة والإيمان، والطائع القائم بأعمال الإسلام والمتحقق بصفات المسلم؛ هو الذي يستحق التوفيقَ إلى الخيرِ والأخلاقِ والجمالِ.

ومن كان قليل الإيمان فلا بد أن تدعوَه نفسه إلى البخل ومنع العطاء، لذلك أخبرنا الله أن المنافق بخيل، فقال سبحانه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

كيف نتخلق بخلق الكرم:

أولاً: الأساس الفكري الذي يُولِّدُ ويصنع خلق الكرم:

- خلق الكرم والتضحية بالمال عند المسلم مبني على إيمانه بأن الله هو الملك الرزاق المعطي النافع الكريم المغني، وأن الله يُعَوِّض ويُخْلِف على مَنْ أعطى لله.

ويَدفعُ المسلمَ إلى بذل المال: التوكل على الله والثقة به، فكيف يخاف من الفقر؛ وهو عبد الغني المالك الرزاق، وهو معه سبحانه.

- لا يحب العطاء إلا من كان صاحب فطرة طاهرة؛ تجعله يحس بآلام الآخرين، ويرحمهم.

ولا يحب العطاء إلا من كان صاحب عقل راجح؛ يعلم منافع العطاء، وما يعود على صاحبه وعلى المجتمع من خير ونفع.

ولا يحب العطاء إلا من كان صاحب رحمة واسعة وشعور جماعي؛ فيتعامل باللطف والعاطفة تجاه الآخرين، ويدرك أن هناك احتياجاتٍ متبادلةً ومشتركةً بين الناس، فواجب كل إنسان أن يقدم ما يستطيع لغيره؛ وغيرُه يقدِّمون له حاجات يحتاجها ويفتقر إليهم فيها.

أما من كان أنانياً دنيء الطبع بليداً؛ فهو الذي يضيق صدره بالعطاء، فيبخل ويحرص ويستأثر ويطغى.

ـ البخلُ ومنعُ المالِ يَرجعُ إلى عدمِ الثقة بالله، وعدمِ اليقين بوعد الله بأنه يُخلِف على المنفق، ويرجع إلى حب الدنيا والاعتماد عليها وعلى أسبابها، ونِسيان من بيده الأسباب، ويرجع إلى طولِ الأمل، والحرصِ على الموجود ولو لم يكن نافعاً، والطمعِ في المزيد حتى لو لم تكن إليه حاجة، ويرجع إلى القلقِ والخوفِ من المستقبل والمجهول، مع أنه قد لا يأتي ما نتوقع من سوء، وقد نموت قبله، فكل هذه أمراض قلبية تتسبب بالبخل، وواجب المسلم أن يتخلص من هذه الأمراض، ويُذهِب الوَهْمَ الذي يصنعها، فمن تخلص من بخل النفس فقد أفلح ونجح، لأنه تخلص من أمراض كثيرة، وتخلص من سلوكيات خطيرة ناتجة عن ذلك البخل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦]، والشح هو البخل مع الحرص(١)، ولا فلاح إلا بترك البخلِ والشحِّ إلى الكرم والعطاء.

ومَن صَحَّ إيمانه وكان قلبه سليماً؛ لم يكن فيه بخل، قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، **ولا يجتمع الشحُّ والإيمانُ في قلب عبدٍ أبداً**»(٢)، والحديث يدل على أننا حينما نرى البخل في مجتمع

---

(١) الشح هو أبلغ من البخل وأشد، فهو يتضمن شدة الحرص مع المنع، ويرى بعض العلماء أن البخل تعبير عن المنع من حيث المعاملة والسلوك، أما الشح فهو الحالة النفسية الدافعة إلى المنع، فيكون البخل تعبير عن ظاهر البخيل، والشح تعبير عن باطنه.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٢٨١ والنسائي رقم ٤٣١٨ وابن حبان رقم ٣٢٥١، عن أبي هريرة ﷺ، ونحوه عند أحمد رقم ٩٦٩١، وفي معناه حديث ضعفه العلماء: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي رقم ١٩٦٢ عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال الترمذي: حديث غريب.

المسلمين؛ فذلك ليس من الإسلام، وإنما هو دليل على عدم التحقق بحقائق الإسلام وصفات الإيمان.

ـ ومن الحقائق التي تجعل المسلم كريماً: أن يعلم أن الله أَذِنَ للإنسان أن يتملَّك في الدنيا، وخَلَق فيه غريزةَ حبِّ التملك وغريزةَ الحرصِ على ما يملك، ليكون عند الإنسان دافعٌ للإنتاج والعمل، وذَكَّر اللهُ الإنسانَ بأن هذا التملكَ ليس تاماً وإنما هو استخلاف، فالله الذي أعطاك إياه مِنْ حَقِّه أن يقيِّدَك فيه، وأن يطلب منك أن لا تتعلق بالمال تعلقاً يجعلك تخرج عن عبادتك وتعلقاً يجعلك عبداً للمال، ومن حقه أن يطلب منك إنفاق شيء من المال، ومن حقه أن ينهاك عن الإسراف والتبذير فيه، إذ إنه ما أعطاك المال والممتلَكات إلا ليختبرك، فكان من اختباره لك أن طالبك بالكرم والإنفاق في وجوه من الخير، ونبهك إلى أَنَّ تملُّكَ المال وإنفاقَه يجب أن يكون مرتبطاً بالنفع، فتتملك لنفعك، وتنفق لنفعك، وتعطي غيرك أيضاً لنفعك، فالعطاء يعود عليك بالنفع، لذلك نبه الله البخلاء الذين يظنون أن الكرم والعطاء والصدقةَ تُنْقِص المال؛ نَبَّهَهم أن الصدقة لا تُنقِص المال مادياً، بل تعود بالمصلحة والنفع على المنفق كما تنفع مَنْ يأخذُها، فتلك سنة من سنن الله، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنفِق يا ابْنَ آدمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»[1]، وقال ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[2].

ـ لقد عَرَّفنا اللهُ ونبيُّه ﷺ مِن سُنَّةِ الله في المنفِق والإنفاق ما يجعلنا نَكْرُمُ ولا نبخل، ونعطي ولا نمنع، ولا نخاف الفقر، ولا نخاف النقص، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٣٧ عن أبي هريرة ﷺ، وفيه زيادة في رقم ٤٤٠٧ وعند مسلم رقم ٩٩٣: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار».

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٨ عن أبي هُريرة ﷺ، ومعنى الحديث: أن الصدقة لا تنقص المال.

يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّـهُمَّ أَعطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّـهُمَّ أَعطِ مُمسكاً تَلَفاً»(١).

والذي يُتلِف اللهُ مالَه بسبب الإمساك؛ هو مَن أمسك المال الذي يجب إنفاقُه، وهؤلاء هم الذين سيعاقبهم الله ويعذبهم بأموالهم: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فمن أدرك هذه الحقائق كيف يكون بخيلاً، وكيف لا يكون كريماً منفِقاً.

ـ الذين يبخلون، ويجمعون المال الكثير فوق حاجتهم، ثم لا ينتفعون منه ولا ينفعون غيرهم؛ يكونون قد حبسوا الخير وضيعوا مهمة المال، وهؤلاء هددهم الله، وبين أنهم جهلاء، يتوهمون أن المال سيُخَلِّدُهم، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ١-٩].

ـ من الحقائق التي تجعل المؤمن كريماً: أن يثق بالله أنه يعلم صدقاتِنا، وأنه لا يضيِّعنا، ولا يُحيجنا إذا أنفقنا في سبيله، قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالى: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وأمرنا الله أن نثق بأنه يتولانا، وأمرنا أن لا نخاف الفقر إذا أعطينا، وأعلمنا سبحانه أن الذي يخوفنا من الفقر هو الشيطان، فواجب المسلم أن

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٧٤ ومسلم رقم ١٠١٠ عن أبي هُريرة ﷺ.

لا يطيع هذا الخاطر الذي يخوفه من الفقر لأنه من عدونا الشيطان، وعلمنا الله أن الكرمَ والعطاء سببُ المغفرة، وأنه لا يُنقِصُ المال بل يأتي بالفضل وزيادة المال، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٨-٢٧٠]، والآية الآخيرة تبين أن الله لا يخفى عليه الإنفاق الذي تتقربون به إليه، فكيف تظنون أن صدقاتكم تذهب هدراً، وتتوهمون أن الله لا يكرمكم بها.

ـ وإذا علم المؤمن أن الدنيا كلَّها بما فيها من مال وغيره؛ لا تزن جَناح بعوضة، فكيف يبخل بهذا الجَناح وهو غير محتاج إليه، فالمؤمن لا يكون بخيلاً على المحتاجين بالمال من أهله وقرابته وغيرهم، ولا بخيلاً عن نصرة دينه ودعوته، ولا يبخل بالجَناح إلا قليلُ العقل، متعلقٌ بالأوهام، غيرُ موقن بقول الله تعالى: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

فمن عَلِم هوان الدنيا وحقارتها زهد فيها، ولم يعظمها، ولم يتعلق بها، ولم يحرص عليها، مع كونه يأخذ حاجته منها.

ومن زهد فيها لم يبخل فيها، بل يدفعه ذلك إلى بذلها لمن يحتاجها، لينتفع من هذا الإنفاق في آخرته، فالكرم هو من أهم ثمرات الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

ـ الله تعالى خلق الإنسان ويرزقه، وكل دابّة على الله رزقها، ولا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، والله تعالى قد يجعل الإنسان يمر بالحاجة والفاقة

والفقر، ليُحِس بضعفه، وليتذكر ربه، فيرجع إليه ويلجأ إليه ويدعُوَه، والمسلم يدعو ربه ويطلب منه الرزق، حتى لو كان غنياً، من باب العبودية والاعتراف بالافتقار إلى الله.

والمسلم الذي رزقه الله، وجعلَ المالَ بين يديه فوق حاجته، وطلب منه أن ينفقه في سبيله؛ فلم يفعل، ولم يُعطِ، فبأي منطق يطلب مزيد الرزق؟ أهو يشك في الله؟ أم يريد رزق الله وهو لا يطيع الله؟ أم يريد رزقاً، لا هو يحتاجه ولن يعطيه لمن يحتاجه؟

لذلك أخبر النبي ﷺ أن من كان معه مال يستطيع أن ينفقه فلم يفعل؛ فإن الله يحبس الرزق عنه، فعن أَسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «لا تُوكِي[1] فَيُوكَى عَلَيْكِ»[2]، «أَنفِقِي أَو انْضَحِي أَو انْفَحِي[3]، وَلا تُحْصي[4] فَيُحْصَي الله عَلَيكِ، وَلا تُوعِي[5] فيوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ»[6]، ومعناه أن من ربط الجراب الذي فيه المال، أو أقفل الخزانة التي فيها المال، أو حبس المال في وعاء لأجل المستقبل، أو عدَّ المال ورغب أن يدَّخر منه شيئاً، مع

---

(١) (الوكاء): الرباط الذي يكون على الإناء والجراب، ومعناه أن لا تقولي: هذا مال للضرورة والمستقبل، فلا أَفْتَحُه، بل أَبْقِهِ مفتوحاً فكلما عرضت حاجة لك أو لغيرك فأنفقي منه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٣٦٦.

(٣) (انْضَحِي أو انْفَحِي): بمعنى: أَنفِقِي، لكنه يفيد العطاء الكثير وبلا تردد.

(٤) (لا تحصي): أي لا تعُدِّي شيئاً من المال، فتجعلي لنفسك مبلغاً احتياطياً، لا تنفقينه إلا في الضرورة، بل أنفقيه في أي باب من أبواب الخير.

(٥) (لا توعي): لا تجعليه في وعاء، وتدخريه وتمنعيه، ومعنى: (فيوكي الله عليك) و(يحصي الله عليك) و(يوعي الله عليك)، أي يمنعك ويغلق عليك الرزق كما تغلق القربة ويشد بابها، فيمنع الله عنك الزيادة والفضل، لأنك منعتيه عن مستحقِّيه.

(٦) أخرجه مسلم رقم ١٠٢٩ ونحوه البخاري رقم ١٣٦٧ و ١٣٦٨.

وجود من يستحقُّه، فالله تعالى لا يرزقه، وذلك أن المالَ معه والرزقَ بين يديه، فلماذا يريد الرزق؟

أما إن أنفق مِمّا بين يديه؛ أعطاه الله بدلاً منه وأخلفه إياه، فيستفيد من المال مرتين، مرة بإنفاقه، ومرة بما يعطيه الله خلفاً عنه.

ـ ومما يدعونا إلى البذل أن نعلم أن الإنسان كما يُسأل عن المال من أين اكتسبه، كذلك يُسأل كيف أنفقه أو مَنَعَه، فسوف نحاسب على كل دينار نعطيه هل أعطيناه لمن يستحقه، أم منعناه، أم صرفناه فيما لا يحل لنا، قال ﷺ: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ»[1].

وقد بين القرآن أننا سوف نحاسب عن كل دينار منعناه لِمَ منعناه، ولِمَ بخِلْنا به عمن يستحقه، ونُعَذَّبُ على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وذمَّ الله تعالى الذين أعطاهم الله من المال فلم يقدموه في سبيل الله، كما وَعَدُوا، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] فكان عقابهم أن يصرفوا عن الهداية طول حياتهم.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٤١٧ وقال: حسن صحيح، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ﷺ، ونحوه رقم ٢٤١٦ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

ـ ومما يدفع المسلم إلى الإنفاق: أن ينظر إلى ماله الذي يزيد عن حاجته على أنه ليس له، فما نقضي به حاجاتنا هو مالنا، وما يبقى وراءنا فهو لغيرنا وليس لنا، لذلك قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيُّكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟» قالوا: ليس فينا أحدٌ مال وارثه أحبُّ إليه من ماله، قال: «فمالُك ما قدَّمتَ، ومال وارثك ما أخَّرت»[1]، فمال الإنسان هو ما استفاد منه، في دنياه بالنفقة على نفسه، أو ما استفاد منه في آخرته بإنفاقه في سبيل الله، أما ما حبسه وبخل به؛ فكأنه ليس له، بل هو لغيره، فالعاقل من يستفيد من ماله، لا من يُحوِّله إلى غيره، دون أن ينتفع منه، وهو لم يُفَوِّت النفع فحسب؛ بل سيُسأَل من أين اكتسبه، ويحاسب على جمعه ومنعه، إن منعه عن واجب، وإن منعه عن مندوب سيندم، ثم يصير المال إلى ورثته، وقد يسيئون في استعماله، فيحاسب على إساءة تربيتهم، إن كان قصر في تربيتهم، وتكون إساءتهم في صحيفته لأنه سبب فيها، فلا تبخل أيها المسلم.

ـ كل هذه الحقائق يجب أن يتذكرها المسلم، ولا ينساها، ويقرأ القرآن الذي يُذكِّرُه بها، حتى تستقر في نفسه، فتدفعه إلى الكرم والإنفاق.

ثانياً: الجانب العملي الذي يولِّد ويصنع الكرم:

حتى يصير الإنسان كريماً؛ فلا بد أن يتكلف آداب الكرم ويحرص عليها، ويحمل نفسه عليها، فإذا ألزم نفسه بالكرم في كل ظرف يقتضي الكرم، وفي كل حال يَحسن فيه الكرم، وإذا ألزم نفسه بآداب الكرماء؛ بدأ يتحقق بخلق الكرم حتى يتعود عليه ويصير بعد حين سَجِيَّة، لا يتأخر فيه ولا يتردد، ولا يحتاج إلى تَرَوٍّ ولا إلى تفكير في صدوره عنه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٧٧ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

من آداب الكريم وأعماله(1)

١. من آداب الكريم: **أنه يعطي وينفق، ولا يمدح نفسه بالعطاء، بل يرى إنفاقه من فضل الله**، وبتوفيق من الله، فيشكر الله، ولا يتمنن على الناس الذين أنفق عليهم، لأن الخير من عند الله، لا عند نفسه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، فواجب الكريم أن يكون إنفاقه خالياً من الأذى النفسي والإذلالِ والمنِّ على الآخذ.

ـ والمؤمن يعلم أنه إن اغتنى فمالُه وغِناه من الله، وعليه أن يعمل فيه صالحاً، وإن افتقر ففقره ابتلاء من الله وعليه أن يصبر عليه، ومن جهل ذلك فلم يصبر ولم يعمل صالحاً؛ فإنه إذا مُنِع من المال قد يكفر ويعترض على الله ويتسخَّط، وإذا أعطي يظن ذلك من شطارته وجهده، وقد يظنه علامة على رضى الله عنه، والحق أنه في كلا الحالين يَختبرُه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ٩-١١].

٢. **الصدقة إن لم تكن بالمال كانت بغيره**، قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، الصدقة لها صور أخرى غير المال، فالكلمة الطيبة صدقة، ومسامحة الناس صدقة، وقد تكون هذه

(١) وكل ما ذكرناه أو غالبه هو من الآداب الواجبة في الكرم، أما آداب الكرم المندوبة فنذكرها إن شاء الله في القسم الثاني؛ مرحلة المتوسطين في طريق التزكية: مرحلة السالكين.

الصدقات أعظم من صدقات المال، ولَأَنْ يتصدق الإنسان بكلمة طيبة خير من أن يتصدق بالمال؛ ثم يؤذي الناس بالمنِّ عليهم، أو باستغلالهم، أو بالتكبر عليهم.

الصدقة بغير المال لها صور كثيرة، منها:

أ. عَوْنُ الناس وخدمتهم وكف الأذى عنهم: صدقة، قال ﷺ: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»، قال الراوي: فإن لم أفعل، قال ﷺ: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تَصَدَّقُ بها على نفسك»(١). وقال ﷺ: «يعين ذا الحاجة الملهوف»(٢).

ب. هداية الناس صدقة عظيمة، قال ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حُمْر النَّعَم»(٣)، فلأن تهدي رجلًا كأنما أهديت نفسك أعظم من مال الدنيا، وكأنما أَهْدَيتَ مَن هَدَيْته أكثرَ من الدنيا، فالهداية أغلى من المال كله.

ج. وعطاء العلم والمعرفة صدقة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]، أي ليس ببخيل ببيان ما يأتيه من الغيب من علم وحق، ونهى النبي ﷺ عن البخل بالعلم، وبيَّن عقوبته فقال: «من كتم علماً أُلْجِم بِلِجامٍ من نار يوم القيامة»(٤).

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٢٣٨٢ ومسلم رقم ٨٤ عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٦٧٦ ومسلم رقم ١٠٠٨ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٨٤٧ و ٣٤٩٨ و ٣٩٧٣ عن سهل بن سعد رضي الله عنه. و (حمر النعم): الإبل الحمراء، وهي أفضل الأموال عند العرب.

(٤) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان رقم ٩٥، ونحوه عند أحمد رقم ١٠٤٩٢ وأبي داود رقم ٣٦٥٨. و (اللجام): الحديدة التي توضع على فم الفرس ووجهه.

د. بَذْلُ صاحب السلطانِ جاهَه وإمكاناته في الخير كرمٌ وعطاءٌ وصدقة، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥]، فما يترتب على شفاعته ووساطته الحسنة من خير فهو كالمتصدق به، وقال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»(١).

هـ. أن تعطي الناس من وقتك وعطفك وحنانك وابتسامتك صدقة، قال ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»(٢).

و. الدعاء لأخيك، والنصيحة له، والعفو عنه، والتغافل عن زلاته، والكلمة التي تُدخِل السرور عليه وتشرح صدره؛ صدقة، قال ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»(٣).

ز. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجود بالنفس في الجهاد في سبيل الله كرم وصدقة للأمة كلها، قال ﷺ: «وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة»(٤).

٣. من أدب الكريم: **الإخلاص لله في الصدقة**، وعدم انتظار الأجر من غير الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ (٥) عَلَيْهِ تُرَابٌ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٦٥ عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٩٥٦ وابن حبان رقم ٤٧٤ عن أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٧٣٤ ومسلم رقم ١٠٠٩ عن أبي هريرة ﷺ، وتتمة الحديث: «وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة».

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٩٥٦ عن أبي ذر ﷺ. ومعناه عند البخاري رقم ٥٦٧٦ ومسلم رقم ١٠٠٨.

(٥) ﴿صفوان﴾: صخر أو حجر كبير أملس.

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ (١) فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا (٢) لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فعدم الإخلاص لله في الإنفاق يبطل أجره، وذلك ناتج عن ضعف الإيمان بالله واليوم الآخر، وكذلك من يؤذي الناس ويمنُّ عليهم بالعطاء، يبطل أجره.

فالصدقة تحتاج إلى أرضية صالحة تنبت فيها وتثمر، هي الإخلاص والرحمة للناس.

ـ ولا يكون الكريم كريماً إذا كان ينتظر من صدقته أن يأتيه نفع من الناس، من تعظيم أو مدح أو جاه أو تقديم أو رئاسة، أو مثوبة وجزاء ورَدٍّ بمثلها، أو مقابل وبديل في الدنيا، وإنما الكريم من يعطي ولا ينتظر الخير والمثوبة والأجر إلا من عند الله، فذلك هو المخلص.

ومن كان يكره الإنفاق، لكنه ينفق طلباً للجاه، أو ليقال كريم، أو خجلاً من الناس؛ فذلك لا ينفعه، ولا يتقبل الله منه، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وليس كريماً من يشتري بماله ضمائر الناس، ليسكتوا على ظلمه، أو ليناصروه في باطله، أو ليشهدوا معه بالكذب، أو لينتخبوه في منصب أو إدارة أو رئاسة، ونحو ذلك، فذلك بخيل خائن.

٤. من أدب الكريم: **عدم التراجع عن نية العطاء والصدقة والكرم**، فالكريم يَنظُر إلى نيته في العطاء على أنها وعد للناس بالصدقة، يجب الوفاء به،

(١) ﴿وابل﴾: مطر كثير.

(٢) ﴿صلداً﴾: أجرد، قاسياً.

ويراها عهداً مع الله، يجب الصدق فيه، وقد هدد الله من يَكذِب ويُخلِف وعده بالصدقة، ويمنع حق الله؛ بأن يُدخِل النفاق في قلبه فلا يخرج منه، ويموت على ذلك، أعاذنا الله من ذلك، فالبخل يورث نفاقاً متمكّناً في القلب، قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم (١) مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

٥. من آداب الكريم: **الإخراج من الحلال الطيب، لا من الخبيث والرديء**، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فالكرم والإنفاق يجب أن يكون من الطيب الذي يُحِبُّه الإنسان ويرتاح إليه ويَقبَلُه، ولا يجوز أن يكون من الخبيث غير الجيد الذي تنفر منه النفوس وتكرهه، والذي لا نَقْبَلُ من غيرنا أن يُعْطِيَنا مثلَه، كالذي يتخلص من ثياب مهترئة أو أثاث قديم أو سلع كاسدة أو فاكهة فاسدة أو مُخَمّجَة، فذلك تخلُّص وليس صدقة.

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ (٢) حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فالمؤمن يتصدق ويكرم من ماله الذي يحبه لنفسه وماله الذي يرغب به لنفسه، ومع ذلك يخرجه طيبة به نفسه، يتكلف أن يخرج هذا المال رغم تعلق قلبه به ورغم حبه له، فذلك هو الكريم، وذلك الذي وعده الله بالجزاء الجزيل، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] وقوله: ﴿عَلَىٰ

(١) أي من المنافقين.

(٢) ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرّ﴾: أي لن تنالوا الخير ورتبة الإحسان.

حُبِّهِۦ﴾ على الرغم من تعلق النفس به أو على الرغم من حاجته إليه، ومع ذلك ينفق على غيره، ويقدم ذلك على التمتع بماله، فالمال الذي يجب أن يبقى عنده؛ هو الذي يتصدق به ليبقى له في الآخرة.

٦. من آداب الكريم: **الحرص على إخفاء الصدقة**؛ لعدم جرح شعور الفقراء والمساكين، ومحافظةً على الإخلاص، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]، بينت الآية أن إخفاء الصدقة أولى من إظهارها، ولعل ذلك يرجع إلى حماية النفس من العُجبِ ورؤيةِ العمل وطلبِ مدح الآخرين، فالعمل الذي لم يطلع عليه الناس يكون أقرب إلى الإخلاص، حتى لا تأتيك خواطر تجعلك تقصد بعملك رؤيةَ الناس وتعظيمَهم لك، كما أن إظهار الصدقة أحياناً يكون مؤذياً لمن تتصدق عليه، فإذا تجنب المسلم هذين المحذورين؛ فلا بأس بعد ذلك إن أَظهَر الصدقة، فقد تكون دافعاً للاقتداء بالمتصدِّق.

٧. من أدب الكريم: **البحث عمن هو أولى بالصدقة، والحرص على إعطائهم، كالعاملين لدين الله، وكأخفياء الفقراء، ومن هو أحوج بينهم**، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ[1] ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: أي حبسوا لعمل فيه خدمة للدين؛ من جهاد أو دعوة أو علم أو تعليم أو خدمة للمصلحة العامة للمؤمنين، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: يطلق ابتداءاً على الجهاد الحق، ويمكن أن يشمل معه غيرَه من أعمال النصرة للدين.
ولوالدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله رسالة ينبه فيها على أولوية إخراج الأموال لمن يعملون للإسلام، ويقومون بالفرائض الكفائية، ولمن لهم نفع عام، هذه الرسالة بعنوان: (فلنتذكر في عصرنا ثلاثاً: فروض العين، فروض الكفاية، لمن تدفع صدقتك)، =

ضَرۡبًا فِي ٱلۡأَرۡضِ[1] يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا[2] وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، فحثت الآية على الإنفاق على الفقراء المتعففين الذين لا يَفطَنُ الناس إليهم، فهم لا يُظهرون حاجتهم للناس، ولا يطلبون من أحد، لكن إن كنت فَطِناً نَبيهاً قد تَكتشف فقرَهم مِن حالهم أو لباسهم أو مِن وجود عوز ونقص عندهم.

وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى فقال: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ؛ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»[3].

وكما أَمرَ الله المؤمنين أن ينتبهوا إلى الفقراء؛ حَثَّ الفقراء على التعفُّف عن السؤال، فالله تعالى عليم بهم، وييسر لهم من يعطيهم.

وبَعدَ أن أمر الله بالإنفاق في الخير ابتغاء وجه الله، في الآية السابقة على هذه الآية؛ بيَّن الله في هذه الآية نموذجاً مِن الإنفاق في الخير؛ الإنفاق على المتعفِّفين الذين **حَبسوا أنفسهم لخدمة الدين** بالعلم أو التعليم أو الدعوة أو الجهاد، أو **حبسوا أنفسهم لخدمة المؤمنين** ومصالحهم العامة، كالحاكم الذي يحكم بالعدل، والموظف الذي يسعى في خدمة الناس وتيسير أمورهم وتفريج كرباتهم وإغاثة

= وهي مطبوعة في كتاب له يضم عدداً من الرسائل بعنوان: (كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر).

(١) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرَباً فِي الأَرْضِ﴾: أي لا يستطيعون العمل والكسب الذي يسد حاجتهم الدنيوية، وسبب عدم استطاعتهم: تفرغهم لأمر من أمور المسلمين، كالجهاد أو طلب العلم، أو لضعفٍ وقلةِ حيلة.

(٢) ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافا﴾: أي لا يطلبون بإلحاح وإحراج للناس.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٤٠٦ ومسلم رقم ١٠٣٩، عن أبي هريرة ﷺ.

ملهوفهم، فهم في الحقيقة لا يعملون لأنفسهم، وإنما يعملون للأمة، ويُفرِّغون أنفسهم لما ينفعها ويحفظ عليها دينها، **فيجب على الأمة وأغنيائها أن تقضي حوائجهم الدنيوية**، وذلك من أوجبِ الصدقة، وأعظمِها أجراً، فإن الأمة إن لم تُعْطِهم؛ فإنهم يُضطَرُّون لترك مواقعهم؛ لأجل أن يَكْفُوا أنفسَهم بعمل دنيوي، فَيَفُوتُ خيرٌ كثيرٌ على الأمة، وقد تتعرض للخطر، وتصير الأمة بحاجة إلى من يقوم بهذه الأعمال، وتحتاج أن تُفرِّغَ غيرَهم وتعطيَهم رواتبَ.

والعالِم حينما يتفرغ لطلب العلم وتعليم الناس؛ ما تفرغ إلا لأجل الناس وإصلاحهم وتعليمهم ودينهم وآخرتهم، فهو يكرم الأمة بهذا العطاء العظيم، فعلى الأمة أن تعطيه ما يقضي حوائجه في مقابل خدمته لها.

والمجاهد حينما يتفرغ لنصرة الدين وحماية الأمة وبلادها، فهو يعمل بالنيابة عن المسلمين جميعاً، فعلى المسلمين أن يكرموه ويقوموا به وبأهله، وإن لم يفعلوا فسيضطر لترك موقعه والعمل في الدنيا، فتخسر الأمة وتتعرض للهلاك في دينها وأموالها وأبنائها وبلادها.

والأصل في هذه الأمور أن تتولاها الدولة المسلمة، فإذا قصرت الدولة، أو لم توجد دولة إسلامية تقوم بهذه الأمور؛ فواجب أغنياء المسلمين أن يتولوا ذلك ويقوموا به.

كما يجب على الأغنياء أن يُعطوهم بإكرام واحترام، لا بإذلال وإهانة وتقتير، فيعطي الغنيُّ المالَ من غير أن يراه أحد، ويقول له: أنفقه كيفما شئت، أو أنفقه على نفسك أو من تراه محتاجاً، ولا يقول له: إن احتجت فاطلب مني، فلن يطلب منه.

٨. من أدب الكريم: **أن يكون عطاؤه وكرمه في محلِّه المناسب**، وذلك أن يكون في الحق، وفيما يريده الله، وفيما هو أنفع لعباد الله، فقد بين النبي ﷺ أن

المـال الذي تُنفِق منه وتُحسِـن أن تضعه في مواضعِـه الموافقةِ لأمر الله؛ مِنْ أعظمِ النعـم، فهـي نعمة تنافس نعمـة العلم والحكمـة، وتسـتحق أن يَغبطك الناس عليهـا، ويَتَمَنَّوا أن يُعطَـوا مثلها، قال ﷺ: «لا حَسَـدَ[1] إلاَّ في اثنتين: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً، فَسَـلَّطَه عَـلَى هَلَكَتِهِ[2] في الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَـاه الله حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[3]، فلا شيء يسـتحق التقدير أكثـر من هذين الأمرين، أحدهما العلم والحكمـة، والثـاني أن يوفقه الله إلى إنفاق المال بما يوافق الحق والشريعة، سـواء كان إنفاقه على نفسه أو عياله أو على الناس والأمة.

ولا يكون إنفاقاً في حق؛ حتى يكون مشروعاً، وحتى يقدَّم الواجب على المندوب، وحتى يقدَّم الواجبُ والمندوبُ على المباح، وحتى يُترَكَ الإنفاقُ في الحرام والمكروه.

فلا يجوز لمسلم أن يقدِّم النفقة في بناء قصر وعنده بيت يؤويه، أو شراء أثاث جديد يمكن أن يستغني عنه، أو سيارة حديثة عنده ما يغني عنها، أو لباس لا يحتاجه، أو يدفع المال لمتابعة رياضة أو قنوات فارغة، لا يجوز أن يقدم هذه الأمور وأمثالها؛ على الإنفاق فيما هو واجب، كما لا ينبغي أن يقدمها على مندوب، فيخسر أجراً كبيراً، لأجل أمور يستطيع أن يستغني عنها.

ولا ينبغي للمسلم أن يترك أو يؤخر الإنفاق على القريب المحتاج، أو المسكين والفقير، أو اليتيم الذي لا مال له ولا معيل، أو طالب العلم الذي لا يجد نفقته وتكاليف دراسته، أو المجاهد الذي انشغل عن طلب الدنيا بحماية

(١) الحسـد هنـا بمعنـى الغبطـة، أن تُقَدِّر هـذه النعمـة، وتتمنى مثلَهـا، لا أن تتمنـى زوالها عن صاحبها.

(٢) أي وفقه الله إلى إنفاقه في الحق.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٧٣ و ١٣٤٣ ومسلم رقم ٨١٦ عَن عبد الله بنِ مسعودٍ ﷺ.

الأمة ونشر الدين، ولا ينبغي أن يبخل المسلمُ الغنيُّ بالإنفاق على الإصلاح بين الناس، أو في بناء المساجد وتعميرها، أو إنشاء المرافق التي تخدم الأمة، أو زيارة الصالحين، والسعيِ إلى دروس العلم النافعة، وشراء كتب فيها علم نافع ينتفع منه.

كما لا يجوز أن ننفق أموالنا في حرام كالخمر والخنزير والربا، أو في رشوة ندفعها لظالم، أو في السعي لطلب جاه أو إمارة بغير حق، ولا أن ننفق أموالنا لشيء نتفاخر به أمام الناس، أو نسعى به للمدح والتعظيم، أو نحو ذلك، كما لا يجوز للمسلم الغني أن يسرق الأموال العامة ويستبيحها، ولا أن يتهرب مما عليه من أموال للأمة والدولة، ترتبت عليه بحق.

ـ وكما أن للغني أجرَه ومكانته إذا أنفق بعلم وحكمة؛ فكذلك الفقير ينال ذلك الأجر إذا نوى نية صادقة أنه لو أغناه الله لفعل كما فعل ذلك الغني العالمُ الحكيم.

فالمؤمن إذا كان كريم النفس، لكنه لا يملك مالاً ينفقه؛ فإن الله تعالى يعطيه أجر المنفقين، إذا كان صادق النية، بحيث لو مَلَك المال تَصدَّقَ فعلاً في الخير والصلة والطاعة، ولم يبخل، قال النبي ﷺ: «عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحِمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً؛ **فهو صادق النية**، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيته، فأجرهما سواء»[1].

٩. من أدب الكريم: **أنه لا يحبس المال إذا احتاجه هو أو غيره**، فالله تعالى

(١) جزء من حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن أبي كبشة الأنماري، وأخرج نحوه أحمد في مسنده ٤/ ٢٣١.

جعل في الدنيا من الرزق والأموال فوق حاجة الناس، لكنَّ حَبْسَها هو الذي يتسبب بالفقر والجوع ويفسدُ أحوال كثيرٍ من البشرية، وسوءَ الإدارة للأرزاق والزروع والثمار؛ هو السبب في نسبة الفقر العالمية الكبيرة.

وقد حثنا النبي ﷺ على أن نستفيد من أموالنا في حياتنا، بإنفاقها على حاجاتنا، وفي أوجهِ الخير إن استطعنا، بدلاً من أن نتركها إلى الورثة، لا ندري يسيئون فيها أم يحسنون، وقد يستفيد منها غيرنا، لكن نحن الذين تعبنا بها أولى بالاستفادة منها، قال رسولُ الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِليه مِن مَالِهِ ؟» قالُوا: يا رَسولَ الله، ما مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِليه، قال: «فَإِنَ مَالَه ما قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ ما أَخَّرَ»(١).

وإن كنت ترى قرابتك وأهل بيتك بحاجة؛ فتمنعُهم حاجتهم، وتبخلُ عليهم، فأنت تبخل عن نفسك، ولا تستفيد من مالك، وأنت ممن يخاف على الرزق، ويحرص على الدنيا، ويبخل بحق الله فيها، وكذلك من يبخل عن حاجات نفسه؛ فيموت ولم ينتفع من ماله، وترك المال والميراث لغيره، فهذان ممن ذَمَّ تصرفهم هذا الحديث.

أما إِنْ كنتَ ترى ورثتك من العاجزين عن العمل وطلب الرزق؛ فأنت مأمور بأن تترك لهم شيئاً يعيشون به، إن كان معك فائض من مالك، وكانوا ممن لا يُضيِّعون المال بفسق وحرام، فقد قال سعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ ﵁ قال: «عَادَنِي النبيُ ﷺ عَامَ حَجَّة الْوَداعِ مِنْ مرض أَشْفَيْتُ منه على الموت، فَقُلْتُ: يا رسُول الله؛ بلغَ بِي مِن الْوجعِ مَا تَرى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ لِي واحدة، أَفأَتصَدَّق بثُلُثَيْ مالِي؟ قَالَ: لا، قال: فأتصدق بشَطره؟ قالَ: لا، قال: الثُّلُثُ يا

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٧٧ عن ابن مسعود ﵁.

سعد والثُّلُثُ كثِيرٌ، **إنَّكَ أَنْ تَذرَ وَرثتك أغنِياءَ خَيْرٌ مِن أَنْ تذرهُمْ عالَةً يَتكفَّفُونَ النَّاس**»[١].

ـ ويدل الحديث على أنه **يجوز للإنسان أن يحتفظ بالمال لحاجةٍ مُتوَقَّعَة**[٢]، إذا لم يكن يتوقع ـ من حيث الواقعُ والمُعتادُ وعالَمُ الأسباب ـ أن يدخل عليه ما يكفيه لحاجته التي يتوقعها[٣]، ويشترط في ذلك؛ أن لا يَجِدَّ له حاجةٌ لنفسه أو لإخوانه أو لأمَّته هي أهمُّ مِن حاجته، فإذا طرأ شيء من ذلك[٤]؛ وَجَبَ عليه أن

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٣٧٢١ ومسلم رقم ١٦٢٨.

(٢) ويكون هذا التَّوَقُّعُ والاحتمالُ مبنياً على واقعٍ وعلمٍ ومعرفة، لا على وَهْمٍ وتَخَوُّفٍ، وذلك كأن يكون الإنسان مريضاً، ويُقَدِّر أنه سيحتاج مبلغاً من المال للعلاج أو الدواء، أو كأن يكون عند الوالد ولد يَدرُس في الجامعة، ويقدر أنه يحتاج مبلغاً ما لدراسته، أو كأن يكون مُقبِلاً على الزواج، ويتوقع أنه سيحتاج مبلغاً لمهر الزوجة وتجهيز البيت.

(٣) ونجد نموذج ذلك في كتاب الله في قصة يوسف ﷺ، حينما علم من الرُّؤيا أنه سَتأْتي على الناس سبع سنوات قليلة المحصول والإنبات، فأرشد الناس إلى حبس بعض المحصول من السنوات التي قبلها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً **فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ** إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٥-٤٩].

(٤) كأن يكون الوالدُ قد ادَّخَرَ مالًا لدراسة ولده؛ فاحْتِيجَ إلى ماله للجهاد في سبيل الله، فأيهما أولى أن يَدْرُس أولادُنا وتضيع البلاد، أم أن نحمي البلاد والدين والمسلمين؛ ولو فاتت بعض مصالحنا ومصالح أبنائنا؟، أو يكون أحدُنا قد ادَّخر بعض المال لدواءٍ، فوجد مريضاً يُخشَى عليه الموت إن لم نعالِجْه ونُسْعِفْه، ولم يَجِدْ غيرَنا يُعطيه، فوجب علينا أن نُقدِّمه على أنفسِنا، فَدَرْأُ ما يؤدي إلى الموتِ أولى من درإ ما يؤدي إلى الألم.

يُنفق فيما هو أَوْلَى، ثم إِنْ احتاجَ عند تَحقُّقِ حاجتِه التي كان يتوقعها؛ كان حقه على إخوانه، وجاز له أن يطلب منهم؛ إن لم يأته من الرزق ما يقضي حاجته.

١٠ . ومن أدب الكريم: **أن لا يخاف على المستقبل، وأن يعلم أن رزق كل حاجة في وقتها**، فإذا جاءت الحاجة لك أو لغيرك فأنفق، فلكل حاجة رزقها، ورزق حاجتك الآن موجود؛ فأنفق، ورزق الحاجة التي ستأتي؛ سيأتي فيها بعد.

لماذا يعطيني المالَ إذا كنت أَمنعُه ولا أستعمله عند الحاجة إليه، وربما أموت قبل أن أحتاج المالَ لحاجة أخرى، فأكون قد حرمت نفسي وغيري مما رَزَقَ اللهُ، قال رسولُ الله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «لا تُوكِي فَيوكَى عَلَيْكِ»، «لا تُوعِي فيوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ»[1]، فبينّ أن من سُنَّة الله فيمن يخاف على المستقبل، فيحبس المال ويقفل عليه؛ أنه يتسبب في منع نفسه من رزق الساعة والوقت الحاضر، فيبقى الرزق إلى المستقبل، وربما يهلك، ولو أعطى الآن لاستفاد من الرزق، وسيأتيه رزق المستقبل.

وقد سمى الله تعالى ترك الإنفاق على الحاجة الآنية، لأجل حاجة متوهمة أو محتملة في المستقبل؛ سماه كنزاً للمال، وهدد أصحابه بالعذاب، لأنهم يحبسون المال عند الحاجة إليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

---

(١) سبق تخريجه وشرحه، أخرجه البخاري رقم ١٣٦٦ و١٣٦٧ ومسلم رقم ١٠٢٩ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

ـ وقد يمنع الإنسان العطاء في الحاجةِ الحاضرةِ بحجةِ مستقبلِ الأبناء، فبين الله تعالى أن من يخاف على أبنائه؛ فالوسيلة لحماية مستقبلهم هو التقوى والكلمة الطيبة، وليس البخل ومنع الصدقة، فقال: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

ـ والنبي ﷺ دعا لآل بيته رضي الله عنهم: «اللهم اجعل رزق آل محمد كَفافاً»(١)، وليس معنى ذلك أنه يطلب لهم الفقر، أو أن لا يكون بين أيديهم إلا حد الكفاية، وإنما معناه أن الله تعالى يعطيهم ويغنيهم، فيتصدقون بما يزيد عن حاجتهم، فلا يبقى إلا كفايتهم، وكذلك كانت تفعل فاطمة رضي الله عنها، وأمهات المؤمنين عائشة وغيرها، وكذلك كان علي والحسن والحسين وغيرهم من أبنائهم وأحفادهم رضي الله عنهم أجمعين.

١١. من أدب الكريم: أنه بَعْدَ أن ينفق فيما هو مضطر إليه؛ **ينفق فيما هو أنفع لنفسه في آخرته**، فبَعْدَ أن يقضي حاجاته الضرورية؛ يحرص على أن يقدِّم المالَ الزائدَ لآخرته، فهو أنفع له من أن ينفقه على نفسه في أمور غير ضرورية، وهذا من إكرام النفس.

ولا يلام المسلم على الإنفاق على نفسه فيما يحقق كفايته، ثم ينبغي أن يتقرب إلى الله بالإنفاق على أقرب الناس إليه، وهم أهله وعياله، ثم ينفق في وجوه الخير الأخرى في سبيل الله، فتكون يده منفقة عليا، ولا يمد يده إلى الناس، وما زاد عن حاجته وحاجة من كلَّفه الله بهم؛ يعلم أن الخير له أن يبذله وينفقه، قال رسُولُ الله ﷺ: «يا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيرٌ لَكَ، وأَنْ

(١) أخرجه مسلم رقم ١٠٥٥ وفي رواية عنده بلفظ قوتاً بدل كفافاً، وابن حبان رقم ٦٣٤٣ عن أبي هريرة ﷺ.

تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلامُ عَلى كَفَافٍ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ، واليَدُ العُليَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»(١).

فليكن كرمك على نفسك أيها المسلم بما ينفعك في الآخرة؛ أعظمَ مِن كرمك على نفسك فيما يمكن أن تستغني عنه من الدنيا، فَمِن غِشِّ النفس أن تتوسع في دنيا على حساب آخرتك وأجرك وثوابك، واجعل نظرك وميزانك أخروياً لا دنيوياً، كما روي عن عائشة رضي الله عنها أَنَّهُمْ ذَبحُوا شَاةً، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنها؟» قالت: ما بقي مِنها إلاَّ كَتِفُهَا، قال ﷺ: «بَقِي كُلُّهَا غَيرَ كَتِفِهَا»(٢)، فما تَصَدَّقُوا به فهو الذي ينتفعون منه انتفاعاً أعظم، وهو الذي بقي لهم في الآخرة، وما لم يتصدقوا به كأنما أتلفوه من غير فائدة،مقارنةًمع الآخَر.

١٢. من أدب الكريم: **أن يتحرى متى يعطي ماله ويتصدق ويُطعِم**، كثيرٌ من المسلمين لا يفكر أن يعطي إلا لمسجد أو يتيم، فتجد بعضَ أبوابِ الخير فيها عطاءٌ كثير فائض، وبعضُ أبوابِ الخير الأخرى لا تجد مَن يُعطِي فيها، كالدعوة إلى الله وطلب العلم والجهاد، فواجب الغني أن يتفطن إلى أبواب الصدقة التي هي أحوجُ وأقلُّ حظاً من الإنفاق، فلا يكون بخيلاً فيما قصَّر الناس فيه، ولا يكون معطياً فيما أعطى الناسُ فيه كفاية.

وبعض الناس لا يعطي إلا في رمضان، ولا يزكي إلا في رمضان، فالفقير يأتيه شيء كثير في رمضان، ولا يأتيه شيء في غير رمضان، والله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٠٣٦ عن أبي أُمَامَةَ صُدَيِّ بنِ عَجْلانَ ﷺ.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٤٧٠ وقال: حديث صحيح، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٢٨٦ عن عائشة رضي الله عنها.

ربط الزكاة بالنصاب والحول، لتتوزع على السنة كلها، فإذا كان المسلم يحرص على الخير في رمضان، فلا ينبغي أن يكون ذلك على حساب مصلحة الفقراء في بقية السنة.

ونجد بعض الأغنياء يطعم الطعام ويوزعه للفقراء في رمضان، فبعض الفقراء يأتيه في اليوم الواحد في أيام رمضان عددٌ من الوَجبات، بينما لا يأتيه شيء في بقية السنة.

ولا يكون عطاء الكريم وإطعامُه للطعام على حساب مصالح شرعية أخرى، فلا يجعل كرمَه وعطاءَه على حساب بيته وأهله وما يحتاجونه من نفقة، ولا يجعل نفقتَه تضييعاً لواجبات أهمّ، ولا يجعل كرمَه مُرهِقاً لزوجته ومُهلكاً لصحتها، ولا يجعل اهتمامه بالإنفاق على حساب الصلوات وجماعةِ المسجد، ولا يجعل إطعامَه تبذيراً وإسرافاً، فيصنع طعاماً يكفي لأَضْعافِ مَن يَدعُوهم، ثم يُلقِي الطعامَ إلى النفايات.

١٣. من أدب الكريم: أن **لا يخجل من الصدقة والإكرام بالقليل**، ولا يُشترط في الصدقة والإنفاق والإكرام أن يكون بكثير، بل تُعطِي مما عندك ومما بين يديك، قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١).

وقد ذم الله الذين يسخرون ممن يعطي القليل الذي عنده، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٥١ ومسلم رقم ١٠١٦ عَن عَدِيِّ بنِ حاتم ﷺ.

اللهُ إلاَّ الطَّيِّبَ فَإِنَّ الله يقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبَها، كَما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[1] حتى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[2].

والحديث يدل على أن الصدقة المقبولة يجب أن تكون من المال الحلال والكسب الطيب، فالله ينميها ويبارك فيها، ولو كانت قليلة.

وقد حث النبي ﷺ على إكرام الجيران من الطعام، ولو كان شيئاً قليلاً، قال ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتِها ولو فِرْسَنَ شاةٍ»[3].

١٤. من آداب الكريم: **إكرام الأهل والأقارب**: فيحرص المسلم على أن يشبع أهله وأقاربه، ويكرمهم، بعد كفايتهم، فيكرم والديه وزوجته وأولاده وأعمامه وأخواله، ويتصدق على أقربائه وأبناء عمومته، ويتفقد جميع عائلته وعشيرته، قَبْل أن يتصدق على الغرباء.

وليس من أخلاق الكريم المؤمن؛ أن يحقد على قرابته ويمنعهم، ثم يكون كريماً على غيرهم، فالكريم كريم النفس، يسارع إلى العفو عن قرابته إن أساؤوا، ولا يحقد عليهم، ولا يقصر في حقوقهم، ولا يغفل عن حاجاتهم، فليس كريماً من لا يكون كريماً على أهله وقرابته.

وكيف تستقيم البيوت، وكيف يكون الحب والصلة والتراحم والتعاون فيها؛ والفقير منهم يرى الغني يُعطِي الآخرين، وهم جياع ومحتاجون ولا يبالي بهم، ولا يرحمهم، ولا يحسن إليهم.

---

(١) (الفَلُوُّ): هو المُهْرُ: الخيل الصغير.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٣٤٤ ونحوه عند مسلم رقم ١٠١٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٤٢٧ و ٥٦٧١ ومسلم رقم ١٠٣٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه. و(الفرسن): هو الموضع الذي ليس فيه لحم كثير، كقدم الخاروف.

قال ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل؛ دينار ينفقه على عياله»(١)، وقد حث النبي ﷺ على الصدقة على الأقارب وبين أن فيها أجران: «أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»(٢).

وانظر كيف كان النبي ﷺ يوجه أصحابه للعناية بأقاربهم والإحسان إليهم: عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ(٣)، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ(٤)، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ(٥)، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا(٦) عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَخْ(٧)، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ(٨)، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٩٩٤ عن ثوبان رضي الله عنه، وتتمة الحديث: «ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله».

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٣٩٧، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) (بيرحاء): اسم بستان.

(٤) (مستقبلة المسجد): أي مقابلة له، قريبة منه.

(٥) (طيب): عذب.

(٦) (أرجو بِرَّها وذُخْرها): أطمع وأنتظر من الله تعالى أن يكتب لي أجرها وثوابها، لأجده يوم القيامة.

(٧) (بَخْ أو بَخٍ): كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء.

(٨) (مال رابح) ذو ربح كثير، يجنيه صاحبه في الآخرة. وفي رواية: (رايح) من الرواح وهو الرجوع أي يرجع نفعه إلى صاحبه.

أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[1].

فينتفع المسلم بالصدقة على أقاربه الفقراء أكثر مما ينتفع من الصدقة للفقير غير القريب، فقد أعطى الفقيرَ وأكرمَ القريب، وسَلَّ الحقدَ من قلوب الأقارب، ويتسبب في مزيد من الحب والتراحم والدعاء بالبركة لبعضهم.

والقريب الفقير حينما يرى مال قريبه الغني، ويتطلع إلى حَظٍّ منه، ويعلم أن له فيه حقاً جعله الله له، ويرى أن الغريب يستفيد منه وهو لا يصل إليه منه شيء، ولا يرى خيره؛ فإنه يحقد على قريبه الغني، وربما يقاطعه.

ـ وليس معنى ما سبق أن نَحرِمِ الفقراء غير الغرباء، وليس معناه أن يصير الكرمُ على القريب والأبناء دلالاً مفسِداً لهم، أو تبذيراً في مُحَرَّم، أو إسرافاً في دنيا، فالمسلم يجب أن يكون وسطاً عَدْلاً مُعتدِلاً في كل شيء.

١٥. من أدب الكريم: **إكرام الجار**، وتفقد أحواله، وعونه عند حاجته، والإحسان إليه بالهدية، ومبادلته الهدايا. فإنه من لم يُكْرِمْ أهلَه وجيرانَه فلن يكون فيه خيرٌ للأمة.

ولا يجوز لمسلم أن يتجاهل جيرانه، ولا يبخل عليهم، ولا يكفي أن ينظر إلى ظاهر أحوالهم، بل عليه أن يتفقد أحوالهم، ويعينهم؛ إن كان قادراً على عون الضعفاء والفقراء، وقد بين النبي ﷺ أن تضييعهم وتركهم جَوعى من نقص الإيمان، وليس من أخلاق المسلمين، فقال ﷺ رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِى يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٩٢ ومسلم رقم ٩٩٨.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى رقم ٢٠١٦٠، =

والواجب أن تعطي جارك المحتاج حتى ولو كنت قد أديت زكاتك، فهذا واجب غير الزكاة، والجار الذي يحتاجك اليوم، وتُقاسِمُه مالَك؛ قد تحتاجه غداً، وتحتاج أن يقاسمك لقمته وماله، والمسلمون أسرة واحدة وعائلة واحدة، بل كالجسد الواحد، فكيف يجوع واحد فيهم، وكيف يحتاج.

وأمر النبي ﷺ بإكرام الجار من الطعام، ولو بالشيء القليل كالمَرَق، فقال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «إذا طبخت مَرَقَةً فأكثر ماءها، وتعاهد[1] جيرانك»[2].

ـ وحينما يصير الإطعام للجيران ثقافةً عامة جماعية، فإنك ستجد أن إكرامَ الجيران إكرامٌ لنفسك، فحينما تعطي هذا الجار وهذا الجار من بعض طعامك، ويعطيك هذا الجار وهذا الجار من بعض طعامهما، فإنه يصير عند كل واحد منكم ثلاثة أطعمة، وما أعطيتهم رجع إليك مثله من نوع آخر، فكان ذلك خيراً على الجميع، ولم يخسر أحد شيئاً، فكل جار رجع إليه مثل ما أعطى وأحسن.

١٦. ومن أدب الكريم: **إكرام الضيف**، والمسارعة بتقديم الضيافة إليه، وقد جعل النبي ﷺ إكرام الضيف حقاً له واجباً، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[3]، وقد علمنا الله إكرام الضيف والمسارعة إلى ضيافته؛ في فعل إبراهيم عليه الصلاة السلام، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ

= عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عنه البخاري في الأدب المفرد رقم ١١٢ بلفظ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»، ونحوه الحاكم في المستدرك رقم ٢١٦٦، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير رقم ٧٥٠ عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به».

(١) (تعاهد جيرانك): أي اعْتَنِ بهم واقصدهم بالإكرام وتفقدهم.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٦٢٥.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٦٧٢ ومسلم رقم ٤٧ و ٤٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(١) ﴾ [هود: ٦٩].

وإكرام الضيف إحسان وتحبب وتراحم وتآلف، ولا يجوز أن يكون نفاقاً ولا تبذيراً ولا مباهاة ولا إسرافاً، فأمر النبي ﷺ أن يكون للضيف فراش، ولكن لا يزيد من الفرش ما لا يحتاجه هو وأهله وضيوفه، فقال ﷺ: «فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ»(٢).

١٧. من أدب الكريم: **إكرام العامل والأجير والموظف والخادم، وإعطاؤهم حقهم وأجرتهم** المتفق عليها، وأن تكون مكافئة للعمل، تكفي العامل وتسد حاجاته، وعدم التأخر عنهم، قال ﷺ: «أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»(٣)، وقال ﷺ: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي(٤) ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه(٥)، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه(٦) ولم يعطه أجره»(٧).

---

(١) (حنيذ): أي مشوي.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٠٨٤ عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٣) حديث حسن، أخرجه ابن ماجه، رقم ٢٤٤٣ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، والبيهقي في السنن الكبرى رقم ١١٤٣٤عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أي عاهد بالله.

(٥) أي ادعى على حُرٍّ أنه عبد وباعه وأخذ ثمنه.

(٦) أي عمل له الأجير العمل المطلوب.

(٧) أخرجه البخاري رقم ٢١٥٠ عن أبي هريرة ﷺ.

والبخيل لا يستشعر الأخوة بينه وبين العاملين، ولا يحس بهم وبآلامهم وفقرهم، فيُنْقِص العاملَ أجره المتفق عليه، أو يأكله عليه، أو يعطيه أجرة غير مُجْزِيَة، وذلك لا يجوز من المسلم.

فالمسلم يرى أن منافعه ما تحصلت إلا من هؤلاء العمال، وأرباحه ما جاءت إلا على أكتافهم وأتعابهم وأوقاتهم، فيعطيهم ليعيشوا كما يعيش، ويشبعوا كما يشبع، ويلبسوا كما يلبس، ويتعلموا كما يتعلم، ويتداوَوا كما يتداوى، ولا يَشقُّ عليهم، ولا يكلِّفهم فوق طاقتهم، ولا يُطَوِّل عليهم وقت العمل، بما يفوِّت عليهم عبادتهم وصلتهم للرحم وغير ذلك من شؤون البشر التي لا بد منها.

كُلُّ ذلك بَيَّنه ونَبَّهَ إليه النبي ﷺ بقوله: «هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ؛ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ»(١).

١٨. من أدب الكريم: **أن لا يَرُدَّ السائل، ولا ينهره ولا يعنِّفه**، بل يتلطف به، ويتأكد من فقره وحاجته، ثم يعطيه ما يقضي حاجته، قدر ما يستطيع، أو يتعاون مع إخوانه الأغنياء في سد حاجته، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ١٠]، ومما تعنيه الآية أن على المسلم أن يُحسن الظن بالسائل، ويَفترِض صدقه، حتى ولو كان ظاهره الغنى أو يشكك بكلامه(٢).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٠٣ ومسلم بنحوه رقم ١٦٦١، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) وهذا مما تفيده الآية، وقد ورد في هذا المعنى حديث ضعَّفه أكثر علماء الحديث، وحسنه قليل منهم، أخرجه أحمد وأبو داود وابن خزيمة وغيرهم، ولفظه: «للسائل حق ولو جاء على فرس»، أي ولو كان ظاهره قد يوهمك بالغنى فلا تُسِئْ الظن بالمسلم، فربما كان الفرس لغيره، أو ربما كان من ضرورات حياته.

وهذا لا يعني تضييع المال، ولا أن نكون أغراراً يغشُّنا بعض المحتالين والشحادين ويكذبون علينا ويستخرجون أموالنا بغير حق، فالكرم لا يعني بذل المال من غير تأكُّد وتحرِّي، بل من حقِّ المسلم وواجبه أن يَتَحَرَّى لِمَنْ يُعطي، ويتثبَّت مِن السائل هل هو فقير أو كذاب، إن لم يكن يعرف حاله.

وقد أمر بذلك النبي ﷺ وبيَّن كيفية التثبت، وبيَّن أنجع وسيلة للتعامل مع الشحادين السائلين، فعن قَبِيْصَةَ بن مُخارِقٍ الهِلالي قال: تَحمَّلت حِمالةً[1]، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها[2]، فقال[3]: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها»، ثم قال:

«يا قَبيصةُ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة؛ رجل تَحمَّل حِمالةً، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يُمسِك، ورجل أصابته جائحة[4] اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً[5] مِن عيش، ورجل أصابته فاقةٌ[6]، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا[7] من قومه، لقد أصابت فلاناً

(١) (حمالة): أي دِيَة قتيل أو غرامة ترتبت عليه أو تكفَّل بها عن غيره، أو كانت حَرْب بين فَرِيقين سفكت فيها دماء فتدخَّل بينَهُم رجُل تَحَمَّل دِيَاتِ القَتْلَى، ليُصْلح ذات البَيْن.

(٢) (أسأله فيها): أي أطلب منه أن يعطيني من المال والصدقة لأجل أداء الدية.

(٣) أي النبي ﷺ.

(٤) (جائحة): أي مصيبة تفسد المال والممتلكات، كالحريق الذي يحرق بيت الإنسان ومتجره، أو كالآفة التي تصيب الزرع فلا يبقى منه شيءٌ ينتفع منه المزارع.

(٥) (قواماً): أي ما يقوم به أمر الإنسان، لا أن يصير غنياً أو يرجع كما كان، (سداداً): وما يسد حاجته، وتمشي به أموره المادية الضرورية.

(٦) (فاقة): أي فقر وعَوَزٌ ونقص وحاجة.

(٧) (ذوي الحجا): أي أصحاب العقل والفطنة والمكانة بين الناس.

فاقةٌ، فَحَلَّتْ له المسألةُ حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصةُ سُحْتاً[1] يأكلها صاحبها سحتاً»[2].

فانظر كيف أمر النبي ﷺ في هذه الأمور أن يكون التثبت تثبتاً زائداً على التثبت المعتاد، وذلك فيه حِكَم عظيمة، فإذا كان يكفي للشهادة في الأمور العادية رجلان عَدْلان؛ فإنه طَلَب للشهادة في أمر الفقير ثلاثة، واشترط أن يكونوا من عقلاء قومه وعِلْيَتهم، وذلك يفيد عدة أمور:

١. حتى يتثبت الغني ويطمئن أن ماله يصل إلى محتاج ومستحق.

٢. إذا سألنا عنه عشيرته وأهله وقومه، وتبين أنه كذاب؛ فإننا نكون قد دفعناهم إلى إصلاحه وتربيته، وأخبرناهم أنه يفسد سمعتهم، ونهيناه عن المنكر والكذب، بِرَدِّه إلى مَن يَقدِر على ضبطه وتأديبه وإصلاحه.

٣. إذا تبين أنه فقير ومحتاج، وكانوا قادرين على إعطائه والإنفاق عليه، فنكون قد أحرجناهم، وذكَّرناهم بواجبهم تجاه ولدهم وقريبهم.

٤. وإذا تبين أنه فقير محتاج، وهم غير قادرين على إعطائه؛ عندئذ نعطيه ونحن مطمئنون إلى استحقاقه، ونعلم أننا نضع المال فيما وجب أن يوضع فيه.

ففي هذا الحديث علاج حكيم عظيم لمشكلة الفقر، ولمشكلة الشحادة والتسوُّل.

١٩. من أدب الكريم: **أن يحرص على أن يقدم ماله وطعامه لمن كان أحوج**، ولقد ندبنا النبي ﷺ إلى إطعام الناس، فقيرهم وغنيهم، فعنْ عَبْدِ اللهِ

---

(١) (سحتاً): أي حراماً وكذباً وباطلًا بغير حق.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٠٤٤.

ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً[1] سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ[2] ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ[3] عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[4]، لكن النبي ﷺ حذرنا من أن نقصد الأغنياء وحدهم، فالأغنياء عندهم ما يكفيهم، ولا حاجة لإطعامهم، إنما نطعمهم تراحماً وتحبباً، أما الفقير فإنه يُطعَم زيادة على ذلك لحاجته، فهو أولى، فمن قصد الأغنياء وترك الفقراء فقد أخطأ طريق الإحسان وطريق الرحمة، وسلك طريق النفاق والمباهاة والتفاخر والتكبر، قال ﷺ: «شَرُّ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ؛ يُدْعَى إِلَيْهَا الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ»[5] وقال ﷺ: «شَرُّ الطَّعَام طَعَامُ الْوليمةِ؛ يُمْنَعُها مَنْ يأْتِيهَا[6]، ويُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا[7]، ومَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوةَ فَقَدْ عَصَى الله ورَسُولَهُ»[8].

٢٠. من أدب الكريم: **أن يكون كريماً من جيبه، لا من جيب غيره**، فقد يستدين الكريم لأجل إكرام الناس، ولا حرج في ذلك إذا كان يعلم من نفسه أنه يقدر على سداد الدين، أو استدان لتحقيق مصلحة عظيمة كالإصلاح بين

---

(١) هو أبو ذر رضي الله عنه.
(٢) أيْ أَيُّ أعمال الإسلام أكثر أجراً ونفعاً.
(٣) (تقرأ السلام): أي تُسَلِّم.
(٤) أخرجه البخاري رقم ١٢ ومسلم رقم ٣٩.
(٥) أخرجه البخاري رقم ٤٨٨٢ ومسلم رقم ١٤٣٢ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، وفي رواية لمسلم بلفظ: «بئس...».
(٦) وهم الفقراء الذين يحتاجونها، فيأتونها.
(٧) وهم بعض الأغنياء الذين يتكبرون عن حضورها، أو لا يحرصون على إجابتها لعدم حاجتهم.
(٨) أخرجه مسلم رقم ١٤٣٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الناس[1]، أما أن نستدين ونحن لا نستطيع الوفاء والسداد، لأجل الكرم؛ فالله تعالى لا يكلفنا ذلك، وليس هذا من الكرم، بل هو من أكل أموال الناس بالباطل، فالكرم لا يعني أن يكلف الإنسان نفسه فوق طاقته.

٢١. من أدب الكريم: **أن لا يعلِّق كرمه وعطاءه على فِعلٍ من الله،** فليس من أدب المؤمن أن يعامل الله بالتجارة والمبادلة، ولو أراد أن يعامله كذلك فعطاء الله سابق وسابغ وعظيم وغامر، ولا نستطيع الوفاء به، قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]، وقال: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

ومن ظن أنه إذا وعد الله تعالى بالعطاء مقابل فعل يفعله الله له، فإن وعده وعطاءه يُغيِّر مِن قضاء الله أو يؤثر على إرادة الله وقَدَره؛ فإنه واهمٌ ومُختَلُّ الإيمان، لذلك «نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: إنه لا يرد شيئاً[2]، وإنما يُستخرج به من البخيل»[3]، فلا تكن بخيلًا؛ لا تخرج المال ولا تتصدق ولا تعطي إلا إذا حقق الله لك مقصداً كشفاء مريض أو نجاح طالب أو كشف غُمَّة، بل أعط وتصدق، سواء حقق الله لك ذلك أم لا، فالبخيل الذي لا تسخو نفسه ولا تجود بالعطاء؛ يُجبر نفسه على العطاء بالنذر، فيصير واجباً في حقه، وهو متوهم أنه إذا نذر سيحقق الله له مطلبه، فأخبرنا النبي ﷺ أن نذره لن يغير ما قضاه الله من بقاء البلاء أو زواله.

---

(١) ومن استدان للإصلاح بين الناس، ولم يستطع سداد الدين؛ جاز أن يُعطَى من الزكاة لأجل ذلك.

(٢) أي لا يَرُدُّ شيئاً من قضاء الله وقدره، ولا يُغيِّر.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٢٣٤ ومسلم رقم ١٦٣٩ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

٢٢. من أدب الكريم: أن **لا يضيع المال**؛ تبذيراً في حرام، أو إسرافاً في غير نفـع، أو مُباهـاة ومَخِيْلَة وتكبراً وتفاخراً، أو نفاقاً وخجلاً، قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، وقـال سـبحانه: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مَخِيْلَةٍ»(١).

فلنتق الله في أموالنا وطعامنا وولائمنا، فليس الكرم أن نصنع طعاماً ثم نكب ونلقي ثلاثة أرباعه، فذلك تضييع للنعمة، وليس الكرم أن نصنع الطعام الكثير للعدد القليل لنريهم أننا نكرمهم أو أننا نملك المال، فذلك سفه وجنون.

وحَرِيٌّ بمن صنع طعاماً فزاد منه شيء أن يبحث عمن يستفيد منه ويأكله من قرابته وجيرانه والمحتاجين.

٢٣. من أدب الكريم: **الإقراض الحسن**، فبعض الناس قد لا يحتاج إلى صدقة ولا إلى عطاء، لكنه يحتاج أن تُعطيَه قَرضاً أو دَيْناً لأجل ما، ثم يرده إليك، وهذا القرض فيه إكرام للناس وقضاء لحوائجهم، فهو في معنى الصدقة والإنفاق، لأنك تجمد مالك، فلا تنتفع منه، وتعطي لأخيك أن ينميه لنفسه أو ينتفع منه مدة من الزمن، وقد بين الله تعالى أنه يضاعف القرض لصاحبه، كما أنه يضاعف الصدقة، وجعل فيهما أجراً كبيراً، قال سبحانه: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ

---

(١) حديث حسن، أخرجه البخاري تعليقاً قبل حديث رقم ٥٤٤٦، وأخرجه أحمد رقم ٦٦٩٥ والنسائي في السنن الكبرى رقم ٢٣٤٠ والحاكم رقم ٧١٨٨ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، و (الإسراف): أن يَصْرِف المال فوق الحاجة، و (مخيلة): التكبر والافتخار على الآخرين.

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، وقال ﷺ: «ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة»(١).

والمجتمع الذي تنمو فيه الثقة بين أفراده هو الذي يكثر فيه القرض، ويستفيد الناس منه فوائد عظيمة، أما في مجتمع النصب والاحتيال والكذب والغش والخوف من إنكار الدَّين أو المماطلة فيه فإن الناس يحجمون عن الدين والإقراض خوفاً على أموالهم أن تضيع ولا ترجع، ويسرقها الكذابون والمماطلون.

لذلك حرَّم الله مطل الغني وتأخيرَ سدادَ الدَّين عند الاستطاعة، حتى لا يكون سبباً في قطع الخير والبر والتعاون، قال ﷺ: «مَطْلُ الغَنيِّ ظُلمٌ»(٢).

وأمرنا بالصبر على المَدِينِ الفقير حينما لا يستطيع سداد الدين، ليتم المعروف إليه، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

(١) حديث حسن، أخرجه ابن ماجه رقم ٢٤٣٠ عن ابن مسعود ﷺ، وأخرج نحوه ابن حبان في صحيحه رقم ٥٠٤٠ والبيهقي في السنن الكبرى رقم ١٠٧٣٣ و ١٠٧٣٤.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٢١٦٦ ومسلم رقم ١٥٦٤، عن أبي هريرة ﷺ.

المبحث السابع

العفة وترك الشهوات المحرمة

عفة النفس عن الحرام والشهوات، والتنزهُ عما لا يباح، واستغناء النفس عما في أيدي الناس؛ من أهم جوانب صلاح النفس وطهارتها، لأجل هذا كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»(١)، يُعلِّمُنا أن العفة عظيمة كالهداية والتقوى، فهي من أهم ما نحرص عليه وندعو الله به.

والعفة أحد المعالم الكبرى من معالم الدين، لذلك حينما سئل أبو سفيان عما يدعو إليه الإسلام، وكان لا زال كافراً، فلخص ما يدعو إليه النبي ﷺ في خمسة أمور، أحدها العفة، فبين أن النبي ﷺ «يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعَفاف والصِّلة»(٢).

والعفاف أعظم أسباب صفاء القلب وطهارته، فبه يرتاح القلب من الشهوة وخواطرها وأطماعها وتعلُّقاتها وشواغلها وآثارها.

معنى العفة:

إذا أعرض الإنسان عن شيء مذموم يهواه ويميل إليه ويشتهيه؛ فقد عَفَّ عنه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٢١، عن عبد الله بن مسعود ﷺ. قال النووي: الغنى هنا غنى النفس، والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٧ ومسلم رقم ١٧٧٣، عن عبد الله بن عباس يحُدِّث عن أبي سفيان بن حرب ما جرى بينه وبين هرقل الروم من حديث حول دين الإسلام والنبي محمد ﷺ.

والمسلم يكف عن كل شهوة حرمها الله، ويتنزه عن كل ما لا يباح له، ويترفع عما لا يليق به، وكل ذلك من العفة.

ـ وإنما يتصف الإنسان بالعفة حينما يكف ويترفع عن الشهوة على الرَّغم من وجود دواعيها، ويترفع عن المال الحرام على الرَّغم من قدرته على أكله وسرقته من غير تهمة ولا فضيحة، ويترفع عن أعراض الناس وعن إساءة الأدب على الرغم من أنه لا يحاسب ولا يلام، فذلك هو العفيف.

أما مَنْ يَعِفُّ خوفاً من العقاب أو الفضيحة، أو يعف لأنه غير قادر على إصابة شهوته، أو أخذِ المال الحرام، أو التكَلُّمِ بالباطل؛ فلا يُعد عفيفاً.

ـ والعفة فيها معنى الترفع والتكبر على الباطل، والمؤمن لا يتكبر على الحق، ولا يتكبر على الآخرين بغير حق، لكنه يتكبر على الباطل ويتأفف منه ويترفع عنه، والعفة هي هذا التكبر والترفع عن الباطل والمعصية والحرام والخسة.

ـ والعفة لا تعني الجفاء والجَلافَة والعُبوسة، ولا تعني أن يكون الإنسان لا عواطف له ولا يتأثر، لكنه يتأثر ويميل ويُحرِّك عواطفه عند الحلال، ويضبط نفسه عند الحرام، إلى درجة أن لا يتحرك في النفس أَيُّ مَيْلٍ نحو الحرام والباطل، ولا يَقبَلُ في خاطره أيَّ طَمَعٍ فيه.

أنواع العفة:

العفة تشمل **العفةَ عن الشهوات** الجنسية المحرمة، فلا يكون المسلم شهوانياً، ولا تثيره المثيرات الباطلة، ولا يقترف الفواحش.

وتشمل **العفةَ عن الأموال** الحرام وأموال الآخرين، فالمسلم لا يكون جَشِعاً ولا يطمع بما ليس له، **فالأمانة عفة**[1].

---

(١) وقد سبق الكلام عن ذنوب المال الحرام، ووجوب الحذر منها، =

وتشمل **العفةَ عن أعراض الناس وسُمْعَتِهم**، فالمسلم لا يتكلم على الناس بالباطل، ولا يغتابهم، ولا يُشهِّر بهم، ولا يُجرِّح فيهم، ولا يقذف أعراض الناس، ولا يسيء إلى سمعتهم(١).

وتشمل **العفةَ عما لا يليق** ولا يَحسُن ولا يَجْمُل من الإنسان، فالمسلم لا يكون دنيئاً، ولا يَخرِم المُروءات، ولا يتعلق بالسَّفاسِف والمُحَقَّرات والأمور الخسيسة، ولا يطلبها، **فالمروءة عفة**(٢).

فالمسلم يجب أن يكون أرفع وأسمى من أن يقع في هذه المحرمات والمكروهات.

ومعظم الكلام في هذا المبحث سيكون عن العفة عن الشهوات، وباقي جوانب العفة لها مواضِعُها الأخرى.

وجوب العفة:

ـ أوجب الله التعفف لمن لا يجد النكاح الذي يعفُّه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ(٣) مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ

= في الباب الثالث: التزكية العملية، كما سبق الحديث عن خلق الأمانة في أموال الآخرين، في هذا الفصل.

(١) وقد سبق الكلام عن هذا الأمر ضمن الحديث عن ذنوب اللسان، في التزكية العملية.

(٢) وسيأتي تفصيل موضوع المروءة في باب الأخلاق من القسم الثاني: تزكية المتوسط: مرحلة السالكين.

(٣) ﴿الأيامى﴾: هم من لم يكن متزوجاً، سواء كان ذكراً أو أنثى، وسواء كان متزوجاً من قبل أم لا.

مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٢-٣٣]، كما أوجب في الآية عفة النساء، والمحافظة على عفة الفتيات، فنهى أهاليهن عن أن يدفعوهن إلى البغاء والزنا، ونهاهم أن يفعلوا ذلك طمعاً بالمال.

ـ وأوجب الله التعفف عما في أيدي الناس، وعما وَهَبَ اللهُ الآخرين، مِن الدنيا ومتاعها وزينتها ونسائها، قال تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]، فنهي عن التطلع والطمع فيما في أيدي الناس مما يتمتعون به مؤقتاً في هذه الدنيا من زينة الحياة ومُشْتَهَياتها، مما يطمع فيه الناس؛ من مال، وسلطان وجاه، وزوجات حِسانٍ، وأولاد وذرية، وعُزوة مُناصِرين وعشيرة، وعِمارات ومساكن طيبة وقصور، وسيارات ومركوبات فارهة، وخيل وأنعام، وزروع وثمار وفواكِه، وأراضٍ ومزارع، وحدائق وبساتين، وقوة وجمال.

ثم ذَكَّرنا الله بما يدفعنا إلى العفة، فبَيَّن أن هذه الزينة هي فتنة واختبار وابتلاء، وليست في حقيقتها نعيماً ولا شيئاً فخماً يُتَعَلَّق به أو يُتَفاخَر به، وبيَّن أن رزق الآخرة أهم وأولى بالعناية والطلب، فهو الزينة الحقيقية، وهو خير وأفضل، وهو باق ودائم، وهذا النعيم الدنيوي قليل قصير زائل، وشَبَّهَ الله لنا هذه الدنيا بالزَّهرة؛ لنعلم أننا إذا رأيناها جميلة، فعن قريب تذبل وتموت، ويذهب جمالها، ويذهب ريحها الطيب.

فضيلة العفة:

ـ مدح النبي ﷺ العفيف المتعفف، وبين أنه من أهل الجنة، وذم الشهواني

والخائن والبذيء، وبين أنهم من أهل النار، فقال ﷺ: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسطٌ متصدقٌ موفق، ورجل رحيم رقيقُ القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيال، قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له[1] الذين هم فيكم تَبَعٌ لا يبغون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يَخْفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خانَه[2]، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك[3]، وذكر البخل أو الكذب، والشِّنْظِيرُ الفَحّاش[4] »[5].

(١) (لا زَبْرَ له): أي لا تفكير له، ولا إرادة له، فهو تبع، لأنه لا يستعمل عقله، فلا يكون له حيلة، وإنما ينتظر من غيره أن يقوده.

(٢) هذا الذي لا يعف عن المال، ولو كان قليلًا.

(٣) وهذا الذي لا يعف عن الشهوات والفواحش.

(٤) وهذا الذي لا يعف عن الكلام الباطل والسوء، و(الشِّنْظِير) فسره بقوله (الفحاش): وهو سيء الخلق بذيء اللسان الذي يقول كلاماً فاحشاً أي مَعِيباً جداً.

(٥) جزء من حديث، أخرجه مسلم رقم ٢٨٦٥، عن عِياض بن حِمار المُجاشِعي ﷺ.، وبداية الحديث: «أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبداً حلالٌ [أي الأصل فيما أعطى الله عباده ورزقهم أنه حلال إلا ما حرمه سبحانه، فما حرمه الناس لا يصير حراماً]، وإني خلقت عبادي حُنفاءَ [أي مسلمين طاهرين من الشرك والمعاصي] كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم [أي صرفتهم وحرفتهم] عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي، ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب [أي ممن بقي متمسكاً بدين الحق]، وقال: إنما بعثتك لأبتليك [أي بتبليغ الرسالة] وأبتلي بك [بالصبر على اتباعك والجهاد معك]، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء [أي محفوظ]، تقرؤه نائماً [مستلقياً] ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: رب إذاً يَثْلَغوا [أي يشجُّوا] رأسي فيدَعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغْزُهم نُغْزِك [أي نُعِينُك]، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك...».

وفي قوله ﷺ: «لا يخفى له طمع» إشارة إلى الحالة النفسية التي يصل إليها مَن لا يكون عفيفاً ولا أميناً، فتصل به خيانته وشهوته إلى أنه لا يستطيع أن يُخفي طمعَه في المالِ وإصابةِ الشهوات، فيَظهَر شأنه ويُفْتَضَح ولا يبالي.

كما يبين مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله رواي هذا الحديث عن الصحابي، يبين الحالة النفسية للإنسانِ الشهوانيِّ في التحايل للتوصل إلى الحرام والزنا والشهوات، فقال عقب هذا الحديث: «والله لقد أدركتهم في الجاهلية(١)؛ وإنَّ الرجلَ ليرعى على الحيِّ ما به إلا وليدتهم يطؤها»، فمن فَقَد العفة يتظاهر بالشيء، ويسعى فيه، ويكون له همة فيه، ويصبر عليه، وهو لا يريده، ولا يصبر عليه عادةً، وإنما يصبر عليه ويتحمله ليتوصل إلى الشهوة والحرام والفاحشة والزنا، وليجد الفرصة إلى شهوته وباطله، وليستدرج الآخرين بخبثه إلى الحرام، فذَكَرَ مُطرِّفٌ مثالَ ذلك؛ الرجلَ الذي يرعى على الغنم، ما يرعاها لأجل المال أو إحساناً، وإنما ليتوصل إلى الزنا بفتاة، وليَجِدَ الظرفَ الماكرَ لفاحشته وجريمته.

ـ والعفة تحمي قلب الإنسان من خواطر السوء والمكر، فيظل القلب طاهراً، سليم الطَّوِيَّة، سليم النِّية، سليم الخواطر، سليم المقاصد، لا خبث في نفسه تجاه أَحَدٍ.

والعفة تحمي الإنسانَ من الرذائل والدنايا والغش والخيانة.

وقد ضرب الله تعالى لنا مثالَ العفيف في نبيِّ الله يوسفَ عليه الصلاة والسلام، فقد ابتُلي بامرأة ذات جمال ومال ومنصب، خرجت عن العفة إلى الشهوة العارمة، وهَيَّأَت الخلوةَ وظروفَ الفاحشة والرذيلة، ورتَّبت أسبابَ

(١) أبو عبد الله مطرف لم يدرك أيام الجاهلية، وإنما يقصد من آثار الجاهلية وأعمالها.

التَّبَرُّجِ والإغواءِ والإغراءِ والإثارةِ، ودَبَّرت أسباب الكيد والتهديد والعقوبة إذا رفض، ثم جاءت تراوِدُه وتستميله وتحاول استدراجه، وتطلب الفاحشة تلميحاً وتصريحاً.

فكان كلُّ ذلك لا يؤثر في العفيف الطاهر، فبقي على عصمته وطهارته التامة، ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وكان منتبهاً في نفسه لرقابة الله وبصره وسمعه، فلم يغفل عن الله، فكيف يعصي بين يديه، وكيف يأتي شهوة محرمة وخائنة، فكتب الله له بذلك السلامة والحفظ، قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وذَكَّر المرأةَ المسعورة بأنه لا يمكن أن يخون سيده ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فكان حريصاً على العفة والفضيلة والأمانة، وكان كما وصفه الله عبداً صادقاً أميناً محسِناً مخلِصاً مخلَصاً مجتبىً بريئاً كريماً مُعلَّماً عليماً حفيظاً.

أهمية العفة، والتحذير من الشهوات المحرمة، وإثمها، وخطورتها على الفرد والمجتمع:

ـ أباح الله تعالى لنا بعض الشهوات، وأَذِن لنا بالتمتع بها، وجعل فيها مصلحة للبشرية ورحمة وتنعماً، فجعل فيها مصلحة التوالد وبقاء النسل وتكاثر البشرية، وجعل فيها رحمة الألفة وتعاون الأسرة والقرابة والعشيرة على أمور دنياهم وقضاء حوائجهم ورد البأس عنهم، وجعل فيها حماية الإنسان وتحصيناً له من الشهوات المحرمة والفواحش، وأمرنا أن لا نتعلق بهذه الشهوات المباحة، فلا نجعلها مراداً لنا ومقصداً من حياتنا، وإنما نأتيها موافقة لأمر الله ونستعين بها على ترك ما نهى الله عنه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ومع ذلك نبهنا أن ما في الآخرة خير من هذه الشهوات التي تزول مع زوال الدنيا وتنتهي بانتهاء الحياة، فقال سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وذم الله الذين جعلوا الدنيا مراداً ومقصداً وبين أنهم إلى عذاب وخسران، فقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

ـ وابتلانا الله واختبرنا بشهوات، فحرمها علينا، وحذرنا منها، وجعل عليها عقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل عقوبات شرعية للفاحشة، كما جعل عليها عقوبة فطرية، فمن وقع في الفواحش أصابه العقاب، قال رسول الله ﷺ: «ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانيةً إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»(١)، وقد رأينا في زماننا كثيراً من الأمراض

(١) حديث حسن، وصححه بعض العلماء، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٣٣١٥ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه الحاكم رقم ٨٦٢٣ بنحوه من حديث بريدة، وتمام الحديث عند البيهقي: عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس، وأعوذ بالله أن تكون فيكم، أو تدركوهن؛ ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يُعمَل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، [وفي رواية: الموت]، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائمُ لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجَور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم»، وأخرج نحوه البيهقي في شعب الإيمان =

الخطيرة المميتة التي تصيب أهل الفواحش والزنا واللواط والسحاق، مثل مرض الإيدز وغيره كثير وخطير، أعاذنا الله منها.

ـ وإنما تتحكم الشهوة بالإنسان نتيجة الجهل بخطورتها أو الغفلة عن مَضارِّها، ونتيجة الجهل بمقصد الحياة ومُرادِ الله من خَلْقِنا ووجودنا، وإذا تحكَّمت الشهوة بالإنسان دفعته إلى الفواحش، ودفعته إلى اللواط وأمثاله، ويصير مسرفاً في وقته وماله وأعماله، لأن صاحب الشهوة لا يضبط نفسه ولا يقف عند حد، وذلك هلاك الإنسان، كل ذلك بينه الله تعالى في قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، وفي قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

ـ وقد بين النبي ﷺ أنه ما من شيء أخطر من الوقوع في الشهوة بين الجنسين، فقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء»[(١)]، وأمرنا أن نتقي فتنة النساء باجتناب ما حرمه الله من نظر أو تعامل مع النساء، قال ﷺ: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[(٢)]، وهذه الأحاديث كما تحذِّر الرجل أن

= رقم ١٠٥٥٠ وابن ماجة رقم ٤٠١٩ عن ابن عمر، ولفظه في آخره: «ولم يَنقضوا عهد الله وعهد رسوله؛ إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم».

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٨٠٨ ومسلم رقم ٢٧٤٠ عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٧٤٢ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ينساق وراء هذه الفتنة، أو يَستدرِج المرأةَ إليها، هي أيضاً تحذِّر المرأة أن تكون فتنة، أو سبب فتنةٍ للرجل، أو تَستدرِجَه إلى الفتنة والشهوة.

ـ **والأضرار التي تنتج عن هذه الفتنة** كثيرة جداً، نجد منها كثيراً في واقعنا:

فمن ذلك زيغ الشباب عن أهدافهم التي تنفعهم وتنفع أمتهم في الدنيا.

ومن ذلك فشل كثير من الشباب في التحصيل العلمي.

ومن ذلك إضاعة الأوقات.

ومن ذلك صرف الأموال في اللهو والفساد.

ومن ذلك ضعف الإنتاج، والانحراف عن التفكير المثمر.

ومن ذلك الغفلة عن الله وعن الآخرة.

ـ ولما كانت هذه الفتنة أخطر فتنة، فمن اتقاها ونجا منها وحفظ نفسه من الشهوات؛ فقد قطع الشوط الأكبر في طريقه إلى الجنة، قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لَحْيَيْه ورجليه أضمن له الجنة»(١).

وأهم أسباب الحفظ والمناعة من فتن الشهوات؛ الحجاب من النساء، وغض البصر من الرجال.

فالشاب الذي يصرف بصره عن العورات والمثيرات؛ يكون في حماية من فتنة الشهوات، والشابة التي تحرص على الحجاب؛ تحمي نفسها، وتحمي قلوب الشباب وأوقاتهم وطاقاتهم وأموالهم، وتبعد الفتنة عنهم.

ـ الشهوة الحرام مَيْلٌ وانحراف واعوجاج وفساد، ولا يدعوك إلى ذلك إلا المجرمون، الذين حكمتهم الشهوات، ويريدون منك أن تخضع للشهوات.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١٠٩ عن سهل بن سعد ﷺ.

والله يريد منك العفة والطهارة والتوبة والاستقامة، ويريد منك أن تكون حاكماً لنفسك ونزواتك، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]، فالله يدلنا ويوفقنا إلى العفة والهداية، بينما الذين يتبعون الشهوات، مِن الكفرة والفجرة والمفسدين؛ يريدون أن يميل الناس وينحرفوا عن العفة إلى الفسق، وعن الحق إلى الباطل، وعن القصد والعدل إلى الجَور والظلم، والإنسان ضعيف، فإن لم يتمسك بأمر الله؛ وجد نفسه ضعيفاً لا يقاوِم الشهوات، ولا يملك أن يحمي نفسه من الانحراف والانجراف، فتظهر آثار كثيرة خطيرة من نتائج هذا الضعف، وهذه أهمها:

الآثار الخطيرة للشهوات:

إذا سيطرت الشهوات على الإنسان فإن لها فتنة كبيرة، وآثاراً خطيرة، على فكر الإنسان وخواطره، وعلى قلبه ونفسيته، وعلى عبادته، وعلى معاملته، وعلى سلوك الفرد والمجتمع والبشرية.

١. فهي تجعل الإنسان في سلوكه يبتعد عن مجتمعه وأرحامه وزوجته وأولاده، إذ يبحث عن مواخير الفساد، ونوادي الشهوات، ويطلب العزلة لممارسة الشهوات، وللبحث عن الصور الخلاعيات.

٢. وحينما تتمكن الشهوات تدفع صاحبها ـ ولو كان بخيلاً ـ إلى بذل الأوقات الكثيرة والأموال الطائلة لأجل الشهوة، ولمن يعينه على الشهوة، وقد يدخل بابَ السرقات والرشوات، لأجل تحصيل الأموال التي تعينه على الفساد والشهوة، وقد يدخل باب الخمر والمسكِرات والمعازف المحرمات، فهي الأدوات المرافقة للشهوات عادة، وقد يدخل ترويج

المخدِّرات لأجل المال، وليورط غيره في طريق الفساد، فيُخْضِعه لما يريد من رذائل وخساسات.

٣. ومن تَمَلَّكَتْه الشهواتُ وثارت عنده غرائز الجنس؛ فلن يكون له عبادة، ولن يكون له صلاة، ولن تكون له مساجد، ولن يَعرِف القرآن، ولا ذكر الله، ولا صيام ولا زكاة ولا حج، فشهوته تغلب عليه، وتنسيه ذكر الله.

وفوران الشهوة وحياة الإثارة لن تسمح لمن يريد أن يقوم الليل أو يصلي أو يقرأ القرآن أن يفكر في ذلك، فإذا فكر بذلك؛ فبمجرد ما يأتيه خاطر الشهوة يسوقه إلى البحث عن التعري والرقصِ والأفلامِ الإباحية وأسبابِ إفراغ الشهوات وتثويرها، ولو غالبَ نفسَه فيبقى في صلاته وتلاوته مشغولَ البال مسروق الذهن.

فالشهوات تقترن مع الضلال وترك العبادات، قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]، يصيرون في ضلال، فتضل أفكارهم عن مقصد الحياة، ويسعون في الحياة سعياً باطلاً.

٤. وقد يصل الفساد والضلال بأهل الشهوات إلى الإفساد والإضلال، إذا صاروا وُلاة وحُكّاماً، يفسدون في الأمة، ويحرفونها عن مسيرها، قال تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وكثيرٌ من بلادِ العالَمِ اليومَ يَحكُمُها أئمةُ الإفسادِ والإضلال، وقد بلغوا مبلغاً خطيراً من الإغواء والإفساد والإباحية، فهدموا قيمة الحياء، وجعلوا التبرج الفاحش والاختلاط والخلوة أموراً مباحةً مُعتادَة، واستباحوا الزنا واللِّواط والسِّحاق، وزنا المحارِم والشذوذ الجنسي، وجعلوها مشروعة بالقانون في كثير من دول العالم، وسهَّلوا أسباب هذه الفواحش، وجعلوا لها

نوادي وشـواطئ ورياضـات، وجعلوا طلب الصبايا والفتيـات للمال بعِرضها وشرفهـا وجمالها وجسـدها صَنعةً، وصنعـوا إعلاماً شـهوانياً، وأفلاماً إباحية، ومقاطع مصورة (فيديو كليبات) مثيرة، وأغاني ماجنة، ومسلسـلات تُسَلْسِـلُ القلبَ إلى الشهوة والمحرمات، وأغدقوا الأموال على أغاني المجون، واستعلنوا بالرقـص المتعـري على الملإ وأمام عموم الناس، فلا يخفونه ولا يسـتحيون منه، وأشاعوا ألوان الخلاعة والإغراء والإثارة، وأنشؤوا مواقع إباحية لصور النساء العاريـات، وللتواصل مع العاهرات، وأقحموا جسـد المرأة في كل شيء، حتى صـارت الإعلانات التجارية لا تخلو من مثيرات وعورات، جعلوا فيها جسـد المرأة خسيساً يُستخدم لترويج المبيعات.

٥. من الآثار الخطيرة للإثارة الشهوانية: أن الشاب يجد في التلفاز والانترنت جاذبية وإغراءاً، لا يستطيع مقاومتها، فيشاهد ويتابع البرامج المثيرة والمواقع الإباحية، ويعطيها وقتاً طويلاً، ومالاً كثيراً.

٦. وينتج عن ذلك رغبة قهرية غالبة، تستحوذ عليه لطلب اللذة الجنسية، والاستزادة منها.

٧. ويصير منشـغل الذهن و ومشـتت الفكر، بتخيل هـذه الصور المثيرة والخليعة.

٨. فيؤثر ذلك على طلبه للعلم وعلى شغله وعلاقاته.

٩. وتجد كثيراً من الشباب ابتلي نتيجة ذلك بالعادة السرية، بل والإفراط فيها، فلا يشبعه شيء، فالمثيرات حوله في كل ساعة.

١٠. ونجـد كثـيراً مـن الشـباب والرجـال صـار عندهـم ولـع ورغبة جامحة، وقد تصير لا إرادية وبلا اسـتحياء؛ للتطلع والنظر إلى المناطق الجنسية والأجسـام العاريـة، بـل نرى بعـض الرجال تمر مـن أمامه الفتـاة لا يقدر أن

يحوِّل بصره عن وجهها وجسمها، يريد أن يسرق نظرة من جمالها وجسدها، كأنما هو مسروق العقل.

١١. ومن نتائج هذا الفساد وصل بعض الشباب إلى التلصص على غرف النوم، والأماكن التي يمكن أن يرى فيها مشاهد مثيرة جنسياً.

١٢. كما يتحول بعضهم إلى مُفسِد فاجر، تصير عنده رغبة في إغراء الآخرين بهذه المثيرات، فيعرِّفهم عليها، ويَدُلُّهم على مصادرها، ويرسل صوراً إباحية عبر الهاتف المحمول والبريد الالكتروني، حتى سرى ذلك إلى طلاب وأطفال في عمر العاشرة وأقل من ذلك.

١٣. كلُّ ذلك يهدر طاقات أمتنا وأفرادها، ويهدر الأوقات والأموال، ويهدر القدرة على التفكير والتركيز، ويُضعِف الأداء الدراسي والوظيفي، ويجعل الإنسان غافلاً عن أهدافه النافعة.

١٤. وكثير منهم تصل به هذه الشهوات إلى توتر عصبي ومرض نفسي وقلق وإحباط، لأنه لا يصل إلى إشباع جنسي، فيصير من شدة المُثِيرات مَسعوراً، بل قد يمارس الشذوذ والقَرَف، لأنه لا شيء يشبعه.

١٥. ومنهم من تبقى فيه بقية حياءٍ، فلا يرغب أن يُرى على الفاحشة والشهوة، لكن الشهوة العارمة تغلِبه وتفضحه، فيحس بالفضيحة والذنب، ولا يقدر على إخفائه وستر نفسه، فيزداد قلقاً وألماً وعذاباً وانعزالاً.

١٦. ومنهم من يصل إلى حد الوقاحة والانفلات، فلا يبقى عنده من الحياء شيء يحفظ عليه حرمة نفسه وماء وجهه.

١٧. ونتيجة هذه الشهوات قد يقع الإنسان في الكبائر، من علاقات جنسية محرمة من زنا أو لواط أو سحاق، ويعرِّض نفسه لسخط الله وعذابه، أعاذنا الله وإياكم منها.

١٨ . ومع كل هذه الآثار السيئة ينعكس ذلك **بآثار عامة سيئة وخطيرة على المجتمع والبشرية:**

أولاً: الطالب الذي يتابع التلفاز ويسهر على المواقع الإباحية، لن يفلح في طلبه للعلم، فيتغيب عن دروسه، وينشغل فكره عن استيعابها، فكيف إذا كان المجتمع كله مشغولاً بشهواته، وكيف إذا كان الطالب يجلس بجنب الطالبة وهي تعرض مفاتنها وعورتها، فأي علم سَيُحَصِّل[١].

ثانياً: العامل الذي يسهر على الشهوات، سيكون أداؤه ضعيفاً، وسيتأخر ويتغيب عن دوامه، فكيف إذا كان جو العمل مختلطاً، يشغل فكر العامل، ويثيره في كل ساعة[٢].

ثالثاً: ونتيجة الشهوة والإباحية في كثير من دول العالم، وخاصة الغربي، بدأ يعزف الناس عن الزواج، ونتج عن ذلك **تزايد المواليد من الزنا،** حتى صارت نسبة المواليد من الزنا أكبر من مواليد الزواج في تلك البلاد[٣].

---

(١) تعترف بعض التقارير الغربية بأن المدارس والجامعات المختلطة، لا يستفيد الطالب فيها من التحصيل العلمي إلا ٤٠٪ مما يحصله الطالب في المدارس والجامعات غير المختلطة.

(٢) إحدى الدول الكبرى في العالم منعت المواقع الإباحية سنة ٢٠٠٨م، وفرضت على محركات الانترنت عقوبة كبيرة إذا سمحت بها، حينما وجدت أن الانتاج الاقتصادي العامّ بدأ يتراجع، وتلك الدولة تخطط وتعمل لتكون خلال عقود الدولة الاقتصادية الأولى في العالم، فأجرت بحوثاً واستبيانات، فاكشفت أن سبب التراجع هو تلك الشهوات والإباحية، التي لا يقاومها المجتمع الذي لا يملك إيماناً بالله والآخرة.

(٣) في بعض التقارير بلغت نسبة مواليد الزنا إلى مواليد الزواج ٥١ ٪ في عدد من البلاد الغربية سنة ٢٠٠٨م، وفي إحدى بلادهم بلغت ٥٣ ٪.

ونتج عن ذلك **إرهاق خزينة الدولة**، لأن الدولة مضطرة للإنفاق على مواليد الزنا وإيوائهم وتوظيف مربين ومشرفين عليهم وعاملين وحارسين، فتضطر الدولة أن تزيد الضرائب على الشعب، فبدلاً من أن ينفق الوالدان على ولدهما وينتفعا منه ويربيانه، ينفقان عليه مع عدم الانتفاع منه.

ونتج عن ذلك ضياع هؤلاء اللقطاء وإجرام كثير منهم، فالولد الذي لا يعرف والديه **فاقد لحنان الوالدين** وتربيتهما، كما **يفقد الولد الارتباط الأسري** الذي ينمي عنده المسؤولية والانتماء والأدب والضمير والمراقبة والخجل ممن حوله، فيخرج اللقيط أقرب إلى الإجرام والنقمة على المجتمع، فيتسبب في **زيادة كبيرة للجريمة والقتل والسرقة وسوء الخلق**، وتحتاج الدولة أن تخصص لمكافحة جرائمهم نسبة كبيرة من الخزينة، ترهق الاقتصاد العام(1).

وبهذا ترى كيف أن الافتقار الاجتماعي الناتج عن الثقافة التي تبيح الزنا والفواحش والتحلُّلَ الأسري؛ أدت إلى انحراف أخلاقي خطير وسيءٍ على تلك المجتمعات.

كيف نتخلق بالعفة، وما الذي يصنعها:

أولاً: الأساس الفكري الذي يُولِّدُ ويصنع خلق العفة:

هناك عدد من الحقائق إذا عرفها الإنسان وتَذكَّرَها؛ تكون سبباً في التحلي بخلق العفة، والحرص عليه:

١ . خلق العفة مبني على إيمان الإنسان أنه ليس حراً في الدنيا، فهو مُقيَّد بما يريده خالقه وخالق كل شيء، ولا يجوز أن يكون الإنسان عبداً لهواه وشهواته،

---

(١) تعترف بعض التقارير في بعض البلاد الغربية أن أكثر من ٩٠٪ من الجرائم هي من أبناء الزنا.

ولا عبداً لما يريده الناس والحكام والطغاة، ولا يجوز أن يحكم نفسه بما شاء، بل هو عبد لله ولا يحكمه إلا الله، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن المنطقي أن حرية الإنسان يقيدها مصلحة النفس والمجتمع، ومن ترك العفة آذى نفسه، وأفسد المجتمع.

والإنسان العاقل لا تغيب عنه هذه الحقائق، فيرى من الواجب عليه أن يضبط نفسه ويتعفف، رحمةً بنفسه وبغيره.

ـ ويعلم المسلم أن الله قَيَّدَ الشهواتِ لمصالح العباد، ليحفظ المرأة، وليحصن الرجال، وليرتقي بأخلاقهم وسلوكياتهم، وليحافظ على المجتمع من الرذيلة والفساد وسُعار الشهوة.

٢. والمؤمن يعلم أن دار الدنيا ليست للترفه والتمتع، وليست باقية ولا دائمة، وإنما هي اختبار وابتلاء وفتنة، وأحكام وتكاليف، وعن قليل تزول وتنتهي ويأتي الحساب وننقل إلى الدار الآخرة.

ومن علم ذلك لم يطمع بشيء حرمه الله عليه ويعاقبه عليه، ولم يتطلع إلى ما ليس له، ولم يستعظم شيئاً يزول، فيعف عن أعراض الناس وأموالهم.

وقد نبه الله تعالى إلى هذه الحقائق بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ومَن تذكَّر هذه الحقائق وتذكَّر معها أن الآخرة هي خير وأعظم وأدوم؛ فإنه يَعِفُّ ويصبر ويضبِط نفسه أمام المغريات والمثيرات من النساء والأموال وغيرها.

ـ ويعلم المسلم أن الله هو الذي خلق الجمال في المرأة، خلقه ليكون اختباراً فيما حرمه الله، وخلقه نعمةً ليتمتع به الإنسان فيما أحله الله، وليكون سبباً يدفع الرجال إلى الزواج والإنجاب وإنشاء أسرة متعاوِنة.

والعاقل لا يعاند الله في مراده، ولا يتعدى حدود الله، ولا يخالف الله في مقصود خلقه، فلا يستعمل هذا الجمال في غير ما يريده الله، ولا يدَّعي أن وجود الجمال يعني السماح بالتمتع به، بل يرجع إلى الله ليعلم ماذا يريد به، وماذا حكم علينا فيه.

وليس لشابة أن تنظر إلى جمالها أنه لِلعَرْض والإغراء لعموم الناس، وإنما هو اختبار لها، وعليها أن لا تُغْرِي به أحداً إلا زوجها بعد الزواج.

٣. ويعلم المسلم أن الشهوة الباطلة المحرمة التي يتلذذ بها؛ مآلُها ونتيجتُها عقوبة في الآخرة، فهي في حقيقتها عذاب ومرارة، وليست نعيماً ولذة، وغض البصر عما حرم الله وترك الزنا هو اليوم منع للنفس، لكنه غداً في الآخرة ثواب كبير ونعيم عظيم، والنظرة المحرمة وما يتبعها من المحادثة والمجالسة والزنا لذة ونعيم في الدنيا، يعقبها عذاب عظيم وندم كبير في الآخرة، والعاقل لا يقبل لذة ومصلحة صغيرة عاجلة؛ تُفوِّت عليه لذة أكبر ومصلحة أعظم آجلة دائمة.

فمن عرف هذه الحقيقة وتذكرها؛ فإنها تحجزه عن التفكير في الشهوات المحرمة، وتمنعه من اتباع الشهوات، أملاً في نعيم الجنة التي فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ.

وهذا ما نبه إليه النبي ﷺ بقوله: «حُفَّت الجنةُ بالمكارِه، وحفت النارُ بالشهوة»(١)، فمن أراد الجنةَ ونعيمَها فطريقُه فيه ما تكرهه النفس، وفيه مشقةٌ

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٢٢ عن أبي هريرة ﷺ وأخرجه البخاري عنه =

وتعبٌ وتكاليفٌ من الطاعات وترك المحرمات، في مدة الحياة، ثم يكون النعيم الدائم، ومن سلك طريق الشهوات والملذات المحرمة في الدنيا؛ فهي طريقه إلى النار والعذاب الكبير الخطير، أعاذنا الله منه.

ـ والمسلم يؤمن بالآخرة ويتذكرها ويتذكر أنه يعيش ليعمل للنجاة فيها، وهذا التذكر يجعله مخلصاً لله متفانياً في تحقيق أوامره، فلا يلتفت إلى شهوة حرمها الله، وكلما أكثر المسلم من تذكر الدار الآخرة؛ كان عمله لله لا لنفسه ولا لشهوته ولا لغيره، وذلك هو العفة بأعلى درجاتها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

٤. والمؤمن يعلم أن الله العظيم يراه، ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وذلك يدفع المؤمن إلى الحياء من الله، فيتعفف عن الوقوع في الرذائل والسفاسف بين يديه، ويحرص المؤمن على سمو النفس وطهارة التفكير وجمال السلوك، فيكون عبداً لله، لا عبداً لشهواته ولا يخضع لها.

٥. أعلمنا النبي ﷺ أن الإنسان يملك سبب العفة، وهو أن يطلبها

= رقم ٦١٢٢ بلفظ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره»، فالجنة محجوبة بما تكرهه النفس، فمَن تَحمَّل المكاره دخل الجنةَ، والنارُ محجوبة بما تشتهيه النفس، فمن ارتكب الشهوات دخل النار، قال النووي: «فَأَمَّا الْمَكَارِه فَيَدْخُل فِيهَا الِاجْتِهَاد فِي الْعِبَادَات، وَالْمُوَاظَبَة عَلَيْهَا، وَالصَّبْر عَلَى مَشَاقّهَا، وَكَظْم الْغَيْظ، وَالْعَفْو وَالْحِلْم وَالصَّدَقَة وَالْإِحْسَان إِلَى الْمُسِيء وَالصَّبْر عَنْ الشَّهَوَات، وَنَحْو ذَلِكَ، وَأَمَّا الشَّهَوَات الَّتِي النَّار مَحْفُوفَة بِهَا، فَالظَّاهِر أَنَّهَا الشَّهَوَات الْمُحَرَّمَة كَالْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالنَّظَر إِلَى الْأَجْنَبِيَّة وَالْغِيبَة وَاسْتِعْمَال الْمَلَاهِي وَنَحْو ذَلِكَ. وَأَمَّا الشَّهَوَات الْمُبَاحَة فَلَا تَدْخُل فِي هَذِهِ، لَكِنْ يُكْرَه الْإِكْثَار مِنْهَا، مَخَافَة أَنْ يَجُرّ إِلَى الْمُحَرَّمَة، أَوْ يُقَسِّي الْقَلْب، أَوْ يَشْغَل عَنْ الطَّاعَات، أَوْ يُحْوِج إِلَى الِاعْتِنَاء بِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا لِلصَّرْفِ فِيهَا، وَنَحْو ذَلِكَ».

من الله، فإذا طلبها المسلم صادقاً أعطاه الله إياها وأمده بها، فقال ﷺ: «ومَن يَستعْفِفْ يُعِفَّه الله»(١)، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣]، يدل على أن الذي لم يستطع الزواج؛ فإنه يملك العفة إذا طلبها وأرادها ورغب بها.

فالنفس مُستعِدَّة للشهوة، وقادرة على العفة، فمن أباح لنفسه الحرام وتعلَّق بالشهوات؛ غلبته نفسه وانحدرت به، ومن عرف الحرام وترفع عن الشهوات؛ ضبط نفسه، وسما في عزته ونزاهته.

٦. أعظم وسائل المفسدين التي يهدمون بها المجتمع(٢)، ويفسدون بها الإنسان؛ هي إضعاف العفة وتدميرها، وفتحُ باب الفتنةِ، والتوريطُ بالشهوات، وكل وسيلة توصل إلى ذلك يستدرجون الناس بها.

والزواجُ مِن أعظم أسباب العفة، لذلك يحاربه المُفسِدون، ويسيرون بالأمة إلى تصعيبه وتأخيره وإفساده، وكذلك يسعى الشيطان في إفساد العلاقة الزوجية.

فالشيطان يفرح بالتفريق بين الزوجين؛ ما لا يفرح بشيء آخر، لأنه يُخرِج الزوجين عن أهم سبب من أسباب العفة والتحصين، قال النبي ﷺ: «إن إبليس

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٦١ و ١٤٠٠ و ٦١٠٥ عن أبي سعيد الخدري ﷺ وحكيم بن حزام ﷺ وأبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم رقم ١٠٣٤ عن أبي سعيد ﷺ. ومما يدخل في معنى هذا الحديث ما ورد في قول النبي ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتَب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»، حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ١٦٥٥ والنسائي رقم ٥٠١٤ وابن ماجه رقم ٢٥١٨ وأحمد رقم ٩٦٢٩ والحاكم رقم ٢٦٧٨ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) وقد بينا فيما سبق خطورة الشهوة على المجتمع.

يضع عرشه على الماء[1]، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقْت بينه وبين امرأته، قال: فيُدْنِيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت، قال: فيَلْتَزِمُه»[2].

فواجب العاقل أن يحرص على أسباب العفة، ويحافظ عليها، وينتبه إلى وسائل الإفساد، ويقاومها، ليكون في حصن وأمان منها وعصمة منها.

وإذا وَرَّطَ أحدَنا أهلُ الشهوات في معصية؛ فلا ينبغي أن يسترسل معهم، ولا يُحقِّق غرضهم في استعباده وإذلاله، واستخدامه في مفاسدهم، واستدراجِه إلى ما هو أبعد، بل يجب أن يسارع إلى التوبة إلى الله، ويرجع إليه، ويعمل ما يرضيه، ولا يجعل خوفَه من الفضيحة سبباً في تماديه، فلأن يُفْضَحَ اليوم؛ خيرٌ من أن يُفضحَ يوم القيامة بذنوب أكبر، وخيرٌ من أن يأتي يوم القيامة جُنْدياً لأهل الباطل والكفر والفجور والفسق.

٧. مما يعين المسلم على العفة؛ أن يتذكر أن أعراض الناس كعرضه، فالعاقل الذي يعرف حق الأسرة والقرابة، ويعرف مكانتها وأهميتها؛ يجب أن يصون عرضه وحُرُمات نسائه، وكذلك الناس من أمثاله يحبون سلامة أعراضهم وعدم الاعتداء على نسائهم، فليتزم حدَّه كما يحب من الناس أن يلتزموا حدودهم.

وكما يحذر من الزنا بزوجته وإدخال مولود عليه ليس منه، فليحذر من أن يَعتدي على زوجات الناس ونسائهم، وأن يُدخِل عليهم مَن ليس مِنْ نَسَبِهم.

(١) وفي رواية: على البحر.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨١٣، عن جابر ﵁.

وقد نبه النبي ﷺ إلى هذا المعنى، فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، قال: فصاح القوم به وقالوا: مَه مَه[1]، فقال رسول الله ﷺ: أُدْنُهْ[2]، فدنا حتى كان قريباً من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، فقال رسول الله ﷺ: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، ثم ذكر مثل ذلك في العمة والخالة، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه»، فلم يكن بَعْدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[3].

ـ **هذه الحقائق التي ذكرناها إذا عرفها الإنسان**، واقتنع بها، واستقرت في عقله، وأكثَرَ من تذكُّرِها والتفكير فيها؛ حفظَ قلبَه من الميل إلى الشهوات، ومَن جهلها أو تغافل عنها أو نسيها، وقَصَرَ نظرَه إلى لذَّة الشهوات دون عقابها، ودون عظمة الشهوات الأخروية التي يُفَوِّتُها؛ وَقعَ في شِبَاكِ الشهوات، وانجرفَ إليها.

وهذا من معنى قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[4]، أي

---

(١) أي اسكت.

(٢) أي قَرِّبْ مني.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٢٢٦٥ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٦١ والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٥٤١٥ والطبراني في الكبير رقم ٧٦٧٩ عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٢٣٤٣ و ٥٢٥٦ ومسلم رقم ٥٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إنه غَيَّب حقائق الإيمان، فغاب ما ينبني عليها من عفة وسلوك مستقيم وعمل صالح، فلو كان ذاكراً لها؛ لما وصل إلى الزنا والفواحش والشهوات، فنور الإيمان يكشف للمسلم غرور هذه الشهوات، فلا يغتر بها، ولا ينخدع، ولا يتوهم.

وكلما كان المؤمن تالياً لكتاب الله ومتدبراً لآياته، وذاكراً لله ومتفكراً، ومجالساً للصالحين العلماء المذكِّرين؛ حَضَرَتْ عنده هذه الحقائق، فكان أقرب إلى العفة، وكلما ابتعد عن القرآن والذكر والصالحين؛ غابتْ عنه هذه المعاني، وسقط في الشهوات.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك.

ثانياً: الجانب العملي الذي يحقق العفة ويعين عليها:

أمر الله تعالى بتشريعات تحفظ المسلم من الشهوات ومن آثارها السلبية الخطيرة على الفرد والمجتمع، فأمر الله بستر العورات، وأمر الرجل والمرأة بغض البصر، وأمر المرأة بالحجاب، وأمر الجنسين بعدم الاختلاط إلا بضوابط، ونهى الرجالَ عن الدخول على النساء، وجعل الأصل في حياة المرأة القرارَ في البيت، فلا تخرج إلا لحاجة أو ضرورة، وأمر المرأة بعدم الخضوع في القول والتميع فيه أمام الرجال، ونهى المرأة عن السفر إلا مع زوجها أو ذي محرم، وحرم الزنا واللواط والسحاق، وأباح الزواج وندب إليه، وأوجبه عند الضرورة إليه، كلُّ ذلك وغيرُه من التشريعات لمصلحة الإنسان، وليبقى سليم النفس، طاهراً عن النزغات الشهوانية الجارفة، التي تجعله مريضاً، والتي تشغله عن مصلحته الحقيقية، وتبعده عن مقصده الذي خلق له.

فمَن عمل بهذه التشريعات وتأدب بهذه الآداب كان عفيفاً، وعمله بها يعطيه العفة إن لم يكن عفيفاً، ويكون سبباً في عفة الله له «ومن يستعفف يعفه الله»[1]، وإلى أهم هذه الآداب.

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٦١ و ١٤٠٠ و ٦١٠٥ ومسلم رقم ١٠٣٤.

من آداب العفيف

١. من أدب العفيف: **غض البصر**، بأن يصرف الإنسان بصره عن العورات والمحرمات التي أمر الله بعدم النظر إليها، سواء عورات الرجال أو عورات النساء، وذلك هو أهم وسيلة **لحفظ الفرج، وعدم الوقوع في الزنا واللواط**، لذلك جمع الله بين الأمرين، وبين أن ذلك أزكى للنفس وأطهر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وهذا الأمر ليس خاصاً بالشباب والرجال، بل كذلك جاء الأمر إلى النساء والفتيات أن تغض البصر، وتحفظ نفسها، فقال سبحانه في الآية التي تليها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[النور:٣١].

ومَن أراد العفة ولم يغض بصره؛ فكأنما يضع نفسه في النار، ثم يطلب منها أن لا تحرقه، فكن أيها الإنسان عاقلاً، واعقل شهوتك وقيدها بالصبر حتى تلقى الله، فهناك ما تشتهيه وخير مما تشتهيه.

٢. من أدب العفيفة: **حجاب المرأة**، تحفظ به نفسها، وتحفظ غيرها، من الفتنة والشهوة.

فرض الله الحجاب على النساء، ليكون جزءاً مع تشريعات أخرى في منظومة متكاملة لحماية المجتمع وحمايةِ المرأة، فمع فرض الحجاب؛ حَرَّم الزنا، وما يؤدي إلى الزنا، مِن نَظر بشهوة، وكلامٍ بإثارة، واختلاط بِتَفَلُّتٍ، ولمسٍ ومصافحةٍ، وخروج المرأة من البيت بلا حاجة أو ضرورة، وإذا خرجت لسفر تخرج مع زَوجٍ أو قريبٍ مَحْرَمٍ، وأوجب الله على الرجال الإنفاق على النساء،

حتى لا تضطر المرأة للاختلاط والتكشف والخروج من البيت، كل ذلك حتى لا تتعرض المرأة للفتنة، ولا تعرض الشباب والرجال للفتنة، فتبقى عفيفة في نفسها، وتُعِفُّ غيرها.

ـ أمر الله المرأة بالحجاب وعدم التزيُّن أمام غير زوجها وغير محارمها[1] من الرجال، وأقل الحجاب أن تستر المرأة جسمها ورأسها.

ولما كان **المقصود من الحجاب إعفاف المجتمع**؛ فلا بد أن يكون في الحجاب من المواصفات ما يمنع الفتنة وتحريك الشهوة تجاه المرأة، فلا بد أن يكون غير لافت للأنظار، ولا تميل النفوس إلى النظر إليه، ولا يجوز أن يكون واصفاً لجسد المرأة، ولا مجسماً لجسدها، كالبنطال، ولا مُلوَّناً بألوان تشد الأنظار، ولا مُعطَّراً يُرَغِّبُ بالاقتراب من صاحبته، وشَمِّ رائحتها، ولا شَفّافاً ولا رَقِيقاً ولا ضَيِّقاً ولا مُزخْرَفاً ولا مُزَرْكَشاً، فكل ذلك من الزينة التي حرمها الله، فاللباس الذي يُظهر معاني الجمال عند المرأة، واللباس الذي لا يحقق العفةَ لا يُعَدُّ حجاباً في الشريعة، وهو شكل بلا مضمون، وإن سماه الناس حجاباً.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا[2] وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ[3] وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ

(١) وسيأتي ذكرهم في الآية بعد قليل.

(٢) ﴿ما ظهر منها﴾: أي ما يظهر على الرغم من الحجاب واللباس، فذلك معفو عنه.

(٣) ﴿جيوبهن﴾: أي موضع الرقبة وأعلى الصدر، فيجب تغطيته مع الحجاب.

غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ (١) مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ (٢) عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ (٣) بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وحجاب المرأة يوفر بيئة مناسبة للعفة والفضيلة والتقوى والطاعة والخشوع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فأمر الله كل مؤمنة بالجلباب، حتى تَتَميَّز عن أهل الجاهلية، وتُعرَفَ أنها مسلمةٌ حُرَّة عفيفة، فلا يتعرض لها أحد، وهي بحجابها وجِلبابِها لا تُعرَف مفاتنُها، فلا يتطلع إليها الناس، ولا يؤذونها، لأن المفاتن إذا ظَهرتْ لا بد أن تثير كثيراً من الناس، وتثير أصحاب القلوب المريضة، فيتعرضون لها، أو يعتدون عليها، أو يستدرجونها، أو يشتهونها.

ـ وقد نهى النبي ﷺ عن صفات اللباس التي لا تحقق مقصود الحجاب، فعن عائشة رضي الله عنها: أن أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ دخلتْ على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ(٤)، فأَعرَضَ عنها، وقال: يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحِيضَ(٥) لن يصلُحَ أنْ يُرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفَّيه(٦).

---

(١) ﴿التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾: أي الرجل الأحمق أو الأبله الذي لا شهوة له تجاه النساء، ولا حاجة له بهن.

(٢) ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾: أي لم يصلوا إلى عمر تتحرك فيه الشهوة عند الصبي.

(٣) ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾: أي لا يتقصدن هز الأرجل بحيث يسمع صوت الخلخال الذي يلبس في الرجل.

(٤) (رقاق): أي رقيقة أو شفافة.

(٥) أي سن البلوغ، وهو حين يبدأ الحيض عند المرأة.

(٦) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤١٠٤ والبيهقي في سننه الكبرى رقم ٣٠٣٤ وأضاف: ثياب شامية رقاق.

وعن أسامةَ بنِ زيدٍ قال: كساني رسول الله ﷺ قِبْطِيَّةً[1] كَثيفَةً مما أهداها له دِحْيَةُ الكَلْبيُّ، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله ﷺ: مالَكَ لم تَلْبَس القِبطيَّةَ، قلت: يا رسول الله كَسوتُها امرأتي، فقال رسول الله ﷺ: «فَلْتَجْعَلْ تحتها غِلالةً[2]، فإني أخاف أنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظامِها»[3].

ـ والمرأة حينما تترك الحجاب كأنما تدعو الرجال إلى نفسها، وإلى الاعتداء عليها، فمَنْ كانت عفيفةً لا يمكن أن تكون هي السبب في إثارة الرجال والشباب، فالمنطق أن تتحجب لتحمي نفسها وتحميهم من التطلع إليها والرغبة بها على وجه محرَّم.

ـ والمسلم والمسلمة لا يجادلون في أحكام الحجاب، لأنها من عند الله، ومِن حق الله أن يأمر عباده وخَلْقه ما شاء، فهم مملوكون له، وهم خَلْقُه، فله أن يقيدهم بما يريد، وهو سبحانه ما قيدهم إلا بما فيه مصالحهم في الدنيا والآخرة، والمسلم يعلم أنه ليس من حقه أن يعترض على الله ولا أن يكره أوامره، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فالمؤمن مستسلم لله وأمره، لا يجد في قلبه انزعاجاً من أي تكليف رباني.

---

(١) (القِبطية): ثياب من مصر، ويقال: قُبطية بالضم.

(٢) (غِلالة): ثوب رقيق يلبس تحت الجلباب أو الثياب التي تظهر بها المرأة، فيكون كالبطانة للثوب.

(٣) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٢١٨٣٤ ومن غير كلمة «حجم» في البيهقي في سننه الكبرى رقم ٣٠٧٩ والطبراني رقم ٣٧٦، وهذا الحديث يشهد من حيث المعنى لحديث ضعيف يدل على ترك الرقيق من الثياب، أخرجه مالك في موطئه رقم ١٦٤٥ والبيهقي في سننه رقم ٣٠٨٢ عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه رضي الله عنها قالت: دخلتْ حفصةُ بنت عبد الرحمن على عائشة عليها خمارٌ رقيق، فشقَّتْه عائشةُ وكَسَتْها خماراً كثيفاً.

ولا تنظر المرأة المسلمة إلى أن الحجاب يقيدها أو يضيق عليها أو يؤذيها في الحر، وإنما تتحمل ذلك لأنها تعلم أن لها به أجراً عند الله، وتعلم أن مصلحتها ومصلحة جميع البشر في حجابها.

ـ ولا يختص الحجاب بالمرأة الكبيرة، بل الفتاة والشابة أولى به، لأن فتنتها وجمالها أكبر، ويجب تربية البنت والصبية على الحجاب من صغرها، لأن الفتنة والعورة تنمو مع نمو البنت، فلا يصح أن نتهاون في إظهار فخذ الصبية أو الطفلة أو صدرها أو بطنها لغير ضرورة، ونُعلِّمها ستر العورة من سن السابعة كالصلاة، ويزداد الحرص على ستر عورتها كلما كبرت، ولا يقال: إن الحجاب يجب مع البلوغ، فإن مفاتن كثير من البنات الصغيرات غير البالغات قد تكون ظاهرة ومثيرة، فيجب سترها إعفافاً للمجتمع، وحرصاً على عِرْض البنت وحماية لها.

ـ والذين نراهم يطالبون بخلع الحجاب، بِاسْمِ تحرير المرأة، هؤلاء لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بحق الله، يدعون أنهم يعطون المرأة حقها وحريتها في ترك الحجاب، وهم لا يعطون الله حقه في أن يأمر خلقه بما شاء، فهو حاكمهم ومالكهم.

وهؤلاء الذين يريدون تجريد المرأة من ثيابها وعفتها، إنما يريدون إظهار مفاتن المرأة، ليصلوا إلى شهواتهم، وليتخذوا المرأة سلعة مباحة لهذه الشهوة المحرمة المنفلتة.

وهم أنفسهم إذا كان الواحد منهم يملك شركة أو مصنعاً يقيد عماله ويقيد حريتهم ويفرض عليهم ما يريد من نظام ولباس ودوام، بينما يرفضون أن يقيد الله عباده بما يريد من لباس أو نظام، أليس ذلك من التكبر على الله وعلى الخلق، والله أحق بأن يحكم عباده ويقيدهم، فهو صاحب الفضل في كل شيء،

وهو خَلَقَهم، ووَظَّفَهم في عبادته، وهو أعلم بهم وبما يُصلِح شؤونهم، وهم ملكه ومع ذلك يعطيهم الأجر والثواب والجنة على طاعته وعبادته.

وقد وصل الحال بالمفسدين في زماننا أن يجعلوا جسد المرأة سلعة، فهو يستخدم لترويج السِّلَع والبضائع، فيجعلون مفاتن المرأة وصورها الخليعة وسيلة للدعاية وأداة للتجارة، فتكون المرأة بذلك أدنى من السلعة عندهم، فهُم يَدَّعون كذباً إكرام المرأة واحترامها.

ـ ولا يجوز لأحد من المسلمين أن ينكر فرض الحجاب، لأنه ثابت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والأمر به واضح، وعليه أجمعت الأمة بسَلَفِها وخَلَفها.

ـ ومن أنكر أن الحجاب فرضٌ؛ فقد كفر، لأنه كذَّب حكم الله الواضح، أما مَنْ تَركتِ الحجاب مع اعترافها بأنه فرض؛ فقد ارتكبت بذلك معصية كبيرة، وهي آثمة، وتستحق عقاب الله، وقد ارتكبت مع كبيرة ترك الحجاب معاصي أخرى تزيدها إثماً، فهي عاصية بمجاهرتها بهذه المعصية، إذ لا يتحقق ترك الحجاب إلا أن يكون أمام الناس، وهي عاصية بكونها سبباً في فتنة الناس وإفسادهم، إذ تكون سبباً في النظر إلى ما حرم الله أو سبباً في الرغبة في الفاحشة، كما أنها بتركها للحجاب تشجع المجتمع على هذه المعصية وتروِّج للتهاون فيها.

ـ ومن أدب المرأة العفيفة المؤمنة أن لا تتساهل في ترك الحجاب في أي ظرف كان، فلا تتركه عند باب دارها، ولا تتركه في يوم عرس، ولا تتركه في رحلة، أو غير ذلك من الحالات التي يجب أن تلتزم بالحجاب فيها، فالمسلمة لا تخرق مبدأ العفة في أي وقت، ولا تخالف مقصد ربها وتشريعه.

٣. ومن أدب أهل العفة: **عدم تساهل النساء في الزينة أمام الأقارب والنساء، وعدم تساهل الرجال في العورة أمام الرجال:**

فالزينة[1] التي أذن الله تعالى للنساء أن تُظهِرها أمام أقاربها ونسائها؛ هي الزينة العادية، كإظهار الكَفَّيْن والذِّراع والقَدَمين والسَّاق، والوجه وشعر الرأس والرقبة، وكتمشيط الشعر، وإخفاء عيب في الوجه كحبوب وبثور، ولبس حُلِيٍّ في الرقبة أو الأذن أو الرسغ أو خلاخيل الرجلين.

أما الزينة الزائدة، كحمرة وألوان ومناكير، وإظهار أعلى الصدر والظهر والكتفين والركبة، ولبس الضيق أو الشفاف؛ فذلك لا يجوز إلا للزوج، ولا يجوز للأقارب ولا للنساء.

وتَساهُل النساء في ذلك أمام الأقارب في زماننا أدى إلى كثير من حالات الفتنة والشهوة في البيوت وبين الأقارب، وأدت أحياناً إلى زنا المحارم، واعتداء بعض الشباب والرجال على أخواتهن وبناتهن.

وتَساهُل النساءِ في الزينةِ والتكشُّف أمام النساء، والتثني والرقصِ الخليع الفاتن، واللباسِ الرقيق والضيق والقصير؛ أدى في زماننا إلى تزايد حالات الشهوة المحرمة بين النساء.

فواجب المسلمة أن لا تتساهل في هذه الأمور، وأن لا تُقلِّد المجتمع، فيما يتهاون فيه من أمر الله، وفيما يضيِّع من شأن العفة، وأن لا تبرر لنفسها التساهل بحجة أن النساء جميعاً يفعلن ذلك، فالمقياس هو أمر الله، وليس فعل الناس.

ـ وقد تساهل الشباب فيما بينهم في زماننا بالرقص الخليع فيما بينهم، وذلك لا يجوز، إنما أجاز بعض الفقهاء الدبكة بين الرجال، ورقص السيف والتُّرْس، ونحو ذلك، وليس أكثر من ذلك.

---

(١) الزينة التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ...﴾ [النور: ٣١].

وكذلك لا يجوز رقص النساء لبعضهن إلا كالدبكة، من غير توسع إلى درجة التثني الذي يلفت إلى المفاتن.

ـ وكما حذر النبي ﷺ من إظهار العورات على الجنس الآخر؛ حذر من تساهل كل جنس بإظهار عورته على جنسه، أو ملامسته له، ليكون ذلك حامياً للرجال من الوقوع في فاحشة اللِّواط، وحامياً للمرأة من الوصول إلى فاحشة السِّحاق، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي(١) الرجلُ إلى الرجلِ في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثوب الواحد»(٢).

ـ ولا يجوز للآباء والأمهات خلع اللباس وتغييره أمام الأبناء والأطفال، ولا تغيير النساء أمام النساء ولا الرجال أمام الرجال، إذا كان يظهر شيء من العورة عند التغيير.

ـ ويجب على الوالدين تربية أولادهما على **عدم إظهار العورات على بعضهم** في كل حال، لا سيما في البيوت، حين تغيير الثياب، أو حين دخول الحمام، أو حين الاغتسال، أو في النوم، فيحمل الصبي ثيابه إلى الحمام، وكذلك الفتاة، ولا يغتسل الصبي مع الصبي في موضع واحد، ولا الفتيات، ولا الطفل مع الطفلة، ويغيِّر الأولاد ثيابهم بحيث لا يرى أحد عوراتِهم، إما في غرفة فارغة، أو بِلبس ثوب فَضْفاضٍ يُغَيِّرُ ثيابَه تحته.

٤. من أدب أهل العفة: **تجنُّب الملامسة والمصافحة بين الجنسين**، إلا ما

---

(١) «لا يفضي»: لا يصلُ إليه في ثوب واحد أو تحت غطاء واحد، ولا يلامس جسده ولا يباشر بشرته، والمقصود أن لا يضطجعا متجردين تحت غطاء واحد.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٧٢ ومسلم رقم ٣٣٨ عن أبي سعيد ﷺ.

أباحه الله، وقد أباح الله تعالى للرجل ملامسة زوجته، وأباح مصافحة الأقارب المحارم[1].

جعل الله تعالى بين الجنسين جواذب، لتكون سبباً في الرغبة في اللقاء ـ بالزواج الحلال ـ لأجل التناسل، ولتكون اختباراً فيما وراء ذلك.

وحينما حرم الله النظر إلى الأجنبيات؛ فقد حرم اللَّمْس وما هو أشد منه، فقد حرم الله النظر وأمر بِغَضِّه؛ فكيف لا يكون اللمس محرماً، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠].

ويستثنى في ديننا حالات الضرورة، كالطبابة وأمثالها، فيجوز النظر واللمس قدر الضرورة، مع وجود زوج أو مَحْرَم أو نساء.

والنبي ﷺ وهو أعف الناس وأطهرهم، يُعلِّمنا أنه لا يجوز التساهل في اللمس والمصافحة، فعلى الرغم من أنه بايع النساء الصحابيات، فقد بايعهن كلاماً لم يمس واحدة منهن، فعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن النساء المهاجرات، فمن كانت مهاجرة وأقرَّت بشرط البيعة[2]، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتُكِ»، كلاماً يُكلِّمها به، والله ما مَسَّتْ يدُه يدَ امرأة قطُّ في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله[3].

---

(١) الذين سبق ذكرهم في الآية، الذين يجوز مصافحتهم، ولا يجب الاحتجاب الكامل أمامهم؛ وهم الأب والجد، والابن والحفيد، والأخ وابن الأخ وابن الأخت، والعم، والخال، وأبو الزوج، وأبناء الزوج، وزوج البنت، وهناك محارم من الرضاع، مثل ذلك.

(٢) وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقوله: ﴿ببهتان﴾: أي لا يأتين بولد من الزنا، ليس من أزواجهن، فينسبنه إليهم.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٢٥٦٤ ونحوه عند مسلم رقم ١٨٦٦.

وقد طلبت امرأة من النبي ﷺ أن يبسط يده فيصافحهن ليبايعنه، فقال ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة»(١).

والرجال الذين يدّعون أنهم لا يتأثرون بالمصافحة والنظر؛ يكذبهم العلم والواقع، فالنواحي النفسية والفسيولوجية والغرائزية في الرجل والمرأة تضطرب وتتأثر وتثور حينما تحصل الملامسة والنظر بين الجنسين، والله تعالى هو الذي خلق ذلك في النفس الإنسانية، وأمرنا بتجنب ذلك، ليختبرنا فواجبنا الطاعة لله، والحذر من المصافحة والملامسة للنساء.

وقد عبر النبي ﷺ عن خطورة اللمس على النفس الإنسانية، حينما بين أن طعنة في رأس الإنسان خير من طعنة الشهوة التي تأتي بسبب اللمْسِ والمَسِّ للنساء، فقد قال ﷺ: «لَأَنْ يُطعَنَ في رأسِ أحدكم بمِخْيَطٍ من حديدٍ خيرٌ له مِنْ أن يَمَسَّ امرأةً لا تحل له»(٢).

والمؤمن حينما يترك المصافحة للمرأة؛ لا يفعل ذلك تكبراً على المرأة أو احتقاراً لها أو تأففاً منها، وإنما يفعل ذلك إكراماً لها، وإجلالاً لها من أن يستعملها لشهوته بدعوى الاهتمام.

٥. من أدب العفيف: **الحذر من الحب الشهواني** قبل أوانه.

يجوز للذكر أن يحب الأنثى حباً شهوانياً ويتعلق قلبه بها؛ حينما يعقد عقد

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٧٠٥٥ والنسائي رقم ٤١٨١ وابن ماجة رقم ٢٨٧٤ وابن حبان رقم ٤٥٥٣ عن أميمة بنت رقيقة، وأخرجه الترمذي رقم ١٥٩٧ من غير العبارة الأولى، وأخرجه أحمد رقم ٢٧٦٣٥ عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها بلفظ: إني لست أصافح النساء...

(٢) حديث حسن، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٢٢١ رقم ٤٨٦ عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

الزواج عليها، لأنه صارت مباحة له، وهي كذلك يجوز لها أن تتعلق به وتحبه بعد العقد، حينما صار مباحاً لها.

أما قبل ذلك فلا يجوز لأحدهما أن يشتهي الآخر أو يتعلق به، حتى في فترة الخطبة، فإن أحدهما يحب زواج الآخر ويريده، لكنه لا يتوجه بالشهوة نحوه.

فالمسلم ينتبه إلى هذا الأمر، فلا يسمح لنفسه التجاوز والتساهل والحديث والمغازلة بحجة الرغبة في الزواج، أو بحجة أنه خطبها وستكون زوجته، فالتساهل في ذلك قد يؤدي إلى المعاصي والخلَوات، وربما يوقع في الزنا والفاحشة.

وقد يكون الشاب عفيفاً حريصاً على ترك الشهوات، عفيفاً عن النظر إلى النساء، حذِراً من الحديث الذي يؤدي إلى استمالة القلوب وإشعال الحب، وهو يرغب بزوجة صالحة يتزوجها، فيجد فتاة تتصف بما يريد، فيتساهل في العلاقة معها، ويسترسل في الحديث والنظر والتواصل والمجالسة والمراسلة، فيستعجل الشهوة بينه وبينها، ويقع في المحظورات، وربما تسوقه نفسه إلى فاحشة الزنا أو قريباً منها، من حيث يظن نفسه يسلك مسلك الحلال.

وفي بعض الحالات يستعجل الشاب والشابة لمثل هذه التصرفات، قَبْلَ الخِطبة، وقَبْلَ عِلم الأهل من الطرفين، وقبل معرفة مطالب كل من الطرفين، ومدى استعداد كل منهما لها، فيقعان في الحب على الرغم من احتمال عدم القدرة على إتمام الخِطبة والزواج.

والعفيفة إذا أُعجب بها شاب وخطبها، فأُعجبت به ورَضِيَتْه زوجاً للمستقبل، فذلك مبرر لحب الزواج منه، وليس مبرراً لحبه الحب الشهواني أو التعلق به قبل عقد الزواج.

أما الحب الإيماني فهو الذي يرتبط بالإيمان والعمل الصالح، فلا يبرر توجه النفس بالميل إلى المحبوب على سبيل الشهوة.

٦. من أدب أهل العفة: **ترك الاختلاط والدخول على النساء**، فالأصل في حياة المسلمين أن يكون هناك نوع من الحاجز بين الجنسين، إلا في الحدود المباحة للزوج وقرابة النسب والمصاهرة والرضاع، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخولَ على النساء»، فقال رجل من الأنصار: أفرأيتَ الحَمْوَ[١]؟ قال: «الحموُ الموتُ»[٢]، فلا يتساهل المسلم بمجالسة النساء والدخول عليهن بحجة القرابة، ممن تكون من غير المحارم[٣]، فلا يخالطُ الرجلُ ولا يجالس بنت عمه أو بنت عمته، أو بنت خاله أو بنت خالته، أو أخت زوجته، ولا تخالط المرأةُ ولا تجالسُ ابنَ عمها أو ابن عمتها، أو ابن خالها أو ابن خالتها، أو أخا زوجها، وأمثال هؤلاء من الأقارب ممن ليسوا من المحارم، ووصف النبي ﷺ دخول هؤلاء على هؤلات بأنه الموت، أي الخطر الأعظم، لأن المُلْتزم قد ينعزل عن النساء تركاً للحرام، ويتساهل في الاختلاط مع الأقارب، مبرراً لنفسه الاختلاط بدعوى القرابة وأنهم عِرْضُه، فإذا اختلط بهن؛ دخلت الشهوة والتعلق بما يرى من جمال وزينة وبما يسمع من كلام يتساهلون فيه باسم الجلسة العائلية، ويستدرجه الشيطان، وقد يقع في الفاحشة والزنا.

---

(١) (الحَمْو): قريب الزوج كأخيه، وابن أخيه، وابن عمه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٩٣٤ ومسلم رقم ٢١٧٢ والترمذي رقم ١١٧١ عن عُقْبَةَ بن عامر رضي الله عنه.

(٣) المحارم: هن اللواتي لا يجوز للإنسان أن يتزوج منهن؛ لقرابة أو رضاع أو مصاهرة.

وإذا اضطر المسلم أن يختلط بالمسلمة؛ فيجب:

أ. أن لا يكون ذلك مع خلوة لوحدهما، وإنما يكون مع المرأة محرم أو زوج أو أشخاص آخرون.

ب. ألا يكون في الكلام إثارة ومُيوعة وتَدلُّع وتَغنُّج وخضوع وزيادة تأنث، أو تنعيم للصوت.

ج. ألا يكون نظر بين الطرفين إلا بقدر الضرورة.

د. أن يكون مع الحجاب الساتر العفيف، وستر العورات وكل ما يثير الطرف الآخر.

هـ. أن تكون هناك ضرورة للاختلاط، فلا يجوز أن يصير الاختلاط طبيعياً ومعتاداً.

ـ والمسلم العفيف والمسلمة العفيفة يحرصان على بيئة نظيفة طاهرة، لا اختلاط فيها، ويجب على الأمة الإسلامية أن ترتب أمور الدراسة والعمل بحيث تكون بغير اختلاط ولا فتنة، إلا بقدر الضرورة، وفي حالات الضرورة تكون مع مراعاة ما ذكرنا من ضوابط.

ومن ابتلي بأجواء الاختلاط في الدراسة أو العمل أو غيره يسعى للتخلص من ذلك في أسرع وقت، أو يجتهد في حفظ نفسه وحمايتها من الوقوع في طريق الشهوات والفواحش.

ـ ومن الدخول المحرم على النساء: دخول العريس على النساء في العرس، ليلبس زوجته الذهب أو ليرقص معها أمام النساء، وذلك عادة غير إسلامية ولا عفيفة، فهي عادة من عادات الكافرين، ورقص الرجال أمام النساء حرام، كرقص النساء أمام الرجال، ووضع الذهب في يد الزوجة أمر يخص الزوجين؛

لا ينبغي أن يكون أمام الناس أو بالدخول على النساء، وهذا الدخول هو صورة من صور الوقاحة والسفاهة وقلة الدين، وهذا الفعل يدخل في نهي النبي ﷺ: «إياكم والدخول على النساء»، وهو كمن يكون عند زوجته ضَيْفات فيدخل عليهن، ويجلس معها أمامهن أو يرقص معها أمامهن.

٧. من أدب أهل العفة: **عدم الخلوة بين الرجل والمرأة**، فالخلوة بين الجنسين تلغي أهم حواجز العفة، ويَسهُل على الشيطان الوسوسةُ بالشهوة والفاحشة، وتَضعُف النفس عن مقاومة دواعي الشهوة، قال ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم، فقام رجل فقال: يا رسول الله، اكتتبت في غزوة كذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجَّة، قال: اذهب فحُجَّ مع امرأتك»(١).

وقال ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما»(٢).

٨. من أدب أهل العفة: **الحذر الشديد من السقوط في الزنا** ولو مرة واحدة، فإن مَنْ يَقعُ في الزنا، ذكراً كان أو أنثى؛ يمكن أن تختل حالته النفسية طول عمره، فيحس بالنقص والإساءة، وعدم القدرة على استدراك وإصلاح ما أفسد.

كما قد يتسبب في مولود حرام، يعيش بلا أب ولا حنان، بسبب جريمة الزنا التي جاءت به.

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٨٤٤ ومسلم رقم ١٣٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٧٧ والترمذي رقم ١١٧١ والحاكم رقم ٣٨٧ وابن حبان رقم ٥٥٨٦ و ٦٧٢٨ و ٧٢٥٤، بعض هذه الرويات عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وبعضها عن جابر بن سمرة ﷺ، وبعضها عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

كما تسقط الزانية ويسقط الزاني عند ربه، فيحتاج إلى توبة صادقة، ومع ذلك قد لا يرجع كما كان حاله، وإن أراد التوبة فَتَحَتْ عليه باب النَّدم الشديد الطويل، فليحذر كل شاب من أن تستدرجه بائعة هوى، ولتحذر كل شابة من أن يستدرجها ثعلب ماكر أو ذئب مخادع من الرجال، بكلمة حسنة أو ضحكة أو غمزة، أو وعد كاذب، أو مال رخيص، وينبغي أن يشتد حذرنا في زمان كثرت فيه الفاحشة، كما أخبر النبي ﷺ إذ قال: «إن من أشراط[١] الساعة أن يُرفع العِلْم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويَقِلَّ الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القَيِّمُ الواحد»[٢].

٩. من أدب العفيفات: السلوك الأديب المنضبط، **بعدم التمايلِ أو التحركِ بطريقة ملفتةٍ للنظر، ومثيرةٍ للشهوة، ومُظهِرةٍ للمفاتن**، فالتمايل يُمِيل القلوب إلى الشهوات والحرام، كما قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أَرَهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ[٣]، مِمُيلاتٌ مائلاتٌ[٤]، رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُخْتِ المائلةِ[٥]، لا يدخلن

(١) أي علاماتها ودلائل قربها.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٩٣٣ عن أنس رضي الله عنه.

(٣) (كاسيات عاريات): أي تلبس ولكنها تظهر بعض عورتها، إظهاراً لجمالها، كأن تلبس ثوباً رقيقاً أو ضيقاً يصف لون بدنها أو شكلها، أو تكشف رأسها أو بعض صدرها ويديها ورجليها.

(٤) (مائلات مميلات): أي مائلات عن العفة والحق، أو مائلات في حركتهنّ ومِشيتهن، فيتسببن بميل قلوب الشباب والرجال إليهن.

(٥) (البُخْت): هي الإبل، وسنامها: أعلى ظهر الجمل، وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ قد وقع، وصدق رسول ﷺ، فمن الموضات التي اشتهرت في زماننا، بأن تكشف الشابة رأسها، وتُظهر شعرها، تُمَشِّطُه بحيث يكون له كشكل السنام على رأسها.

الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1]، فالمسلمة لا تُظهِر مفاتِنَها إلا لزوجها، ولا تتمايل ولا تتراقص إلا لزوجها، فهو الذي يحل لها أن تستميله، وينبغي عليها أن تتزين له وتغريه، لتحصنه وتعطيه حقه من الاستمتاع، لأنه الوحيد الذي يحل له أن يشتهيَها، ويقضي شهوته منها.

وحجاب المرأة الشرعي العفيف هو الذي يوفر البيئة المناسبة للعفة وسَتْرِ المَفاتِن، ولا يمكن لمجتمع تُظهِر فيه المرأة مفاتنها إلا أن تثير كثيراً من القلوب المريضة تجاهها فيعتدون عليها.

١٠. ومن أدب العفيفة: أن **لا تستميل قلوب الرجال بصوتها وكلامها،** فتحرص على نزاهة كلامها عن كلمات الإثارة، وخلوِّ صوتها من التَّغَنُّج، كما تحرص على إخفاء الأنوثة الزائدة في صوتها إن أمكنها ذلك، ولا تفتح باب الضحك والمزاح، لأنه يؤدي إلى زيادةٍ في التأنُّث وتنعيم الصوت وإمالة القلوب المريضة، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وإذا أُمِرَتْ بذلك أمهاتُنا أمهاتُ المؤمنين؛ فمن بابٍ أَوْلى أن تحرص على ذلك كل نساء المؤمنين.

والآية تتحدث عمن يطمع بالشهوة وفي قلبه مرض في زمن النبي ﷺ، فكيف في زماننا، لذلك نُحذِّر أخواتِنا الفتيات من التساهل في الحديث مع الشباب والرجال، فبعض الشابات اليوم تتكلم بحرية وبلا قيود ولا أدب ولا انضباط مع الشباب، وهي تدَّعي أنها تحافظ على نفسها، وتظن أنها كما لا تتأثر بحديث الشباب؛ فهم لا يتأثرون بكلامها، وبعض الشباب يحاول أن يُشعِرَها بذلك ويُوهِمَها بعفته وعدم تأثُّرِه، وفي الواقع قد يكون فيهم من يَتَصَبَّبون عليها

(١) أخرجه مسلم رقم ٢١٢٨ عن أبي هريرة ﷺ.

وعلى صوتها وحديثها، وتغلي الشهوات في نفوسهم، ويكتمونها، وينتظرون الساعة التي تأمن لهم؛ لِيَسْتَجِرُّوها إلى مزيد من الشهوات والفاحشة، والانزلاق إلى مسالك أهل المجون والانفلات والإفساد.

ـ وعلى الرجل العفيف إذا وَجَد ضرورة إلى الكلام مع النساء أن لا يَتخذَ من ذلك وسيلة أو حجة للنظر إليها أو الخلوة بها أوالكشف عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

١١. من أدب العفيف: **تقليل الطعام، والإكثار من الصيام**، إذا وجد الشاب في نفسه ثوراناً للشهوة، فقد نصح النبي ﷺ بذلك العُزّاب من الرجال والنساء، حينما يجد الواحد منهم نفسه محتاجاً إلى الزواج، ويخاف على نفسه من الشهوات، ولم يتيسر له أسباب الزواج، فقال ﷺ: «من استطاع الباءة[(١)] فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[(٢)]، أي فالصوم حافظ له من شهوته، فتخفيف الطعام له أثر كبير في العفة وإضعاف الشهوة ومنع ثورانها، ولا تتم فائدة الصيام في علاج الشهوة إلا إذا قلل الصائم من الطعام في إفطاره وسحوره، فلو صام في النهار وأكل الطعام الكثير في الليل سيجد أن الشهوة تزداد، فلا بد أن يبقى الشاب على حالةأن أقرب إلى الجوع حتى تخبو الشهوة.

١٢. من أهم الأمور التي تصنع العفة وتعين عليها: **الزواج**، لذلك أمر الله بزواج العزاب، ولم يجعل ذلك مهمة الأعزب وحده، بل وجه الأمر إلى المجتمع كله، ليسعى في تزويج العزاب وعونهم على تكاليفه، لأن زواج

(١) أي تكاليف الزواج كمهر وتجهيز مسكن ونفقة على زوجة.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٨٠٦ ومسلم رقم ١٤٠٠ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

العزاب صلاح للمجتمع كله، وحماية له، وليس حمايةً للأعزب والعَزْباء وحدهما، قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ (١) مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٢]، وبينت الآية أنه لا يجوز لنا أن نجعل الفقر عائقاً دون الزواج، فالله تكفل بالرزق والفضل والزيادة من عنده.

وقد بين النبي ﷺ في الحديث السابق أن الزواج هو أعظم ما يعين على غض البصر وتحصين الفرج، فقال ﷺ: «فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»، وهذان الأمران بهما تحصل العفة والحماية من الشهوات المحرمة.

ـ والزواج كما هو سبب في عفة الإنسان؛ فهو من أعظم أسباب تزكية النفس، فالمتزوج حينما يأخذ شهوته بالحلال؛ يَستعِفُّ بها عن الحرام، وتذهب خواطر الشهوة التي تشغل بال الإنسان، وتعكر عليه عباداته ومزاجه وسلوكه وأعماله، فإذا ارتاح قلب الإنسان من الشهوات؛ صار الاستعداد للطاعة والخير جاهزاً وكبيراً، لذلك كان الزواج يجعل الزوج كأنه قد ملك نصف دينه(٢).

ـ ومن المنطقي أن يكون الزواج عند الحاجة إليه، وفي السن الذي يُحتاج إليه فيه، فإذا بلغ الإنسان سن الشهوة والمُراهَقة، ولم يكن قادراً على ضبط نفسِه وخواطرِه ونَظَرِه، فالواجب أن يسارِع إلى الزواج عند ذلك، بغض النظر عن عُمرِه، فالوضع الطبيعي والفِطري والمنطقي أن يكون الزواج في السِّن الذي

(١) الأيامى: هم من لم يكن متزوجاً، سواء كان ذكراً أو أنثى، وسواء كان متزوجاً من قبل أم لا.
(٢) روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي»، حديث حسن، أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٧٦٤٧ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وضعفه بعض العلماء.

تبدأ تدخل الشهوة فيه إلى نفس الشاب والفتاة، وفي العُمُر الذي تثور فيه الشهوة وتفور(1).

وتأخير الزواج عن هذا السِّنِّ هو من أعظم أسباب انفلاتِ الشباب والفتيات وفسادِ المجتمع.

ولا يجوز للمجتمع أن يتعلل بالفقر والمهر، ولا أن يَجعل الدراسةَ وتكاليفَ العرس وتجهيزَ المسكن؛ أسباباً لتأخير الزواج لعدة سنوات.

ويجب تيسير الزواج وتيسير المهور وتيسير الشروط، من طرف الزوج وأهله، والزوجة وأهلها، قال النبي ﷺ: «أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً»(2)، وقال ﷺ: «خير النكاح أيسرُه»(3).

وواجب المسلمين جميعاً أن يُغيِّروا تلك التقاليد التي تؤخر الزواج وترهق الأزواج بالتكاليف، كما يجب تعاون المجتمع كله على ذلك، كما أمر الله بقوله: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ ﴾.

ـ ولا ينبغي أن نؤخر الزواج؛ لأجل **حفلة زواج** تُكلِّف ألوف الدنانير، وهذه الحفلات صارت غروراً ورياءاً وتفاخراً وسمعة، وقد يستدين الزوج لأجلها مالاً ينفقه في ساعة واحدة على حفلة العرس، ثم يبقى سنوات وهو

---

(1) وهو أمر مرتبط بصلاح المجتمع وعفته ونظافته من الإثارة والشهوات، فإذا كان المجتمع نظيفاً طاهراً فإن الشباب يقدر على تأخير الزواج، وإلا فالحاجة إلى التبكير كبيرة.

(2) حديث حسن، أخرجه الحاكم رقم ٢٧٣٢ عن عائشة رضي الله عنها، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٥٧٣ بلفظ: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة».

(3) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢١١٧ وابن حبان رقم ٤٠٧٢ ونحوه الحاكم ٢٧٤٢ وصححه، عن عقبة بن عامر ﷺ.

يُضَيِّقُ على نفسه وعلى زوجته ليَسُدَّ الدَّين، أليس ذلك تضييعاً لمصلحة الزوجين؟ أليس ذلك نوعاً من السَّفَه؟

وكذلك ما تطلبه الزوجة من **لباس كثير**، تقتصر فائدته على أيام أو أشهر، وتَضِيْعُ الأموالُ، ولا يستعمل اللباس بعد ذلك، فإنها تَسمَن أو تحبَل، فلو كانت الزوجة عاقلة لاكتفت بالقليل، وأبقت على مال زوجها، ثم يأتيها بلباس جديد كلما احتاجت، وكلما تغيرت أحوالها.

وكذلك **تكاليف أثاث البيت الزائدة**، مما يمكن تأخيره أو الاستغناء عنه، وتطلبها الزوجة أو أهلها؛ قد تكون خلاف مصلحة الزوجين، ولا تُعِين على عفتهما، فمن أهم أسباب تأخير الزواج حرص الناس على أن يكون بيت الزوجية على أكمل ما يكون، ويؤخرون الزواج حتى يصير الزوج قادراً على التكاليف الباهظة لأثاث البيت، وقد لا تدوم الزوجية فنحن نرى في زماننا أكثر هذه البيوت تُهدم بالطلاق(١).

ألا يمكن الاقتصار على أثاث بيت متواضع، يكفي لأساسيات الحياة، ثم يزداد ويتوسع فيه مع الأيام، كما تزوج آباؤنا وأجدادنا، مع القلة والأثاث المتواضع، وصلحت بيوتهم وبارك الله لهم فيها.

لا ينبغي في مجتمع مسلم طاهر أن يجد المنحرفون السبيل إلى الزنا سهلاً قريباً، بينما مَنْ يُريد العفافَ يَجِدُ بينه وبين الزواج مسافاتٍ شاسعةً وجُدُراً مُمَنَّعَة.

فتلك تقاليد وأعراف باطلة، ومنكرة في دين الله، يجب التخلص منها، ولو اعتادها الناس والأقارب والعشائر والأقوام وأهل البلاد، فهي إسراف

(١) بلغت نسبة الطلاق في بعض البلاد العربية أكثر من خمسين بالمئة، فبين كل عَقدَين عَقدٌ يُفسخ أو ينتهي بالطلاق.

بلا عقل ولا نفع، وقد أدت هذه التقاليد مِن تكاليفِ الزواج وغلاءِ المهور إلى مفاسد كبيرة في زماننا، منها: توجُّه بعض الشباب والفتيات نحو الزنا، وانتشار الفساد في الجامعات والمؤسسات وغيرها، ومنها: تأخرُ سِنِّ الزواج، وزيادةُ العنوسة في الذكور والإناث، وما يترتب على ذلك من حالات نفسية عند كثير منهم، وما يترتب على ذلك من فساد كثير وتَوجُّهٍ نحو الحرام.

وبعض الناس يغلي المهر، بحجة أنه يريد من الخاطب والزوج احترام الزوجة وتقديرها وعدم الاستعجال إلى تطليقها لأي سبب، والواقع أن الذي لا أخلاق له لن يُقَدِّرها لأجل المهر، وإذا كرهها فإنه يظلمها ويضايقها، حتى تطلب الطلاق وتتنازل عن المهر، فيكون المهرُ سببَ تعذيب لها، لا رحمةً لها، فمن أراد الرحمة لابنته فليزوجها من صاحب الدين والخلق، الذي إِنْ أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يَظلمْها.

١٣. من أدب الوالِدين العفيفين: **عون أبنائهم الصغار والكبار على العفة، بحسن التربية،** والتحذير من أسباب الانحراف والشهوة المحرمة، وحجز الولد عن رفاق السوء الذي يَجُرُّونه إلى الحرام، ومعالجة الانحراف عند وجوده، بالتذكير والحوار واللين والإقناع والترغيب والترهيب.

وقد يحتاجُ الوالدان إلى شيء من الحزم مع كل ذلك، فإن الشطط يحتاج إلى نوع من المحاصرة والتأديب.

ـ وإذا بلغ الشابُّ سِنَّ الزواج فوقع في حب فتاةٍ، وتعَلَّقَ قلبُه بها، بسبب تماديه في العلاقة معها بغير حق، فإذا رغب في الزواج منها، فبعض الآباء يرفض تزويجه منها بحجة أنه انحرف وأساء وتجاوز، وذلك صحيح أنه تجاوز، لكن إذا حصل الحب والتعلق من الطرفين، فليس علاجه بحرمانهما من بعضهما، بل بجمعهما بالحلال إن أمكن، فإن حرمانهما قد يجعلهما يُصِرّان على العلاقة

ويسيران في طريق الحرام، وإذا أُجْبِر الشابُّ على الزواج من غيرها؛ فقد يفسد علاقة الزوجية ليرجع إلى من يريد، وكذلك الفتاة إذا تعلقت بشاب، قد تفسد العلاقة مع الزوج الذي أجبرت عليه، وتسيء في التعامل معه حتى يطلِّقها، تَوَصُّلاً إلى من تريده.

فإذا كانت الشابة التي تعلق بها، أو الشاب الذي تعلقت به، مقبولاً في دينه وأخلاقه في الجملة، فلا ينبغي أن نحول بينهما في الزواج، لِتنطفئ الشهوة المحرمة بالحلال.

وهذا معنى قول النبي ﷺ: «لم يُرَ للمتحابَّيْن مثلُ النكاح»(١).

أما إذا كانت على خُلُق مرفوض أو نقصٍ في الدين، أو كان الشاب على خلق سيء أو نقص في الدين؛ فعندئذ لا بد من إقناعهما بالتخلي عن التعلُّق، والبحث عمن هو أفضل، ففي الشابات غيرِها خيرٌ وجمال كثير، وفي الشباب غيرِه خيرٌ كثير، فليست التي تعلَّق بها لا مثيلة لها، وليس الذي تَعلَّقَتْ به لا مَثيلَ له، بل في الأرض كثيرٌ خيرٌ منه ومنها.

١٤. من أدب العفيفة: **حرص الزوجة على إعفاف زوجها بالتجمل له**، والظهور دائماً بمظهر لائق، وقال سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] فهي التي تعطيه العفة والستر، وهو يُعفُّها، قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ففي كل وقت ينبغي أن تكون مستعدة لإشباع زوجها وتحصينه، وقد بين النبي ﷺ أن صلاح المرأة مرتبط بقدرتها على الإمتاع لزوجها، فقال ﷺ: «خير متاع الدنيا المرأة الصالحة»(٢).

(١) حديث صحيح، أخرجه ابن ماجة رقم ١٨٤٧ والحاكم رقم ٢٦٧٧ بلفظ الزواج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وحتى تكون الزوجة عفيفة وتعف زوجها؛ لا بد أن تكون في كل حال على هيئة صالحة طيبة جميلة، فكلما نظر إليها زوجها دخل السرور عليه، فلا يراها على حال يكرهها عليه، أو ينفر منها، أو لا يجد جاذبية فيها[1].

وكما يجب على الزوجة أن تكون سبباً في تحصين زوجها، فيجب عليه أن يكون سبباً في عفتها وتحصينها، فيتجمل لها ويقضي حاجتها من الشهوة، ولا يمتنع من تلبية شهوتها، كما لا تمتنع من تلبية شهوته، مع التعامل اللطيف الطيب الأديب، الذي يُبقِي المودة والتفاهم، مع إدراك كل واحد منهما أنَّه يُكمِّل الآخر، وكأنهما شخص واحد، يتعاون كل واحد منهما مع الآخر ويحبه، لا يتعامل معه وكأنه عدوه أو منافسه أو مسلط عليه.

١٥. من أدب العفيفة: **عدم الخروج من البيت إلا لضرورة أو حاجة،** وإذا خرجت لم تتبرج بتكَشُّفٍ أو إظهارِ مفاتنَ أو إبداءِ زينةٍ، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالأصل في حياة المرأة كما أرادها الله؛ أن لا تخرج من البيت للعمل، وحتى لا تحتاج إلى الخروج والتعب ومعاناة الخلطة مع الناس؛ فقد تكفل الله بها وبالنفقة عليها، فأوجب على الرجل أن ينفق عليها، فإما أن ينفق عليها أبوها أو زوجها أو ابنها أو أخوها أو غيرهم.

والله خلق المرأة ليكون عملها في البيت، مِن إعفاف للزوج وتحصين

---

(١) وقد ورد في هذا المعنى حديث ضعيف، حسنه بعض العلماء، أخرجه أبو داود رقم ١٦٦٤ والحاكم رقم ١٤٨٧ والبيهقي في سننه ٧٠٢٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ يبين أهم أوصاف المرأة الصالحة مع زوجها: «إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله».

وسكن له، ومِن تربية للأبناء وإرضاع ورعاية، ومِن قيام بشؤون البيت كطعامه وغسيله وترتيبه، وغير ذلك مما يمكن أن تعمله المرأة ولا يتنافى مع قدراتها وطبيعتها النفسية.

وهذه الأمور تحتاج إلى من يقوم بها، فإن لم يكن لها أحد فسدت البيوت وخربت، وفسدت التربية والأجيال، وانعكس ذلك على المجتمع بالخلل، لأن الرجال سيضطرون لمزاولتها بدلاً من النساء، وهم لا يحسنونها كالنساء، كما أن انشغالهم بها يؤثر على أعمالهم المطلوبة منهم.

والله تعالى خلق المرأة على شاكلة معينة(١) لتكون أهلًا لهذه الأعمال اللطيفة، بينما خلق الرجل على شاكلة أخرى ليكون أهلاً لأعمال أكثر تعباً ومشقة وتفكيراً ومعالجةً.

وهذا لا يعني أن المرأة ليس لها أعمال في المجتمع، فيمكن أن تعمل عند الضرورة، ولا حرج أن تعمل فيما يناسبها، وفيما يحتاجه المجتمع منها، كالتدريس والطب والتمريض، ونحو ذلك.

كما أن الضرورة قد تضطر الرجل إلى بعض أعمال النساء، فلا حرج في ذلك، فالضرورات والاستثناءات لها أحكامها، لكن لا تصير أصلاً.

١٦ . من أدب أهل العفة: **المحافظة على خِلقَتِهم ونفسيَّتهم التي خلقهم الله عليها وخصَّهم بها**، فالعفيف لا يتخنث ولا يتأنث، **ولا يتشبه بالنساء**، والعفيفة لا تترجل **ولا تتشبه بالرجال**.

---

(١) فالمرأة تختلف عن الرجل في بعض الجوانب النفسية والعقلية، كطريقة تفكيرها وعواطفها وغرائزها، وتختلف عن الرجل في بعض أجزاء جسمها، كالشعر والجلد والغدد، وتختلف في بعض وظائفها، كالحبل والإرضاع والحيض.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»(١)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: «لعنَ رسولُ الله ﷺ الرجلَ يَلْبَسُ لِبسةَ المرأةِ، والمرأةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرجلِ»(٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لعن رسول الله ﷺ المُخَنَّثِين من الرجال، والمُتَرَجِّلاتِ من النساء»(٣).

فلا يجوز تشبه أحد الجنسين بالآخر، في صوته أو لبسه أو شكله أو حركته أو أي شيء مما يختص به كل منهما عن الآخر.

١٧. من أدب العفيف: **الحذر من الإعلام الفاسد والفضائيات المُفسِدة،** وعدم متابعة ما يثير شهوته، مِنْ أفلامٍ ومسلسلات وفيديو كليبات وأغاني، ومواقع إلكترونية فاسدة، ومجلات مُرَوِّجَة للشهوات وأهلها.

فالإعلام والفضائيات التي جعلت برامجها الشهوة والتعري والإثارة واللهو؛ تسعى لإفساد الإنسان وتخريب أخلاقه، وإشغاله عن الحق، هدفها أن يبقى الإنسان بلا عنوان ولا هدف ولا إنتاج، هدفها أن تصرف الإنسان عن الحق، هدفها تضييع الثقافة الحقيقية والمبادئ والقيم التي يجب أن يعيش عليها الإنسان، هدفها أن تجعل الإنسان مطية لمفسدي الأرض، هدفها الربح المادي على حساب أهل الأهواء والضعفاء من أبنائنا، وأصحاب هذا الإعلام الفاسد هم ممن وصفهم النبي ﷺ بأنهم «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٥٤٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٠٩٨.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٥٤٧ و ٦٤٤٥.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري رقم ٣٤١١ و ٦٦٧٣ ومسلم رقم ١٨٤٧ عن حذيفة بن اليمان ﷺ.

فواجبُ كلِّ عاقل أن لا يغتر بالجهال الذي تَعرِضُه، ولا بالفتنة التي تثيرها، ولا بالإغراء الذي تجتذب به ضفعاء النفوس؛ بل واجبنا أن نقاطعها ونَحذَر منها، ونغلقها، ونرفض المتابعة لها، ونحظر ظهورها على شاشاتنا وتلفازاتنا.

وواجب الأمة أن تُحذِّر منها، وتُضيِّق عليها، وتحاربها، وتمنعها، وتجفف منابع دعمها المالي والإنتاجي، وتلاحِق كلَّ من يَصنعها أو يُروِّجها أو يُشارك فيها، فالمجرمون من أعدائنا يشترون الناس والعملاء من خلال الشهوات، ويقودون السياسة من خلال المال والشهوة، ويصنعون المافيات والمجرمين وجماعات الضغط من خلال عصابات الشهوة والنساء والمال.

وقد حذرنا الله من الحكام والولاة الذين يُفسِدون، ولا يبالون في إهلاك البشرية وإهلاك أموالها وزروعها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ـ وكل إنسان يشارك في إفساد شباب الأمة وشاباتها، وهدم عفتهم، وكل مسؤول يسمح لهذا الفساد والإفساد بأن يبقى، وكل فضائية تشارك في بث الصور العارية والرقصات الفاتنة والأغاني الماجنة والدعايات المثيرة والأفلام المنحرفة والمسلسلات السامَّة، وكل تلفاز أو موقع الكتروني أو مجلة أو صحيفة أو أي وسيلة إعلامية؛ تُعِين عليها أو تُروِّجها؛ كل هؤلاء مجرمون مفسدون في الأرض، ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[المائدة: ٣٣-٣٤]، ولا يجوز لمسلم أن يتهاون في النظرة إلى هؤلاء المفسدين المجرمين، لا سِيَّما مَن كان قاصداً للإفساد منهم، وهؤلاء أعظم إفساداً من مروجي المخدِّرات والمُسكِرات.

ويجب التعاون بين الحاكم والمحكوم على حماية المجتمع من الرذائل والإفساد والمفسدين، وحماية الناس من الشهوات التي تتسبب في انتهاك الأعراض ونقص الدين وضياع الأموال في الباطل.

والحاكم العفيف الصادق مع أمته يحمي شعبه من أسباب الشهوة والفساد، ويلاحق المفسدين ويعاقبهم، ويمنع مواخيرهم ونواديهم الليلية الفاجرة العاهرة التي يفتحونها لأجل الفواحش والإفساد.

ـ وواجب المسلمين أن يصنعوا إعلاماً نظيفاً طاهراً عفيفاً، يُوجِّه الأمة توجيهاً سليماً، ويُغنِي عن الإعلام الفاسد والمُنحرِف والمُضلِّل، ويَشغل عنه، وينافسه، ويجابهه.

١٨ . من أدب العفيف: **أن يكون متحكِّماً بشهوته**، فالشهوات التي حرمها الله في كل حال؛ لا يتطلع إليها ولا يفكر فيها ولا يطمع فيها ولا يَقربُها، فمع أن الله تعالى أباح للزوج التمتعَ بزوجته، لكنه نهى عن التمتع والشهوة بإتيانها من الدبر، ونهى عن جِماعها في الصيام وفي مدة الحيض والنفاس، فيجب على المسلم أن يعف عن زوجته في هذه الحالات.

١٩ . من أدب العفيفة: **حرص المرأة على حجابها الكامل**، حتى إذا كانت لا تُشتَهى، قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٠]، فأباح الله تعالى للكبيرة في السِّنِّ التي لا تُشتَهى ولا تَشتَهِي،

ولا يَطْمَعُ أحد بها أو بزواجها؛ أن تتخفف من اللباس، بحيث تلبس الثياب الساترة لشعرها وساقها ونَحْرِها وجسدها، والتي تَلبَسُها عادةً كبيرات السن في بيوتهن، من غير زينة، ومع أنه أباح ذلك؛ نَدَبَهُنَّ إلى العفة أكثر من ذلك، بلبس الجلباب والستر الكامل أمام الرجال الأجانب.

٢٠. ومن آداب العفيفة: **حرصها على عفة المجتمع، ولو كلفها ذلك التضييق على نفسها**، بتغطية وجهها، فإذا كان الرجال والشباب لا يغضون أبصارهم عن وجه المرأة، فهي تحرص على سَتْرِه إعفافاً لهم، وحرصاً منها على طهارة قلوبهم، وحماية لنفسها من التطلع إليها والرغبة بالشهوة منها، لا سيما إذا كانت جميلة تميل النفوس إلى النظر إليها.

وقد رأى كثير من العلماء أن مِن واجب المرأة أن تُغَطِّي وجهَها وكَفَّيْها إذا وُجِدَت فتنةٌ من إظهارهما، والفتنة هي المعصية والشهوة، فإذا كان الرجال لا يَغضُّون أبصارَهم عن المرأة التي تكشف وجهها؛ فذلك فتنة تدفعها إلى تغطية وجهها، لتقطع طريق الفتنة والمعصية.

ـ وعلى المرأة أن تحتاط لنفسها، فإذا خرجت من بيتها؛ فلا تُظهِر شيئاً من عورتها، ولا تضع ثياب حجابها حيث يُتَوَقَّعُ أن يراها أحد، وتجتنب مواضع كشف العورات العامة، كالحمّامات العامة والمسابِح، قال ﷺ: «ما مِن امرأةٍ تخلعُ ثيابَها في غيرِ بيتها؛ إلا هَتَكَتْ ما بينها وبينَ اللهِ تعالى»[1].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٠١٠ عن أبي المليح قال: دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها، فقالت: ممن أنتنَّ؟ قُلنَ: من أهل الشام، قالت: لعلكنَّ من الكُورَةِ التي تدخل نساؤها الحمامات، قلن: نعم، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:...، وأخرج نحوه أحمد رقم ٢٥٤٤٦ والحاكم رقم ٧٧٨٠، و (الكورة): اسم مكان.

٢١. من أدب العفيفة: **أن لا تتابع الْمُوْضَة**[(١)]، فمتابعة الموضة سفاهة وفساد وقلة عقل.

وبعض بنات الموضة تتابع الجديد من الأزياء، وموضات الرذيلات الكافرات، وأزياء التعري والإغراء، غاية فكرها أن تقلد راقصة ساقطة، أو غاوية فاجرة، تلبس اللباس أو الحذاء اليومَ راغبةً به ومعجبة به ومُعظِّمةً له، ثم تخلعه في اليوم التالي وكأنه مقرف ومكروه.

وما يكون اليوم مكروهاً ومقرفاً ومرفوضاً ومرذولاً ومَعيباً ترفضه الفتاة؛ تجدها غداً تعظِّمه وتلبسه وتحبه وترغب به، ولا ترضى غيره، لأن راقصة أو مغنية لَبِسَتْه، أو تجاراً رَوَّجُوه على أنه الموضةَ الجديدة.

وكذلك الشأن في تسريحات الشعر وأدوات الزينة وألون المساحيق وحقائب اليد، تتحول بين يوم وآخر من مرفوضة إلى مقبولة، والعكس، وهذا يُرهِق جيوب الناس، ويُضيِّع أموالهم، كما يفتح باب الفتنة والفساد والتعري وإظهار المفاتن.

وينطبق على أتباع الموضات في زماننا قول النبي ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً شِبْراً وذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ»[(٢)].

---

(١) (الْمُوضَة): كلمة أجنبية، تعني آخر زي، أو الطراز الحديث من الألبسة وقصات الشعر والزينة ونحوها، مما يعتاده الناس ويرغبون به.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٨٨٩ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، و (الضب): دابة يأكلها بعض العرب، رائحتها كريهة جداً، لا تدخل جحرها مرتين، بل تغيره، وحينما تخرج من جحرها ترجع رجوعاً ولا تخرج بوجهها، وكذلك أصحاب الموضات يأتون ما هو كريه، يستحلونه ثم يتراجعون عنه ويكرهونه، ولا يعودون إليه، ويتراجعون عنه تراجعاً، ونجد أكثر هذه الطرائق والعادات الفاسدة تأتينا من اليهود والنصارى، فهم أصحابها، والمخططون لها.

٢٢ . من آداب العفيف: الحذر من أن يُوَرَّط بالفاحشة والشهوات أو يَفعل ما يجعله مُتَّهماً بها.

فأهل الكفر والفجور يحاولون استدراج الإنسان إلى الشهوات والفاحشة، ليخضعوه للباطل، وقد يصوِّرونه وهو في حالة خسيسة، ليهددوه بفضيحته بها، فيبقى خاضعاً لباطلهم وأوامرهم.

وواجب المؤمن أن لا يتورط أصلاً في ذلك، وإذا حصل منه ضعف فوقع؛ فيجب أن يبقى على الحق ولا يخضع للباطل وأهله، والكفرِ وفجورِه، والنفاق وعِمالَتِه، ولو فضحوه، فالفضيحة في الدنيا خير من الولاء للكافر، أو اتباعه في مزيد من الفواحش والشهوات والمعاصي، أو التعاون معه في إجرام وإفساد.

وكم من حاكم أو مسؤول في زماننا اشتراه الأعداء بالمال واستدرجوه في الشهوات، فخضع لهم وصار يفسد في البلاد كما يشاؤون، ويسعى في تخلف البلاد كما يريد الأعداء.

وقد تعرض لمثل هذا الموقف صحابي، أراد الأعداء أن يشتروه بالمال والجاه، فوقف موقفاً عفيفاً، فهذا كعب بن مالك ﵁ لما كان في المدة التي عاقبه الله فيها على تخلفه عن غزوة تبوك يحاول الروم شراءه، فلا يضعف ولا يلين ولا يبيع إيمانه، قال: «فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطَفِق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من مَلِك غَسّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جَفاك، ولم يجعلك الله بِدارِ هَوان ولا مَضْيَعةٍ، فَالْحَقْ بنا نُواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيَمَّمْتُ بها التَّنورَ، فسَجَرْتُه بها»(١).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤١٥٦ ومسلم رقم ٢٧٦٩.

والواجب أن تكون التربية الإيمانية الأخلاقية والتربية على العفة في بلادنا وأبنائنا على أفضل وجه، حتى إذا جاء عدونا إلى أرضنا؛ لم يجد من يشتريه، ولم يجد من يتاجر بسمعته، ولم يجد من يعينه على فساده، ولم يجد من يقبل ثقافة الفجور والخنا التي يروِّجها الكفار والمفسدون.

وقد حدثنا النبي ﷺ عن نموذج مِن تَصرُّف المؤمن العفيف حينما يُتَّهَم بالفاحشة كذباً، فيصبر على كيد النساء، ويَلْجأُ إلى الله، قال النَّبِيِّ ﷺ: «لَمْ يَتكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ[١]، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلي[٢]، فَقَالَتِ: اللَّـهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ[٣]، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِياً، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلَاماً، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ[٤]، فَتَوَضَّأَ وَصَلىَّ، ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي[٥]، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لا إِلا مِنْ طِينٍ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ[٦] تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ

---

(١) (دعته): أي نادته وطلبته.

(٢) أي تردد، هل يجيب أمه أم يبقى في صلاته، والواجب أن يقدم بر أمه وطاعتها على صلاة النافلة، فيسرع في النافلة ويجيب أمه، وقد أخطأ فقدم الصلاة النافلة على الطاعة الواجبة.

(٣) أي دعت عليه لأنه عَقَّها ولم يطعها، فوافق دعاؤها ساعة إجابة، وقد تلطفت به؛ فلم تدع عليه بالزنا، وإنما دعت عليه برؤية المومسات فقط، فابتلي بهن.

(٤) فصدقوها وهي زانية كاذبة، واتهموه بالفاحشة وهو بريء عفيف صالح.

(٥) أي إن الله أنطق الطفل بالحق، وهو في سن لا ينطق فيه، كرامة لجريج، فلما علموا صدقه وكرامته عادوا فاحترموه وأحسنوا إليه وأصلحوا ما أفسدوا له.

(٦) وهذه قصة الطفل الثالث الذي نطق في المهد.

ذُو شَارَةٍ، فَقَالَتِ: اللَّـهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ[1]، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ: اللَّـهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ، ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتِ: اللَّـهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ[2]، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ: اللَّـهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ: سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ»[3].

ـ وعلى المسلم أن لا يتصرف تصرفاً يثيرُ الشبهةَ حولَه، ويجعلُه محلَّ تُهمة، ومن ذلك الزواج العُرْفي الذي لا يُسجَّلُ رسمياً ولا يُعلَنُ للناس، فقد يرى الناسُ دخولَ الزوجِ على بيت زوجته أو مصاحبتَها، وهم لا يعلمون أن بينهما زواج؛ فيتهمونه ويخوضون في عرضه، والعفيف لا يَقْبَلُ على نفسه ولا على أهلِه التُّهمةَ.

٢٣. من آداب العفيف: **التستر على نفسه وعلى غيره**، حتى لا تشيع الفاحشة ولا تشتهر الشهوات.

فإن الحديث عن الشهوات والفواحش يفتح أبوابها، ويدل الجاهل عليها، ويُحرِّك بعض النفوس إليها، وكثرة السماع عن حصولها ووجودها يجعلها طبيعية مألوفة عند الناس، فلا تنزعج نفوسهم وقلوبهم منها، ولا تتحرك ألسنتهم وأيديهم للإنكار عليها، لذلك جعل الله لمن يشيع الفاحشة ويُشهرها عذاباً أليماً فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ

---

(١) اغترت بالمظاهر، وهذا من جهل الناس وانخداعهم بالدنيا وزخرفها وجاهها.

(٢) أيضاً اغترت بالمظاهر، فاحتقرت من يحتقره الناس أو يتهمونه، وربما كان عند الله عظيمًا، أو مظلوماً.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٣٥٠ و ٣٢٥٣ وهذا لفظه، ومسلم رقم ٢٥٥٠ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]، والسَّتْر على المؤمنين واجبٌ، وأجرُه كبيرٌ، قال ﷺ: «مَن سَتَرَ مسلماً ستره الله يوم القيامة»(١).

والمؤمن العفيف لا يقع في المعاصي والشهوات، ولا يصير مَاجِناً ولا فاسقاً، لكن إنْ ضَعُفَ فوقع في معصية أو شهوة؛ يَحرصُ أن يَستُر على نفسِه، ويُخفِي خطأه وذنبه، ولا يُحدِّث به أحداً، حتى أقربَ الناس إليه، وأكثرَهم صداقة وحِفْظاً لسرِّه، وقد بيَّن النبي ﷺ أن فضيحة النفس سبب في منع المغفرة والتوبة، فقال ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»(٢).

والذي يفضح نفسه، ويتحدث عن شهواته ومعاصيه، ويعلن ذنوبه، ويُظهِر فِسْقَه ومُجُونَه، فذلك وَقِحٌ لا حياءَ عنده ولا عفة، وذلك قد فقد أقل الأخلاق التي دلَّ عليها الأنبياء، كما بين النبي ﷺ بقوله: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تَستَحِ فاصنع ما شئت»(٣).

ـ والعفيف الحَيِيُّ لا يتحدث عن شهواته المباحة أيضاً، فالأدب والعفة والحياء تجعل المسلم يترفع ويخجل ويستحيي ويأبى أن يتحدث عما يكون بينه وبين زوجته، مِن أمور خاصة، كالأحاديث العاطفية، والملاطفات بمشاعر

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٣١٠ ومسلم رقم ٢٦٩٩ عن أبي هريرة ﷺ، وفي رواية: ستره الله في الدنيا والاخرة.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٢١ ومسلم رقم ٢٩٩٠ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٩ عن أبي مسعود ﷺ.

الحب، والمداعبات والممارسات الخاصة المباحة بينهما، وقد نبهنا النبي ﷺ إلى هذا الأدب، فنَهَى أن يتحدث الرجل والمرأة عما يكون بينهما(١).

٢٤. من أدب العفيف: **عدم النظر بشهوة إلى الصبي الأمرد** الذي لم تظهر لحيته، لا سيما إذا كان جميلاً، وكانت النفس تستحليه، وتميل إلى النظر إليه.

فكلُّ ما يمكن أن يفتح باب الشهوة المحرَّمة؛ يجب على المسلم أن يغض البصر عنه، فإذا نظر المسلم إلى فتى أو صبي أمرد، وأحس بالرغبة في النظر إليه؛ فيجب عليه أن لا يدقق في معاني جماله، ولا يطيل النظر.

والتساهل في هذا قد يؤدي إلى الوقوع في كبيرة اللواط، وقد أوجب الله تعالى علينا أن نتجنب ما يؤدي إلى المحرمات والمعاصي والفواحش والمنكرات والكبائر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١].

٢٥. من أدب العفيف: **عدم الاستمناء**، وأن لا يلعب بِذَكَرِه وجَسَدِه، قال الله تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، فواجب الشابة والشاب أن لا يتطلع إلى الشهوة، وأن لا يستجلب الشهوة؛ بنظر أو سماع أو غيره.

---

(١) عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها «أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده، فقال: لعل رجلاً يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها، فأَرَمَّ القومُ [أي سكتوا]، فقلت: أي والله يا رسول الله، إنهنَّ لَيَقُلْنَ، وإنهم لَيفعلون، قال: فلا تفعلوا، فإنما ذلك مثلُ الشيطانِ لقي شيطانةً في طريق، فغَشِيَها والناسُ ينظرون». حديث حسن، وضعفه بعض العلماء، أخرجه أحمد رقم ٢٧٦٢٤، وأخرجه أبو داود رقم ٢١٧٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ أيها الشاب: إنك إن وقعت في هذه المعاصي صعب عليك تركها، وقد تحتاج إلى جهد كبير، ومجاهدة طويلة، حتى تتخلص من معاصي الشهوات، لأن لَذَّتَها إذا تَذوَّقَها الإنسان تُغْرِيه وتَخدعُه، وتُغرِقُه وتَشْغَلُه، وتُنسيه الحق، فَاْحْمِ نفسَك من الوقوع فيها، فذلك أرحم بنفسك وأسهل عليك من أن تقع فيها ثم تريد التخلص منها، وقد أشار النبي ﷺ إلى صعوبة ترك المعصية بعد دخولها، فتحدث عن طريق الاعوجاج والمعصية فقال: «لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه»(١)، أي إن الإنسان إذا فتح على نفسه باب المعصية لم يكد يخرج منها، فلا يزال يمشي في طريقها.

ـ ومَن غَلَبَتْه الشهوةُ وسيطرت عليه، حتى خشي أن يقع في الحرام كالزنا واللواط؛ فوجد نفسه مُضْطَراً للاستمناء حتى لا يقع فيما هو أكبر منه؛ فواجبه: أن لا يتمادى في المعصية واللعب بنفسه.

وواجبه أن يبحث عن طريق العفة والتخلص من الشهوة، بالانشغال بالخير وأعمال الطاعات والتعاون على البر وبمرافقة صحبة صالحة.

وواجبه أن لا يتعمد زيادة الشهوة واستثارتها، فبعض من ابتلي بالاستمناء يسترسل في استباحة ذلك، فبدلاً من أن يستفرغ شهوته بأسرع ما يكون، يصير يُلَذِّذُ نفسَه بذلك، ويطيش بنظره إلى العورات والنساء، ويبحث عن الصور المثيرة، ويتفرج إلى مقاطع الفيديو الجنسية، والأفلام الساقطة.

فإذا كان يبرر لنفسه الوقوعَ في الاستمناء من باب الوقوع في أقل المَفْسَدَتَين

(١) جزء من حديث صحيح، روي عن النواس بن سمعان وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، أخرجه أحمد ٤/ ١٨٢ والحاكم في المستدرك رقم ٢٤٥ وصححه، وروى نحوه النسائي رقم ١١٢٣٣ والترمذي رقم ٢٨٥٩، وقال: غريب.

وأَهْوَن الشَّرَّيْن، فيقع في الاستمناء خيراً من أن يقع في الزنا، لكن بأي وجه يبرر لنفسه استجلابَ المعصية، وبحثَه عمّا يثيرها.

وبدلاً من أن يَسلُك طريق الإيمان والعمل الصالح، وطريق التخلص من الشهوة، وطريق العفةِ عنها، والسموِّ فوقَها؛ يستبيح لنفسه تلك الفعلة الخسيسة، ويجعلها ديدنه وشغله، فالشهوة تخرب حال الإنسان كله، حتى يصل إلى حالة يضر بنفسه وأعماله وأوقاته وأمواله، ولا يشبع.

وبدلاً من أن يقوم الشاب إلى طاعته، وذكر ربه، وتلاوة كتابه، والقيام بين يديه، أو إلى فعلِ خيرٍ نافعٍ لأمته؛ يصير يبحث عن القنوات المفسدة، والصور الفاضحة، والراقصات الخليعات الفاجرات، فنهاره في سُعَار الشهوة والنَّظَرات الطائشة، وليله في استجلاب الشهوات وإفراغها، فلا خير فيه لنفسه ولا لأمته.

فإنه من لم تشغله الطاعة والخير؛ سينشغل إما بمعصية أو لهو، فكن دائماً جاداً عاملاً منتفعاً من طاقاتك ومنظماً لأوقاتك، فيكون وقتك مليئاً بالطاعات وأعمال الخير، من علم أو مطالعة، أو مجالسة صالحين، أو صِلَة رحم، أوذكر وقراءة قرآن وقيام، أو دعوة وأمر بمعروف ونهي عن منكر، أو جهاد في سبيل الله، أو خدمة للمسلمين أو عمل تطوعي تنفع به الأمة.

ـ والشيطان يستدرج الشابَّ، فيقول له: انظر هنا، وافتح على هذه القناة، قلب هذه القنوات التلفزيونية، تعرَّفْ ماذا في الواقع، وتدعوه نفسه من باب الفضول أن يفتح هذا الموقع الإباحي، فيطيعها، وإذا به تتسلل الشهوة إلى قلبه، ولا يستطيع مقاومتها، فواجب المسلم أن يَرُدَّ هذه الخواطر من أول لحظة تدعوه نفسه أو شيطانه إليها، فإنه إن لم يردها قد يقع في الحرام، قال ﷺ:

«كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[(١)]، وقال ﷺ: «فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء»[(٢)].

وعلى المسلم أن يجاهد نفسه، ويمتنع من الوقوع فيما تدعوه إليه هذه الخواطر الشهوانية.

والمؤمن حينما يرد خواطر الشهوة ويرفض الفتنة؛ يزداد قلبه نوراً، فلا يزال يزداد نوراً مرة بعد مرة، حتى يصل إلى حالة لا تضره هذه الخواطر ولا تفتنه ولا تؤثر فيه، قال ﷺ: «وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء»[(٣)]، فذلك هو العفيف الذي لا تحركه شهوة.

ـ أيها الشاب: اللذة والشهوة التي تنتظرك في الآخرة خير لك وأعظم من هذه الشهوات المحرمة، قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وفي الآخرة كل ما تشتهي بأفضل مما تتوقع، وكل ما تطلبه يأتيك، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، فمصلحتك وشهوتك في الآخرة، وما فيها من نعيم وجنان، وأزواجٍ مطهرة، وحُورٍ عين، والعاقل لا يرتكب عملاً يضيع عليه مصلحة في المستقبل أكبر، فكيف إذا كانت أكبر بكثير ودائمة وخالدة وأبدية.

والعاقل لا يرتكب عملاً يؤدي به إلى نار وعذاب وحرمان.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩ وعنده «يرتع» بدل «يقع»، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ١٤٤ عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣) من الحديث السابق، أخرجه مسلم رقم ١٤٤، وقد بين الحديث أنه يصل إلى حالة تشبه العصمة من الذنوب والفتن، فقال ﷺ: حتى لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.

والعاقل يعلم أنه لم يُخْلَقْ في الحياة ليفعل ما يشاء، ويرتكب من الشهوات ما يشاء، بل خلقه رب عظيم لمقصد عظيم، فمَنْ عَظَّم الرَّبَّ سبحانه وعَمِلَ لِتحقيق مَقصدِه وابتغَى رِضْوانَه؛ سَهُلَ عليه تَرْكُ الشهواتِ الدنيوية المحرمة، وصَغُرَتْ في عَينه، ولا يراها إلا سَفاسِف، يترفع عنها، ويَستعِفُّ عنها، ولا يشغل نفسه بها.

ـ ويعلم الشابّ المؤمن أن الموت لا يعرف موعداً، وقد يأتي في أي لحظة، فيكون على استعداد للقاء الله، عاملاً بما طَلَب منه، تاركاً لما نهاه عنه، فلا يَقبَلُ المؤمنُ على نفسه أن يعمل عملاً خسيساً أو معصيةً قد تكون نهايةَ حياته، وخاتمةَ أعماله، وعلم المؤمن بهذا وتذكره لهذا؛ يساعده على ترك المعصية وسرعة التوبة منها إن وقع فيها.

ـ وواجب الآباء أن يُحذِّروا صبيانهم من الشهوات، وأن يُحذروهم من صحبة واتباع مَن يُعلِّمهم الشهوات ويَدُلُّهم على الاستمناء، فإن هذه الأمور الخسيسة لا يكاد يقع فيها أحد إلا بتعليم ممن وقع فيها أو استباحها.

ـ والمجتمع العاقل المؤمن يجب أن يسعى في تزويج العُزّاب، لحماية أبنائهم وبناتهم، لا سيما في مجتمع كَثُرَتْ فيه المُثيرات، وفُتِحَت فيه أبواب الحرام والشهوات، فكما أن الجائع يأكل إذا جاع، ويشرب إذا عطش؛ فالشهوة إذا دخلت قلب شاب أو شابة وَجَبَ عليهما السعي إلى طريق إفراغها بالحلال، وهو الزواج، ووجب على الأهل والمجتمع أن يعينوهم في ذلك، ويساعدوهم في تكاليفه ونفقاته، ويُسَهِّلوا على أبناء وبنات بعضهم الزواجَ الذي أحل الله لهم.

ومما يعين الشاب على التوبة وعلى التخلص من الشهوات والاستمناء، هذه القواعد:

القاعدة الأولى: لقد أعطانا الله تعالى قاعدة عظيمة للخلاص من السيئات، والشهوات هي أكبر أبواب السيئات، فقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فبين لنا سبحانه أن الحسنات تطرد السيئات، فإذا أردت أيها المسلم أن تتخلص من شهوة وسيئة؛ فعليك أن تكثر من العبادة والعمل الصالح حتى يقتلع أثر السيئة من قلبك ونفسك، واجعل في نفسك تعلقاً بالحسنات: «ورجل قلبه معلَّق بالمساجد»(١).

ولا يزال الإنسان في معركة بين دواعي الشهوة ودواعي الإيمان والعمل الصالح، فيتغالبان ويتأرجحان كالميزان، حتى تزيد وزن إحداهما، فكلما أكثرت من العمل الصالح كأنها وضعت في كفة الخير وزناً أكبر في مقابل كفة الشر والشهوات والمعاصي، حتى يصير وزن الشهوة في مقابل الخير قليل ثم يتضاءل حتى يزول.

القاعدة الثانية: إن الشهوات تتشرب في القلب، وتكون كالشوك في القطن، كما عبر الله عن ذلك بقوله عن اليهود إذ دخل إلى قلوبهم حُبُّ الذهبِ والعجلِ الذهبي، فقال سبحانه: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة: ٩٣]، فالشهوة لها جذور في النفس لا بد أن يَتِمَّ قطعها حتى تسقط الشجرة الفاسدة التي تستمد من تلك الجذور، فإنك إذا قطعت الشجرة ولم تقطع جذورها؛ فإن شجرة الشهوة تنبت من جديد، بل قد تعود أقوى مما كانت، فلا بد من تجفيف منابعها، وعدم سقايتها، وقطع السماد

---

(١) جزء من حديث بين أصنافاً سبعة من الذين يظلهم في ظله، فذكر منهم هذا الصنف، أخرجه البخاري رقم ٦٢٩ ومسلم رقم ١٠٣١ عن أبي هريرة ﷺ.

عنها، وخلعها من تربتها وبيئتها، ولا بد أن تَزْرَع مكانها شجرة صالحة تأخذ محلها وتأخذها غذاءها.

فمن كانت تزعجه شهوة الفرج، فلا بد أنَّ نظره إلى بعض المجلات والجرائد والمواقِع يثير تلك الشهوة، ولا بد أن جلوسه إلى التلفاز يثير فيه مكامن الشهوات ويحركه إلى معصيته، فمن وَضَعَ نفسه في النار كيف لا تحرقه، فإذا أراد أن يرتاح من نار شهوته فلا بد أن يقطع صلته بهذه الأمور وغيرها مما يثيره، أو يقلل من صلته بها ما استطاع، وبقدر ما يقلل من هذه الصلة فسيكون الشفاء من تلك الشهوة أسرع وأقرب.

واعلم أنك إن ابتعدت عن منابع الشهوة والمعصية؛ نسيتها وانتفت دواعيها، شيئاً فشيئاً، لكن ذلك يحتاج إلى جهد كبير ومجاهدة في البداية، لأن دواعيها مع قُرْب العهد بها تكون قوية، ولا تزال تضعف مع بُعْدِ العهد، فيصير أمرها هيناً سهلاً، وتصل النفس إلى صفائها وطهارتها من الشهوات.

القاعدة الثالثة: إن الشهوة والسيئات لها دعاة في كل مجتمع، وغالباً فإن الإنسان لا يقع في هذه الشهوات إلا بدلالة أهل الفساد عليها، فلا بد أن **يترك المسلم صحبة كل رفيق سيء**، ويفارق كل مَن يَدْعُوه إلى معصية وشهوة، أو يعينه على الوقوع فيها، ولا بد أن يستبدل ذلك بصحبة الصالحين والعلماء، ويُخالط أهل الخير والطاعات، فإن القرب من أهل الفساد قرب من الفساد وسبب في الهلاك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، فالقرب من الظالمين؛ يجعلُك تقع في الظلم والمعصية والشهوة، فيكون ذلك سبباً في العذاب والنار.

القاعـدة الرابعـة: أن مجاهـدة النفـس هي سـبيل راحـة النفس من الإثـارة ونار الشـهوات، فبالمجاهدة تهتـدي النفس إلى المطلـوب، وترتاح من إغراء الشـهوات المحرمـة، فلا تعـود الشـهوات تؤثـر في النفـس، ولا يُؤلِمُها تركُها، وتلك هي الهداية إلى سبيل الله، وإلى طهارة النفس وعفتها، قال تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[العنكبـوت:٦٩].

مـن طبيعـة النفـس الإنسـانية أنها تضعـف أمـام الشـهوات والغرائز والأهواء، فتشـتهي النسـاء والمال والجاه وغيره، قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ... ﴾ [آل عمران: ١٤]، فالله تعـالى ابتلانا بذلك، وأمرنا بالمقاومـة والمجاهـدة والتزكيـة للنفـس، فقال سـبحانه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]، وقـال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ ﴾[فاطر:١٨].

فحينما يجد المسلم ضغطاً نفسياً يدعوه إلى الشهوة؛ فعليه أن يجاهد نفسه ويمانعها، ويترفع ويستعِفّ، فإذا فَعل المسلمُ ذلك؛ فقد أثبت أنه يريد ما يريده الله، ولا يريد ما تهواه نفسه، فيختبره الله مرات؛ فإذا رآه في كل مرة يحافظ على رضى الله، ويتجرد عن هواه؛ فإن الله تعالى يكرمه على مجاهدته؛ فيريح قلبه، ويجعل هذه الشهوات غير مؤثرة على قلبه، ولا سلطان لها على نفسه، فيكون على الهداية، لا يحركه إلا أمرُ الله ولا يفعل إلا ما يرضي الله، فهذه الهداية التي وعد الله بها أهل المجاهدة، إكراماً لهم.

وأما إذا خضع الإنسان لشهوته، ولم يجاهدها، فإنها تغلبه وتقوى شيئاً فشيئاً حتى يضل وينحرف ولا يقدر على علاجها، ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

فإذا وجدت أيها المسلم صعوبة في مجاهدة النفس، فلا يَكُنْ ذلك سبباً في

الاستسلام للمعصية والشهوات واللَّذَّات المحرمة، فهي الآن اختبار لك، لكن إن صبرت وجاهدت؛ جاء اليوم الذي ترتاح نفسك منها، وتضعف حلاوة لذتها في قلبك، حتى تنمحي من قلبك، وعندئذ يسهل على القلب تركُها والعِفَّةُ عنها.

وإن استسلمت للشهوات؛ زادت صعوبة المجاهدة، وأتعبت نفسك، وأخرت نفسك عن رحمة الله.

والشيطان يحاول أن يصرفك عن المجاهدة، فيقول لك: إنك ستتعب من مقاومة الشهوات، فإنها صعبة، وأنت ستحتاج إلى الصبر والمجاهدة على ذلك طول حياتك، فذلك كبير ومُرهِق، فأجِّل توبتك ومجاهدتك.

هكذا يأتي خاطر الشيطانِ، فاللهُ أخبرك أن هذا كذب ووَهْم، فإن المجاهدة إن كانت على وجهها؛ فإن رحمة الله قريبة، فإذا علمت ذلك؛ ساعدك ذلك على الصبر والتحمل ريثما تأتي الهداية.

القاعدة الخامسة: كثرة الاستغفار، فإن الاستغفار له أثر عظيم في صنع الهمة والإقبال على الله، والترفع عن المعصية والشهوات، ﴿قَالَ(1) يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]، فبين أن الرحمة تأتي لمن يستغفر، وقال تعالى ذاكراً قول هودٍ نبيِّ اللهِ ﷺ لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، فبين أن الاستغفار يعطي قوة، ومنها: قوة النفس على ترك المعاصي.

ويجب على المسلم حينما يقع في شهوة أو معصية أن يسارع إلى الاستغفار

(١) أي قال النبي صالح ﷺ لقومه ثمود.

ولا يتأخر، فذلك الذي وعده الله بالمغفرة والجنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

وحينما يفزع المسلم إلى الاستغفار بعد الذنب مباشرة؛ فإنه يكون أكثر تذللاً وتواضعاً وحزناً وافتقاراً إلى الله، وأكثر شعوراً بالخوف من الله، وأكثر رغبة بمغفرة الله، وأكثر طمعاً برحمته، فليحرص المسلم على هذا الحال وهو يستغفر من شهواته؛ عسى أن يرحمه الله، وقد بين النبي ﷺ أن الذي يستحق الرحمة هو من كان يتصف بهذه الأحوال كلما أذنب، مهما تكرر ذنبه، فهو بين الخوف والرجاء، يخاف أن يعاقَب، ويرجو أن يَرحَمَه اللهُ ويَتوبَ عليه، أما من يفعل المعصية ولا يبالي؛ فهذا الذي يُخافُ عليه أن لا يغفر الله ذنبه(١)، فيجب على المسلم أن يكون حالُه دائماً حالَ الخوف من معصيته، وحالَ الرغبةِ في التطهُّر من شهواته، ولا يصل إلى حالٍ يركن ويرتاح إلى معاصيه وشهواته، وكأنه لم يفعل شيئاً(٢).

---

(١) قال ﷺ: «إن عبداً أصاب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ، فاغفر لي، فقال رَبُّه: عَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أصبت آخرَ فاغفره، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً، قال: رب أصبت آخرَ فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثلاثاً، فليعمل ما شاء» أخرجه البخاري رقم ٧٠٦٨ بأطول من هذا، وأخرجه مسلم رقم ٢٧٥٨ بنحوه، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) لذلك علمنا النبي ﷺ أن نقول في سيد الاستغفار: «وأبوء لك بذنبي»، أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٧، أي أعترف بذنبي، فالمسلم لا يكون على حال ينكر فيه ذنبه وخطأه، أو يتجاهله بين يدي الله.

القاعدة السادسة: تَذَكُّرُ الموتِ والدارِ الآخرة، فإن الإنسان كلما تذكر مآله ومصيره وما ينتظره من نعيم أو عذاب؛ كان لذلك أثره العظيم في الجد والاجتهاد، والعفة عن الشهوات والأهواء، أما من نسي الآخرة؛ فإنه يغرق في الدنيا وشهواتها، ولا يبالي ماذا يصنع، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص:٤٦]، فالإنسان يصير متجرداً عن هواه، وكُلُّ أمرِه كما يريد الله، ولا يُحرِّكه إلا أمر الله؛ إذا انشغل بهذه الخصلة الفريدة، وهي تذكر الدار الآخرة، وأكد النبي ﷺ أن ذكر الموت له أثره في طرد الشهوات ولذاتها، فقال: «أكثروا ذكر هادم اللذات؛ الموت»(١).

فاجعل لنفسك أيها المسلم في كل يوم أوقاتاً تتذكر بها موتك ومَصيرك.

ـ ومما يتفكر فيه المسلم فيزيده بعداً عن شهواته: تفكيره في صفات الله وكرمه وفضله؛ مما يزيده حباً لله وطاعة له واستحياءاً منه، وتفكيرُه في عظمة الله وجلاله وكبريائه وقدرته وعقابه؛ مما يزيده خشية وخوفاً من معصيته.

ـ ومما يعين على التخلص من شهوات الفرج والاستمناء؛ الصيام وقلة الطعام، والزواج، وقد سبق بيان ذلك.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٧٩١٢ والترمذي رقم ٢٣٠٧ وابن حبان رقم ٢٩٩٣ والحاكم رقم ٧٩٠٩ عن أبي هريرة ﷺ، والترمذي رقم ٢٤٦٠ عن أبي سعيد ﷺ وقال: حسن غريب، ويروى بلفظ «هاذم»، وبلفظ «هادم»، والأول معناه: القاطع، والثاني معناه: المُزيل.

أنواع العفة الأخرى وآدابها العفة عن أموال الناس

يطلق اسم العفة على الأمانة، فالذي يكون قادراً على الخيانة ويعف عنها، فهو أمين.

المسلم لا يكون جَشِعاً ولا يطمع بما ليس له، **فالأمانة عفة**، ومَن لا عفة له يسقط في الخيانة ويُضَيِّع الأمانة.

وقد مدح الله المتعففين عن أموال الناس على الرغم من حاجتهم، وأمرنا بالبحث عن المتعففين والتصدق عليهم، فقال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

ـ وأهم الأسباب التي تدعو إلى العفة عن المال الحرام: عِلمُك بأن الرزق مضمون ومقسوم ومكتوب، فإنك لن تزداد بالمال الحرام رزقاً، وصبرك على الكسب الحلال، وصبرك على ما أعطاك الله؛ يَصِلُك معه رزقُك، ويُبارَك لك فيه، وتكون ممدوحاً وناجياً، قال رسول الله ﷺ: «ليس من عمل يقرب إلى الجنة؛ إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار؛ إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحد منكم رزقه، إن جبريل عليه السلام ألقى في رَوْعي(١) أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا(٢)

(١) (رَوْعي): نفسي.

(٢) (أجْمِلوا): أي اطلبوه طلباً جميلًا، لا بالحرام، ولا بالهمّ والاستعجال، =

في الطلب، فإن اسْتَبْطَأَ أحدٌ منكم رزقَه؛ فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا يُنالُ فضلُه بمعصية»(١).

ـ وعكس العفة عن المال: **الطمع**، وهو أن يتطلع الإنسان إلى ما ليس له، يتطلع إلى ما عند غيره، يرغب ويحرص على اكتساب المال، ولو كان بطريق منحرف أو حرام، وكلما ازداد ماله ازداد حباً للمال، وحرصاً على جمعه، فلا يشبعه شيء، كما قال النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغي ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»(٢).

والغِنى وكثرةُ المال لا تُخرِج الإنسانَ من الطمع إلى العفةِ، وإنما يُخرجه أن يتعلم القناعة، فيصير غنيَّ النفس، قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض(٣) إنما الغنى غنى النفس»(٤).

ومَن تخلَّص من الطمع طابت نفسه وارتاحت، قال ﷺ: «طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كَفافاً، وقَنِعَ»(٥).

= وفي رواية لأبي يعلى في مسنده رقم ٦٥٨٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه توضح معنى الحديث: «فأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم»، وتمام روايته: «يا أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس، وإن الله يوفّي عبده ما كتب له من الرزق، فأجملوا في الطلب...».

(١) حديث صحيح، أخرجه الحاكم رقم ٢١٣٦ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما ومسلم رقم ١٠٤٨ عن أنس رضي الله عنه. وقوله: (ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب): أي إن أكثر الناس يرغبون بالدنيا ويحرصون على الاستكثار منها، حتى يموتوا ويدفنوا في التراب، إلا من تاب من التعلق بالدنيا، فيكون خلاف ذلك.

(٣) العَرَض والأعراض: أي ما يملكه الإنسان.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٠٨١ ومسلم رقم ١٠٥١ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٤٩ وأحمد رقم ٢٣٩٨٩ =

من آداب العفيف عن أموال الناس

١. ومن أدب هذا العفيف الأمين: أن **يتعفف عن أموال الأيتام والضعفاء**، حتى لو كان يعمل لهم فيها، إذا كان مستغنياً عنها بماله الخاص، وإن كان فقيراً قد فرغ وقته أو بعض وقته للعمل بأموالهم؛ فلا يأخذ من أموالهم التي يشغِّلُها لهم إلا قدر أجرة المثل، ولا يتوسع ولا يعتدي، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا [1] أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦].

٢. ومن أدب العفيف عن المال: **أن لا يتطلع إلى أموال الآخرين ودنياهم**، ولا يطمع بها ولا يرغب بمثلها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]، وهذه الآية كما تطلبُ العفةَ عن الشهوات؛ تطلبُ العفةَ عن أموال الآخرين، والعفةَ عن التعلق بالمال، والعفةَ عن الطمع فيما آتاه الله أصنافاً من الناس من الكافرين وغيرهم.

ـ ومن ذلك: **أن لا يُشعِر العفيفُ أحداً أنه يرغب بممتلكاته وخصوصياته**، فإذا رأى قلماً في جيب أحدٍ؛ لم يُشعِره بأنه معجب به، حتى لا يكون ذلك سبباً

= وابن حبان رقم ٧٠٥ والحاكم ٩٨ عن فضالة بن عبيد ﷺ، وفي رواية ابن حبان: «وقنعه الله به»، ومعنى: (طوبى): أي جنة، أو موضع في الجنة، (كفافاً): أي رزقه الله ما يكفيه ويقضي حاجاته، (وقنع) بفتح النون أو كسرها: أي اكتفى ولم يطمع بالمزيد، وارتاح قلبه.

(١) ﴿بِداراً﴾: أي مبادرين ومستعجلين، قبل أن يكبر الأولاد، وينتبهوا لأموالهم وحقوقهم.

في إعطائه إياه، فكثير من الناس يكرهون من يرغب بما عندهم، ويحبون من يزهد فيما عندهم، قال ﷺ: «وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»(١).

ـ ومن ذلك: **أن لا يستغل أموال الناس والأصدقاء لمصالحه الشخصية**، كأن يطلب من صديق أن يوصله إلى بيته أو عمله، فيكون ثقيلاً على صديقه، ويكلِّفَه ثمن الوقود، ويأخذ من وقته، لا سيما إذا تكرر ذلك، فالعفيف يرفض الإثقال على الناس أو استخدام الناس أو الاستفادة من أموالهم، إلا إذا كان ذلك إحساناً منهم، وبطِيْبِ نفْسٍ منهم.

ـ ومن ذلك: **أن يستعف الزوج عن مال زوجته**، ولو تبرعت له به، فإنه يَعُدُّه دَيْناً ويرده إليها حينما يستطيع، خشية أن تكون قد قدمته حياءاً وخجلاً أو بغير طيب نفس.

ـ ومن ذلك: **أن يستعف الوالد عن مال ولده، إن لم يكن محتاجاً إليه**، وإذا أخذ منه لا يأخذ إلا قَدْرَ حاجتِه، وكذلك الوالدة.

قال النبي ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»(٢)، وقوله ﷺ: «إن أطيب ما أكلتم

---

(١) حديث حسن، أخرجه ابن ماجة رقم ٤١٠٢ والحاكم رقم ٧٨٧٣ عن سهل بن سعد ﷺ.

(٢) حديث حسن، أخرجه ابن أبي شيبة رقم ٢٢٦٩٤ عن محمد بن المنكدر، وابن ماجة رقم ٢٢٩١ عن جابر بن عبد الله ﷺ، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٦٩٦١ عن سمرة ﷺ وفي المعجم الأوسط رقم ٥٧ عن عبد الله، وابن حبان رقم ٤١٠ عن عائشة رضي الله عنها، وقد روي مع الحديث الذي بعده؛ أخرجه أبو داود رقم ٣٥٣٠ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إن لي مالاً وولداً، وإن والدي يحتاج مالي، قال: أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»، وأخرجه ابن ماجة رقم ٥٢٩٢ من طريق عمرو بن شعيب وفيه: «إن أبي اجتاح مالي».

من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»[1]، فإذا احتاج الوالد فلا يخجل ولا يتحرج من أن يطلب من ولده مالاً، ويأخذ قدر حاجته، وهو مرتاح كأنما يأخذ من مال نفسه، ولا يتحرج من الضيافة عنده، ويأكل ويتناول ما يشتهي، كأنما هو في بيته.

ويستعف الأب عما وراءَ ذلك، مما لا يحتاجه، فلا يأخذ الأب مال ولده كما يشاء، ولا يتصرف بأموال الأبناء من غير رضاهم، ولا يتسلط على أموالهم بغير حق[2].

٣. ومن أدب العفيف عن المال: **أن لا يحسد الناس فيما عندهم من الدنيا**، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]، فالعفيف عن أموال الناس؛ يطلب من الله أن يُعطيَه من فضله، دون أن يحقد على الناس لما عندهم، ودون أن يتمنى زوال النعمة عنهم.

ولا ينبغي أن ينظر المسلم إلى من هو فوقه في الدنيا؛ فيحتقرَ ما هو فيه

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٣٥٨ وقال: حديث حسن صحيح، ونحوه عند أبي داود رقم ٣٥٢٩ وابن ماجة رقم ٢٢٩٠ وابن أبي شيبة رقم ٢٢٦٩٤، عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم ٥١٣٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروي هذا الحديث مع الحديث السابق، وقد ذكرنا ذلك في الهامش السابق.

(٢) وقد ظن بعضُ العلماء أن معنى هذين الحديثين أن يتسلط الوالد على مال الولد كما يشاء، ويستبيحه بغير حاجة؛ أخذاً من رواية: «إن أبي يريد أن يجتاح مالي، فقال له النبي ﷺ: أنت ومالك لأبيك»، لكن الحديث رُوِيَ بلفظ: إن أبي يحتاج مالي...، وهذه الرواية هي الموافقة للأصول العامة، كما يؤيدها رواية الحاكم في المستدرك رقم ٣١٢٣ وصححه على شرط الشيخين، عن عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ: «إن أولادَكم هبةُ الله لكم، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، فهم وأموالُهُم لكم، إذا احتجتم إليها»، فجعل استخدامَهم وأخذَ أموالهم مرتبطاً بالحاجة.

من نِعَم، ويحسد الآخرين على ما عندهم، بل ينظر إلى مَن دُونه ليكون شاكراً معظماً لعطاء الله ونعمته وعافيته، فكم من إنسان هو أقلُّ مِنك في العلمِ والخُلُقِ والجمالِ والصحةِ والبنينَ والمالِ، قال ﷺ: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ»(١).

٤. من أدب العفيف عن المال: أن **لا يُضيِّع حق الله في المال**، فلا يأكل حق الفقير، ولا يتخلف عن أداء الزكاة، ولا يتأخر، ولا يُقصِّر فيما وجب عليه مِنْ إنفاق، للأهل أو للقرابة أو للجار أو للمريض أو للدعوة أو للجهاد أو غير ذلك، فلا يطمع في مال جعله الله لغيره، ورزقه إياه؛ ليبتليه هل يعطيه أم يَحْرِمُه، هل يظنه لنفسه، أم يتذكر أن الله ولاه عليه واستخلفه فيه.

ـ وجميع ما ذكرناه في خلق الأمانة يدخل في معنى العفة عن المال الحرام، والصور المحرمة التي ذكرناها في معصية المال الحرام؛ فتَرْكُها يدخل في خلق العفة عن المال الحرام.

ومن ذلك العفةُ والترفُّعُ عما ليس للإنسان فيه حق من المال، وتأديةُ ما عليه من دَيْنٍ أو حَقٍّ لأصحاب الحق، والعفةُ عن أكل حقوق الناس وديونهم، والعفةُ عن الغلول وأكل مال الأمة، والعفة عن السرقة، والعفة عن أموال اليتامى، والعفة عن الرشوة، والعفة عن الغش وتطفيف الميزان، والعفة عن حلف اليمين طمعاً في شيء من المال الحرام، والعفة عن أكل مال حرام بكتم عيوب السلعة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١٢٥ ومسلم رقم ٢٩٦٣ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وعند مسلم رقم ٢٩٦٣ أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى مَن أسفلَ مِنكم، ولا تَنْظُروا إلى مَن هو فوقكم، فهو أَجْدَرُ أن لا تَزْدَروا نِعمة اللهِ عليكم»..

العفة عن أعراض الناس

وتطلق العفة على حفظ اللسان عن أعراض الناس والخوض فيها، وعلى الترفع عن شتم الناس وتشويه سمعتهم وغِيبتهم، وعلى تركِ القذفِ وإشاعةِ الفاحشةِ والحديثِ فيها، قال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه[(١)]»[(٢)].

والمسلم يَعِفُّ ويترفَّعُ عن الكلام الذي لا ينفع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، ومن ترفع عن اللغو كان أكثر ترفُّعاً عن الكلام الباطل المحرَّم.

(١) (عرضه): أي سمعته.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

من أدب العفيف عن الأعراض

١. **أن يترك الكلامَ عن الناس وقذف أعراضهم**، ولو بالإشارة، كأن تقول امرأة: فلانة لا أكفلها أو أجعلها على ذمتي، فكأنها تشكك فيها أو تتهمها بالفاحشة، أو كأن يَغْمِزَ رجلٌ بأحد من الناس في سمعته، أو يلقي في حقه كلمة تجعل الناس يَشُكُّون فيه، قال ﷺ: «من سمّع، سمّع الله به»[(١)]،، فمَنْ عَرَّضَ بسُمعة الناس؛ سَلَّطَ اللهُ عليه مَن يُعَرِّضُ بسُمعتِه ويَفضحُه.

٢. **ترك الغِيبة**، فيَجعلُ عفيفُ اللسان نفسَه مكان الناس، فكما أنه إذا أخطأ خطأً لا يحب أن يتحدث الناس عنه ويفضحوه ويتكلموا فيه، فكذلك إذا أخطؤوا فإنه لا يتحدث عنهم، ولا يفضحهم، بل يستر عليهم، «ومن ستر مؤمناً ستره الله في الدنيا والآخرة»[(٢)].

ـ وكل ما ذكرناه في معاصي اللسان؛ فهو مما يعف عنه المسلم، كالكذب والخوض بالباطل والقذف والنميمة والسب والجدال وإفشاء السر والمزاح السيء، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٤ عن جندب ﷺ، ومسلم رقم ٢٩٨٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتتمته عند البخاري: «ومن يرائي يرائي الله به»، وعند مسلم: «ومن راءى راءى الله به».

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٩ عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه البخاري رقم ٢٣١٠ ومسلم ٢٥٨٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «ستره الله يوم القيامة».

العفة عما لا يليق

وأما العفة عما لا يليق بالإنسان، وعما لا يستحسن أن يصدر منه؛ فهو المروءة، قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى؛ إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»[1]، وسنتحدث عنه في مرحلة المتوسط، إن شاء الله، ونشير هنا إلى بعض ما يجب من المروءة والعفة عما لا يليق بالمسلم:

لا ينبغي للمسلم أن يجاهر بسوء أو معصية، فالمجاهر وقح خسيس لا وجه له ولا دم، ولا مروءة له.

ولا ينبغي لمسلم أن يكرم زوجته أكثر من والديه، فمن أكرم زوجته فليكرم والديه بمثل ذلك على الأقل. ولا ينبغي للمسلم أن يبول في الطريق.

ولا ينبغي للمسلم أن يرتفع صوته في بيته بحيث يسمعه جيرانه، لا سيما نساء البيت.

ولا ينبغي للمسلم أن يأكل منفرداً بين جمع من الناس، مِن غيرِ أن يَدعُوَهم ويشاركهم، ويزداد القُبْح فيما لا يقبله الناس ولا يرغبون به، أو فيما هو حرام أو مكروه، فيُصِرُّ على أن يتناوله بمفرده، كالذي يدخِّن أمام الناس ويؤذيهم برائحة الدخان، فهذا ناقص المروءة.

ومن نقص المروءة أن ينظر الإنسان إلى عورته وفَرْجِه بغير حاجة، أو يجلس عارياً، ولو كان وحده.

ومن نقص المروءة أن يأكل بجَشَعٍ وشَرَهٍ، سواءٌ أمام الناس، أو بينه وبين نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٩ عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

المبحث الثامن

الحياء وترك الوقاحة

معنى الحياء:

الحياء: تَرَفُّع الإنسان عن النقائص، وخوفه من الظهور بمظاهر النقص.

والحيـاء ناشـئ عـن أدب النفـس وسـموها، وعـدم رضاهـا بالنقـص، والإنسان السوي يكره بطبيعته النقصَ والعيوب وينفر منها.

ولا يستحيي الإنسان من الكمال والجمال والصواب، إنما يستحيي مما فيه نقص أو مما يخشى أن يكون فيه نقص.

ـ والحياء عند المؤمن لا يقتصر على حياء الإنسان من الناس، بل يشمل الحياء من الله، والحياء فيما بين الإنسان ونفسه، وهذا مما يُميِّز المؤمن وأخلاقه.

فالحياء من الناس يحمل صاحبه على ترك المجاهرة بالقبيح، وكف الأذى عن الناس، والتغاضي عن زلاتهم.

وهذا قد يستوي فيه المؤمن وغيره، لكن المؤمن يستقبح ما قَبَّحه وعابه وذمَّه وأنكره الله ﷻ ورسوله ﷺ، بينما الكافر يستقبح ما يستقبحه الناس، ولا يبالي بما حرمه الله وأنكره، ثم يتميز المسلم بالحياء من الله والنفس.

والحياء من الله يحمل صاحبه على الخضوعِ لله، والطاعةِ والامتثالِ لأوامر الله ورسوله ﷺ، والاجتنابِ لكل ما نهى الله عنه.

والحياء من النفس يحمل صاحبه على صِيانة الخَلَوَات والتزام الأدب فيها، فلا يفعل الإنسان في وحدته وخَلْوته ما لا يفعله أمام الناس، ولا يعصي

الله بما يتركه أمام الناس، يستثمر أوقات خلوته كما يستثمرها في جَلْوته، يحرص على ما ينفعه في آخرته في كل وقت وحال.

ولا يكاد يحرص على الحياء من النفس إلا من كان كثير الذكر لله، يعظمه ويخاف منه ويتذكر أنه يراه ويراقبه ويطلع على كل ما يصدر منه.

ـ والحياء غير الخجل، فالحياء ممدوح، والخجل مذموم، وأحياناً يُطْلَقُ أحدُهما على الآخر.

الخجل استحياء مما لا يستحيى منه، يؤدي إلى تضييع الحقوق وعدم المطالبة بها، كأن يكون له بقية مال فلا يطالب به خجلاً، ويؤدي إلى التغاضي عن ما لا يجوز التسامح به، كأن تسمح المرأة أو الشابة أن يَلمَسها أحدٌ أو يُغازلها، وتخجلُ أَنْ تَرُدَّه وتُوَبِّخَه وتَزْجُرَه، لذلك قيل: الخجل يورث الرجالَ الفقرَ، ويورث النساءَ الزنا، أعاذنا الله من ذلك.

والحياء من الحق خجل مذموم، فالمسلم لا يستحيي من الحق والأمور المشروعة، بل يجبر نفسه على الحق والخير، فلا يخجل أن يقرأ القرآن أو يُؤَذِّن أمام الناس، ولا يخجل أن يصلي على طرف الطريق إن اضطر لذلك، ولا يخجل أن ينهى عن منكر، ولا يخجل أن يُبدِي رأياً أو يَقترح أمراً، ولا يخجل أن يمشي بجنب أمه أو زوجته، ولا يخجل من أي فعل أمر الله به، وعلى هذا يُرَبِّي المسلمون أطفالَهم وأبناءهم.

أهمية الحياء:

الحياء أدب في النفس، وسمو في الخُلُق، ورُقِيٌّ في التعامل، يجعل الإنسان مرتاحاً في ضميره ونفسه، وسبباً في راحة غيره، لوفرة أدبه وخلقه، فالحياء

يعطي جمالاً للمؤمن، ويعطي الحياة جمالاً وسعادة وبهجة وطمأنينة، لذلك قال النبي ﷺ: «الحياء خير كله»[1]، وقال: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[2].

فإذا تخلق الناس بالحياء زال الخوف بينهم، فلا يخاف أحدُنا من حِدَّةٍ وغضب ونَفْرَةٍ تُفاجِئُه؛ إذا كان مع أهل الحياء، ولا يتوقع ردة فعل تؤذيه منهم أو تُذِلُّه أو تجرح نفسه.

فالحيِيُّ لا يجرح الشعور عند الآخرين، ولا يتصرف ما يؤذيهم، فضلاً عن أنه لا يظلم ولا يتطاول ولا يأكل حق غيره.

ومن جهة أخرى فالحياء يعطي صاحبه عزة بالحق وشهامة، فلا يقبل على نفسه أن يعتدي على حق الله، ولا يقبل التطاول بالباطل، فيمنعه حياؤه مما حرم الله ومما يغضب الله.

ومن جهة أخرى فالحياء يمنع صاحبه مما يحط كرامته بين الناس، لذلك فإذا أراد أحد أن يستدرجه إلى منكر أو يستغله في باطل أو يخاجله أو يحرجه بأن يضعه في موقف خسيس؛ فإن حياءه يحميه من ذلك، فيحافظ على كرامته وعفته وطهارته وعزته ومكانته وهيبته.

لذلك كان الحياء عنواناً لحسن الخلق، ورمزاً للصلاح، إذ لا يتحقق الإنسان بالحياء؛ إلا وقد تحقق بالأخلاق كلِّها قبله، لذلك كثيراً ما يطلق اسم «الأدب» و «حسن الخلق» على الحياء.

فحينما ترى أن النبي ﷺ ذكر حسن الخلق في مقابل الفحش والبَذاءة، فكأنما يقصد به الحياء، قال ﷺ: «ما من شَيءٍ أَثْقَلُ في ميزَانِ المُؤمِنِ يَومَ القِيامة

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٧ عن عمران بن حصين ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٦ ومسلم رقم ٣٧ عن عمران بن حصين ﷺ.

من حُسْنِ الخُلُقِ، وإِنَّ الله يُبغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ[1]»[2]، وحينما جعل حسن الخلق في مقابل التَّشَدُّق والثَّرثرة والتَّفَيْهُق؛ فكأنما يقصد الحياء وما يترتب عليه من أدب في الكلام، قال ﷺ: «إِن مِنْ أَحَبِّكُم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجلساً يَومَ القِيَامَةِ؛ أَحَاسِنكُم أَخلاقاً، وإِنَّ أَبَغضَكُم إِلَيَّ وَأَبْعَدكُم مِنِّي يومَ الْقِيامةِ؛ الثَّرْثَارُونَ والْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ[3]» قالوا: يا رسول الله قَدْ عَلِمْنَا الثَرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفيهِقُونَ؟ قال: «الْمُتكَبِّرُونَ»[4].

وجوب الحياء والترغيب في التخلق به:

الحياء نابع من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «الحياء من الإيمان»[5]، قال ذلك حينما «مَرَّ النبي ﷺ على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحْيِي، حتى كأنه يقول: قد أضّر بك[6]، فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن الحياء من الإيمان»[7].

(١) (البِذيُّ): هو سليط اللسان، والذي يَتكَلَّم بالفُحْشِ، والكلام الرديء، الذي يذكر فيه العورات والكلمات المستقبحة.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٠٠٢ عن أبي الدرداء ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) (الثَّرثَارُ): هُوَ الذي يكثر من الكلام بما لا ينفع، ويتكلف أن يتكلم، (وَالْمُتَشَدِّقُ): هو الذي يتطاولُ عَلى النَّاسِ بِكَلامِهِ، ويتفاصح بما يشعر الناس وكأنه أعلم منهم، (وَالْمُتَفَيْهِقُ): الذي يتصنع في عباراته، ويتكلف في ألفاظه ومخارج حروفه، ليشعر الناس أنه أفهم منهم وأكبر وأفضل.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٠١٨ عن جابر بن عبد الله ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٤٨٢ عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٧ ومسلم رقم ٣٦.

(٦) أي سبب له ضرراً لكثرة حيائه.

(٧) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٧ ومسلم رقم ٣٦ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فالحقائق الإيمانية تقتضي من المؤمن أن يكون حَيِيّاً، لذلك لا ينتج عنه إلا خير، كما قال النبي ﷺ: «الحياء خير كله»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[2]، فمن كان حريصاً على الإيمان والخير؛ يجب أن يكون حريصاً على الحياء، وإنْ فَقَدَ الحياءَ فذلك دليل على نقصٍ في إيمانه وخيريَّته.

ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: «كان النبي ﷺ أشد حياءاً من العَذْراء في خِدْرها[3]»[4]، وتخلُّقُ النبي ﷺ بالحياء دليل على جمال الحياء ولطفه وعظمته، والنبي ﷺ يتخلق به على أعلى درجاته، وأرق حالاته، فإذا كانت البناتُ الصغيرات العفيفات الأديبات هنَّ أكثرَ الناس حياءاً، فالنبي أكثر حياءاً منهن، وإذا كانت أبلغُ حالات الحياء عند البنات حالتَها وهي بنت بِكْرٌ عَذْراء، يُجعلُ لها خِدْرٌ داخل بيتها، يَحجُبها عن إخوانها من حيائها منهم، فالنبي ﷺ يستحيي من الناس ويستحيي مع الناس أكثر من ذلك، فما أَرَقَّ نفسَه، وما أسمى أدبَه، وهو قدوتُنا، فلنحرص على مِثْل حيائه.

ـ والحياء أخذٌ بالأفضل والأعلى والأقوى، فيدخل في أمر الله سبحانه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٧ عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٦ ومسلم رقم ٣٧ عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) كان من عادة العرب أن يجعلوا للبنت داخل بيتها خِدْراً أي خِباءاً، أي جانباً من البيت مستوراً بستارة، فتجلس البنات فيه، خجلاً وحياءاً من أبيها وإخوانها، وحتى تكون على حالة تأخذ راحتها ولا تتقيد لوجود الذُّكور معها، وهذه العادة نشأت من شدة الحياء الذي فُطِرت عليه البنت والمرأة، وهذا مما يستغربه كثير من أهل زماننا، لأن مجرمين ومفسدين عَمِلُوا طويلاً على نَزْع الحياء من نفوس الناس والبنات، فنشأت كثير من البنات على الوقاحة وقلة الحياء، وهذا مما أذهب ـ في زماننا ـ كثيراً من جمال المرأة وأنوثتها وفطرتها وميزتها التي ميزها الله بها.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٣٣٦٩ ومسلم رقم ٢٣٢٠.

تحريم الوقاحة والرعونة[1] والفحش وسوء الخلق وقلة الأدب ونقص الحياء:

ـ قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى؛ إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[2]، فالنَّفْسُ الإنسانيةُ إذا خَلَتْ من الحياء؛ يمكن أن يصدر منها أغرب الأعمال والأقوال، وأوقح الأفعال، ويمكن أن تتجاوز كل القيم التي تعارفت البشرية على احترامها، وهذا الذي ترك الحياء وتخلى عنه تصدر عنه تلك القبائح وهو لا يبالي ولا يحس بخطئه ولا يرى اعوجاج نفسه وانحراف مزاجه وسلوكه.

والحديث يبين أن هذا المعنى من المعاني التي جاء بها الأنبياء والرسل، فعلى الرغم من ذهاب كثير من التشريعات وضياع كثير من المبادئ والقيم السليمة؛ فهذا المبدأ من المبادئ التي بقيت في البشرية يتوارثها الناس، رغم بعدهم عن الرسالات المنزلة[3].

ـ وقد بين النبي ﷺ حرمة ترك الحياء، وحرمة الوقاحة والفحش، إذ بين أن وجود الحياء في النفس الإنسانية سبب في توازن الأمور واستقامة الأحوال وجمال الأعمال، وفَقْدُ الحياء سبب في الميل والحَيْف والانحراف والسوء والخطأ

(١) الأرْعَن: الأَحْمَق الذي يسترخي ويسترسل في الحديث فيما لا ينبغي أن يتحدث به، أو يتحدث بشيء لا يليق أن يتحدث به أمام من يجالسهم من أهل الوقار والعلم والمكانة، أو يتحدث بما يَسْتاءُ منه السامعون. والوَقِح: الذي يتصرف بعكس الأدب، ولا يبالي.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٦٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٣) وقد استطاع أهل الفساد والإفساد في زماننا أن يحاربوا الحياء والقيم الثابتة والمبادئ والأخلاق الراقية؛ باسم الحرية، فانفلت الناس من كل قيد ومن كل قيمة، حتى اختل معنى المعروف ومعنى العيب ومعنى الحياء في زماننا كثيراً، وغابت الفطرة عند كثير من الناس.

والاعتداء والتجاوز والوقوع في العيب، فقال ﷺ: «ما كان الفُحْشُ في شيء إلا شانَه[1]، وما كان الحياءُ في شيء إلا زانَه»[2].

ـ وأصحاب الفطرة السليمة والأخلاق القويمة يُعَبِّرُون عن فَقْد الحياء بعبارات تبين لك خطورته وأثره السيء على المجتمع والنفوس، فيقولون: فلان ليس فيه دم، أي ليس فيه شعورٌ، ولا إحساسٌ بالآخرين، ويقولون: فلان ما فيه حياء؛ أي لا يحترم الناس، ولا يُقَدِّر من حوله، ويقولون: فلان لا يحترم نفسه.

ـ وقد تجاوز كثير من الناس المنتسبين إلى الإسلام في زماننا أدب الحياء والعفة، حتى وقعوا في الوقاحة والفحش والمنكرات والكبائر وأعلنوها، فمن ذلك:

- الغناء الماجن[3]، حتى صار المغني يتحدث ويغني بما يستحيي أن يقوله الرجل لزوجته أمام الناس، فيجهر المغني بكلام وقح منافٍ للأدب أمام الملايين.
- تجهر المرأة بفسقها وخلعها لسترها وحيائها، وإظهار مفاتنها وأجزاء من جسدها.
- يدخن المدخن أمام الناس؛ وهو يستحيي أن يأكل حبة فاكهة أمام الناس.

---

(١) (شانه): أي عابه، وجعله معيباً.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٢٧١٢ والترمذي رقم ١٩٧٤ وقال: حسن غريب، وابن ماجه رقم ٤١٨٥، عن أنس ﵁.

(٣) الماجن من الناس: من لا يبالي ما يفعل ولا ما يقول، ولا ما يقال فيه، والغناء الماجن: الذي يقال فيه ما لا يجوز، ويقال فيه ما يجب أن يستحيى منه.

- يعلنون عن نوادٍ ليلية وحفلات ماجنة وأفلام سينمائية وسخافات في الصحف.
- يجتمعون للفرجة إلى العورات والمفاتِن والرقص، على التلفاز أو في حفلات، بدون حياء، وقد يكون الزوج مع زوجته، لا يَغار أحدهما على الآخر أن ينظر إلى عورات الجنس الآخر وإثاراته، وقد يكون الأب وأولاده معه، يربي أولاده على الفسق، ويُعَلِّمُهم قلة الحياء، ويفضح نفسه وميله إلى الفسق والشهوة أمامهم وأمام الناس.
- يختلط النساء والرجال في المجالس والأعراس، مع اللباس الفاضح والمغري والزينة الكثيرة.
- يدخل العريس على النساء ويرقص أمامهن وترقص النساء أمام الرجال، لا خجل ولا حياء ولا عفة ولا أدب ولا دين، وقد يكون الواحد يسمي نفسه ملتزماً ويحرم على نفسه الجلوس مع النساء، ويحرم على نفسه أن يجلس مع ضيفات أمه أو أخته أو زوجته، وإذا به يدخل على النساء يوم العرس فيجلس معهن ويرقص أمامهن، بلا حياء ولا عقل، وهذا أوقح من ذلك، لكن استباحه الناس واعتادوه، ولم يعودوا يرونه عيباً ولا حراماً.

وغير ذلك.. قبائحُ وفواحشُ اسْتَهان بها كثير من الناس في بلادنا، وخرجوا بها عن آداب المسلم وعفته وحيائه، حتى صار يراها المجتمع أمراً طبيعياً مستباحاً.

كيف نتخلق بالحياء ونتحقق به:

أولاً: الأساس الفكري للحياء:

١ . الحياء ـ كغيره من الأخلاق ـ ينبثق عن الحقائق الفكرية الثابتة السليمة،

فمن **عَرَفَ** حقيقة وجود الله، **وعرف** حقيقة عظمةِ الله، **وعرف** حقيقة وجوب الخوف من الله، **وعرف** حقيقة حق الله في أن نتأدب معه وهو يسمعنا ويرانا ويراقبنا، **وعرف** حقيقة الآخرة والثواب والعقاب على الأعمال في الحياة الدنيا، **وعرف** حقيقة حق الله في أن يَحكُم في عباده ويأمر وينهى، **وعرف** حقيقة أن الله بَيَّن لنا ما هو خير ومعروف، وما هو شر ومنكر وعيب؛ **مَنْ عَرَف** هذه الحقائق وآمن بها؛ كانت باعثاً في نفسه للحياء من المعاصي وسيئات الأفعال ومنكرات الأخلاق وقبائح العادات.

فالإيمان وما يرافقه من خشية لله وخضوع لأحكامه يصنع الأدب والحياء والالتزام والاستقامة في كل حال.

ومن فقد الإيمان بهذه المعارف والحقائق؛ فلا يُستغرَب أن يفقد الحياء، ويتواقح ويتجرأ على كل قبيح ومعصية، فما الذي يردعه من السوء والمنكرات؟

قد يبقى عنده خوف من المجتمع وحياء من الناس، فعندئذ لا يترك إلا ما رأوه عيباً، فهو يستحيي من الناس ويخاف منهم، ولا يستحيي من الحق، فإذا اختلت معرفة الحق والباطل، والخير والشر، والزَّيْن والعَيْب، بسبب إعراضهم عن الرسالات الربانية المُنَزَّلة من عند الله، فعندئذ لا يبقى من الحياء إلا مجاملات الناس.

والناس حينما حَكمهم أهل الإفساد والظلم والطغيان وحب المادة والشهوات، وفتحوا لهم باب الشهوات و المنكرات باسم الحريات وإطلاق الحريات؛ حينما حكم هؤلاء في زماننا أوصلوا البشرية إلى اختلال في مفاهيم العيب وانحراف عن القِيَم والمبادئ، فصارت القيم تنهار شيئاً فشيئاً، بتغيير العادات، والتأثير على الثقافات، وإدخال الوهم على العقول والأفكار، فما كانت تستحيي منه البشرية عبر مئات القرون أصبح اليوم من العادات التي

نجد من يفتخر بها، ويدافع عنها، ويَعُدُّها تَطوُّراً طبيعياً أو تَقدُّماً إنسانياً، وما هي إلا الوقاحة والفساد والانحراف والتزوير على البشرية والإغراق لها في ما يهدم أخلاقها ويدمر مجتمعاتها.

لذلك كان الحياء لا يكتمل إلا مع الإيمان.

وإذا وجدنا حياءاً عند غير المؤمن فهو مرتبط بما يراه الناس عيباً أو نَقْصاً، فالمؤمنُ الحقُّ إذا خلا بنفسه لم يختلف العيبُ عنده، وبقي الحياء مما يستحيي منه موجوداً عنده، بينما الكافر إذا خلا بنفسه فقد ذهب من يستحيي منهم، فلا يردعه شيء من أن يفعل ما يشاء، وإذا كان مع الناس فالحياء عنده هو الحياء مما يراه الناس عيباً، فهو يحرص على أن يكون كاملاً في أعين الناس، لا كاملاً في واقع الأمر، ثم إن الكافر والفاسق لا يحمله على الحياء من الناس شيء إلا أن يرتبط بمصالحه الخاصة الدنيوية، فإنه يحرص على الحياء وعدم رؤية النقص فيه حتى لا تفوت مصالحه، أما إذا كانت مصالحه الدنيئة الدنيوية الخاصة لا تتأثر؛ فإنه لا يبالي أن يفعل أي شيء من الجرائم والمنكرات والقبائح وسوء الأخلاق، كما نراه في واقعنا من قبائح ووقاحات لم تعرفها الإنسانية في تاريخها أبداً.

فصارت الفواحش والرذيلة والانفلات والانحلال؛ حرية ومنعاً للكبت.

وصار الإفساد والإثارة وإشغال القلوب بالشهوات؛ ترفيهاً وتسلية وتخفيفاً عن النفوس.

وصارت النوادي الليلة والملاهي العاهرة اقتصاداً ودخلاً وطنياً.

وصار حب المال والاستئثار به والأنانية والبخل عن المحتاجين ومنع الشعوب الفقيرة؛ صار محافظةً على المال، وفناً في إدارة المال، وحقاً خاصاً أو شخصياً في الترف، وسعياً إلى السعادة والغنى والرفاهية.

وصار التدمير الحربي وإهلاك الحرث والنسل؛ تقنية وردعاً.

وصار الالتزام والدفاع عن النفس والقيم والدين؛ إرهاباً ومعاداة للسامية وتدميراً للديمقراطية.

وصار الربا الذي يَظلمُ الفقيرَ ويزيده فقراً، ويزيد الغني غِناً وتَسلُّطاً بغير إنتاج، صار رأسمالية وتقدماً، واقتصاداً راقياً، وعوناً للدول الفقيرة.

وصار الكذب والمكر والخبث سياسة ودهاءاً.

وصارت الرياضة الشرسة أو المُضيِّعة للوقت والمُشغِلة عن العمل والخير؛ بطولة ونجومية.

وصار الاحتيال والنَّصب ذكاءاً وفَهْلَوَة.

وصارت المُحاماة بالتحايل على القانون، والانحراف عن العدالة، والإيقاع بالمغفلين، والتبرئة للمجرمين؛ شطارة وفناً وباباً للرزق.

وصار الحياء ضعفاً في الشخصية وخَوَراً في النفس وجُبناً عن المواجهة.

نرى كل ذلك وغيرَه، مِن صُور فُقدان الحياء والقِيَم في واقعنا، وتسير البشرية إلى مرتبة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولسان حال كثير من الحاكمين والمؤثِّرين فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، فالبشرية تحتاج اليوم إلى إنقاذ فكري وسلوكي وأخلاقي.

٢. إن الإنسان بفطرته يستطيع أن يدرك إلى حد كبير ما هو حسن وجميل، وما هو قبيح، والشرع يسدده في ذلك ويصحح له خطأه ووهمه إن توهم وأخطأ، ولا يجوز أن نبني الحياء على وهم أو تقليد باطل، وبعض الناس قد تعودوا في بعض البيئات على أعراف باطلة أو مخالفة لشرع الله، أو تعودوا على

تقاليد ترهق الناس وتكلفهم بغير نفع أو حق، ونجد الواحد منهم يستحيي أن يخالف هذه التقاليد أو يخرقها أو يتركها، رغم شعوره بفسادها أو إزعاجها، فهذا خجل وحياء باطل، وليس في مكانه الصحيح، ولا ينتفع منه الإنسان، بل يتعب منه في الدنيا ويحاسب عليه في الآخرة[1].

٣. من الدوافع الفِطْرية لخلق الحياء: احترام الإنسان، ومراعاة شعوره النفسي، لا سيما ومتاعب الحياة كثيرة وأخطاء الناس فيها كثيرة، فلا بد من صبر وتسامح وعفو حتى تمضي الحياة بأخف الأضرار وأقل الإزعاج والأذى، والحياء والإغضاء عن الأخطاء والتجاوز فيما يمكن التجاوز عنه يخفف ذلك الأذى النفسي الذي يقع على الناس، لا سيما أن الأذى النفسي يجرح ويؤذي أكثر من الأذى الجسدي.

والفحش والتطاول وعدم مراعاة النفوس يصنع أذى هائلاً بين الناس، يؤدي إلى القطيعة، ويؤدي إلى الحقد والبغض، ويؤدي إلى الكيد، ويؤدي إلى الظلم، والحياءُ هو الذي يحمي من ذلك كله.

وتستطيع أن تتصورَ كَمْ أنَّ نقصَ الحياءِ يؤذي ناساً، ويجعلهم تحت ضغط نفسي هائل طول حياتهم؛ من خلال أمثلة نراها في واقعنا، فتجد ـ مثلاً ـ أعرجَ أو أبرصَ كلما رآه بعض الأشخاص استنقصوه وسخروا منه، وقد يكون هذا

---

(١) ومثال ذلك: ما يفعله بعض أهل الميت من إطعام الناس في العزاء في اليوم الثالث أو الرابع بعد وفاة الميت، والواجب الشرعي أن الناس يطعمون أهل الميت تخفيفاً عنهم، وليس العكس، فيخالفون سنة النبي ﷺ ويرهقون أنفسهم ببذل مال كثير لأجل إطعام الناس، وربما يستدين الواحد منهم لأجل هذا الأمر خوفاً وحياءاً من التقاليد التي يعبدها بعض الناس ويخضعون لها، على الرغم من أنها باطلة، وقد تجد منهم مَن يدعي أنه يُطعِم عن روح الميت، وهو يكذب في ذلك، فلولا التقاليد لَمَا أطعمَ ولَمَا أنفق.

الأعرج أو الأبرص حَسّاساً في نفسه، وقد يغفل عن أن الله تعالى هو الذي ابتلاه بهذا البلاء، فهو لم يفعل شيئاً سيئاً حتى يُذَمَّ عليه، فيتأثر من ذم الناس وسخريتهم ولَمْزِهم؛ فيعيش في عزلة في نفسه، وحزن طويل، قد يدوم سنوات في طفولته، وقد يستمر إلى كِبَره، ويؤثر على سلوكه وتعامله ونظرته إلى المجتمع والحياة، فيراها قهراً وضيقاً، بل قد يتمنى الموت من شدة ما يعاني في نفسه.

ثانياً: البناء العملي والسلوكي للحياء:

١. أعطى النبي ﷺ مقياساً، يصنع الحياء عند من يراعيه، وهو مداراة نظر الناس، ومراعاة تقديرهم لما هو ناقص أو مقبول، فما كان حسناً وطيباً عندهم فيحرص عليه المسلم، وما كان مكروهاً ومستهجناً عند المسلمين فينبغي للمسلم أن يستحيي منه، قال النبي ﷺ: «البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»(١)، ولا يُقصَد بذلك مراعاة جميع الأعراف والتقاليد والاعتبارات، وإنما يراعي منها ما كان عرفاً صحيحاً واعتباراً لا يتنافى مع شرع الله، أما الاعتبارات والأعراف والتقاليد الباطلة شرعاً فلا يجوز مراعاتها ولا الحياء لأجلها.

٢. مما يصنع الحياء: أن ينظر الإنسان إلى التصرُّفات التي يكره أن يتصرَّف بها الناسُ معه؛ فليتركها وليحذر أن يتصرف بها مع غيره، وما كان يستحسنه من الناس في تعاملهم معه فليحرص عليه معهم، قال ﷺ: «ولْيَأْتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(٢)، فإذا كنت تحب من الناس أن يتغاضُوا عن سيئاتك

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٣ عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٨٤٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، =

وسقطاتك وزلاتك؛ فتعامل معهم بمثل ذلك، وإذا كنت تحب من الناس أن لا يسيئوا الظن بك؛ فلا تُسِئْ الظن بهم بغير دليل، وإذا كنت لا ترضى من الناس أن يغتابوك ويذكروك بسوء أو يتهموك بباطل؛ فلا تغتَب ولا تَبْهَتْ أحداً منهم، وإذا كنت لا تحب أن تُسَفَّه أو تُنْتَقَص أو تُكْسَف أو تُغْمَطَ أو يؤذيك أحد بلسانه أو يده؛ فلا تفعل مثل ذلك، وإذا كنت تحب من الناس العفو عنك والإحسان إليك والتلطف بك وإكرامك والكلمة الطيبة معك؛ فافعل مثل ذلك معهم، صغيرهم وكبيرهم، ضعيفهم وقَوِيَّهم، ذكورهم وإناثهم، ضمن الآداب الشرعية في كل ذلك، فكل ذلك من الحياء، وناشئ عن خُلُق الحياء.

٣. مما يصنع الحياء: أن يكون الإنسان منتبهاً إلى أن الله سميع بصير رقيب، فيبقى أديباً مع الله، ويكون أديباً مع خلق الله؛ لأن الله يراه ويسمعه ويراقبه ويحصي عليه، فيكون محسناً في كل تصرفاته، فالإحسان ينشأ عن الانتباه اليقظة والمراقبة، قال ﷺ حينما سأله جبريل: «فما الإحسان؟» قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)]، وحياء العبد من الله يقتضي أن يكون حيياً في كل تصرف مع خلق الله، فلا يخالف فيه الآدابَ والأحكامَ التي أمر بها.

٤. صحبة أهل الحياء الصالحين، فالحياء لا يأتي بالعلم وحده، وإنما تحتاج إلى صحبة أهل الحياء، لترى أحوالهم وأدبهم وتواضعهم ورِقَّتَهم ومداراتهم،

= وهو جزء من حديث يبين أن السبيل للنجاة من الفتن والزحزحة عن النار ودخول الجنة هو أن يموت الإنسان على الإيمان وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه وأن لا ينقض بيعة بالباطل.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩ عن أبي هريرة ﷺ.

وتتعلم منهم مجالات الحياء وأسلوبهم فيه، ودقائق ما يتأدبون به، وقد أمرنا الله بأن نعيش مع الصالحين الصادقين، وأمرنا باتباعهم فيما رَجَعوا فيه إلى أمر الله، فقال سبحانه: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥].

ومن صحب أهل الجَلافَة والجَفاء والدَّناءة والوَقاحَة والخِسَّة والسَّفَه؛ يتأثر بهم، ويفقد ما عنده من الأدب والحياء والرفق والإغضاء.

من آداب الحيي

إذا وُجِدَ الحياءُ في النفس ظهرت آثاره في السلوك، فمن ذلك:

١. من أدب الحيي: **حفظ جوارحه من معصية الله**، فيحفظ المسلم عقلَه من التوجه إلى الباطل، ويحفظ بطنه من المال الحرام، ويحفظ قلبه من الغفلة والتعلق بالدنيا، قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء»، قلنا: يا نبي الله إنا لنستحيي، والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء؛ أن تحفظ الرأس وما وَعَى، وتحفظ البطن وما حَوَى، وتتذكر الموتَ والبِلَى، ومَنْ أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1].

٢. من أدب الحياء: **أن يستر الإنسان على نفسه**، فلا يخبر أحداً بذنوبه وأخطائه، ولو كان أقربَ الناس إليه، ولو كان بعد التوبة من الذنب بعشرات السنين، فالمسلم يُبقِي سِتْر الله عليه، ويَستحيي من أن يفضح نفسه، أو يَكْشِف سِتْر الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد سَتره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف سِتر الله عنه»[2].

فمِن الوقاحة أن يفضح الإنسان نفسه.

ومن الجَراءَة على الله والاستخفاف بأوامره أن يفشي ذنبه ويتبجح به ويفتخر به أمام الناس.

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٣٦٧١ والترمذي رقم ٢٤٥٨ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٢١ ومسلم رقم ٢٩٩٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن الحقارة والخسة والإذلال للنفس أن يكشف الإنسان عيوبه لغيره.

ومَن فَقد الحياء صار وقحاً وماجناً يجاهر بقبائح فعاله، دون أن يبالي بأحد، ودون أن يكترث بما يقولونه وبما يعيبونه وبما ينتقصونه ويحتقرونه في أنفسهم.

حتى إذا اضطر المسلم أن يستفتي عن ذنب له؛ فعليه أن لا يُصرِّح للعالِمِ بأنه فاعل الذنب، بل يسأل السؤال من غير أن ينسبه إلى فاعله، إلا عند الضرورة.

ومن حياء العالِمِ إذا فهم أنه الفاعل أن يتغافل عن ذلك، ولا يجابهه بذلك.

٣. من أدب الحيي: أن **لا يرفع صوته فوق حاجة السامعين**، ولا يصيح كما يصيح السفهاء، **ولا يتكلم بالكلمات النابية، ولا يرد بالسوء على أهل السوء**، فإذا فعل الناقص مع أهل الحياء فعلاً معيباً مشيناً؛ فالحيي لا يرد عليه بمثله، بل يرد عليه بما يليق بأدبه وخلقه وحيائه ورتبته، عن عائشة قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»(١)، وأمر بالهدوء والرتابة في المساجد قال رسول الله ﷺ: «وإياكمْ وهَيْشاتِ الأسواق»(٢)، فيجب أن يكون في المسجد تنظيم واحترام وتقديم لأهل الفضل، وعدم الصخب والضجيج

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢١٦ وابن حبان رقم ٦٤٤٣ عن عائشة رضي الله عنه، وأخرج نحوه البخاري رقم ٢٠١٨ و ٤٥٥٨ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، في حديث يذكر بعض أوصاف النبي ﷺ في التوراة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٤٣٢ والترمذي رقم ٢٢٨ عن عبد الله بن مسعود ﷺ ونص الحديث عند مسلم: «لِيَلِني منكم أولوا الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم، ثلاثاً، وإياكم وهيشات الأسواق» وفي رواية لمسلم: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم...».

والهيجان واللغط والفوضى والتسابق على الإمامة والصف الأول كالتسابق على بيع البضائع في السوق.

٤. من أدب الحيي: **الاستحياء من أخطاء الآخرين حينما يقعون فيها أمامك؛ كما لو أنك أنت الذي أخطأت**، وعدم مواجهتهم بعيوبهم مباشرةً، ومغفرة زلاتهم والتجاوز عن عثراتهم، ويكون موقفُ الحيِيِّ من الخطإ مُشعِراً بالمعاتبة للمخطئ، عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءاً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»(١)، فحتى المخطئ لا يحب ﷺ أن يواجهه ويصارحه بخطئه؛ حياءاً منه واحتراماً للمسلم مِن أنْ يكسِر خاطرَه أو يُخجِله.

وإذا كان الأمر مما لا يجوز السكوت عليه؛ لم يصرح بمواجهة المخطئ، بل يخاطب الجَمْع بالتعميم والتنبيه والتحذير، بما يُؤدِّب المخطئَ وغيره، وقد كان النبي ﷺ إذا رأى أمراً فيه لم يعجبه قام فخطب أو تحدث فقال: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ويفعلون كذا وكذا(٢)، فالحياء لا يضيع الحق، ولا يعني السكوت عن الباطل والاعتداء.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٣٦٩ ومسلم رقم ٢٣٢٠.

(٢) ومن تلك المواقف التي عَرَّض فيها النبي ﷺ بالمسيئين من غير أن يُسمِّيَهم: قوله ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتهن عن ذلك أولتخطفن أبصارهم» أخرجه البخاري رقم ٧١٧، وقوله: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه مسلم رقم ١٤٠١، وقوله ﷺ: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط، كتاب الله أحق وشرط الله أوثق» أخرجه البخاري رقم ٤٤٤ ومسلم رقم ١٥٠٤، وقوله ﷺ: «ما بال أقوام إذا غزونا يتخلف أحدهم عنا، له نبيب كنبيب التيس، ولم يقل في عيالنا» مسلم ١٦٩٤، وفي رواية: «إِنَّ اللهَ لَا يُمْكِنِّي مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالاً أَوْ نَكَّلْتُهُ».

٥. من أدب الحيي: **سَتر عورته أمام الناس وفي الخَلَوات**، قال رسول الله ﷺ: «إن موسى ﷺ كان رجلاً حَيِياً سِتِّيراً، لا يُرى شيءٌ من جلده استحياءاً»(١).

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ قال قلت: يا نبي الله، عَوراتُنا؛ ما نأتي منها وما نَذَر، قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»، قلت: يا رسول الله؛ إذا كان القوم بعضهم في بعض(٢)، قال: «إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يراها»، قال قلت: يا نبي الله، إذا كان أحدنا خالياً، قال: «فالله أحق أن يُستحيا منه من الناس»(٣).

وأخذ بعض العلماء من هذا الحديث أنه على الرغم من جواز نظر الزوجين إلى بعضهما؛ فمِن الأدب أن لا ينظرا إلى العورة المغلظة منهما، وذلك من كمال الذوق والحياء، ومن السُّمُوِّ في الأخلاق.

وعن يَعْلَى ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَراز(٤) فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حَيِيٌّ سِتير، يحب الحياء والتستُّر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢٢٣ ومسلم رقم ٣٣٩ عن أبي هريرة ﷺ، ولفظه عند مسلم: «رجلًا حيياً فكان لا يُرى متجرداً».

(٢) وفي رواية أخرى عند الترمذي رقم ٢٧٦٩: الرجل يكون مع الرجل.

(٣) حديث حسن، أخرجه أحمد ٥/ ٣ و ٤، والترمذي رقم ٢٧٩٤ وأبو داود ٤٠١٧ نحوه، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وذكر البخاري العبارة الأخيرة: «الله أحق أن يستحيا منه» تعليقاً قبل حديث رقم ٢٧٤.

(٤) أي في الفضاء من غير تَسترُّ، وكذلك جاء في رواية أبي داود: «بالبراز بلا إزار».

(٥) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٠١٢ والنسائي رقم ٤٠٦، وفي رواية عند النسائي أن الرسول ﷺ قال: «إن الله ستير، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل فليتوارَ بشيء».

والله تعالى سمى العورة عورة وسَوْأَة، لأنها مما يجب أن يستحيي الإنسان من إظهاره والنظر إليه، وجعل الله الإنسان بفطرته يستحيي من ذلك، لكنَّ الذين تعطلت فطرتهم وماتت أذواقهم ـ في زماننا ـ رجعوا بالبشرية إلى التخلف والعصور البدائية فصاروا يكشفون العورات، ويزينون ذلك، ويَدَّعونه جمالاً وتطوُّراً، وما هو إلا الفحش والإفساد والإغواء للبشرية.

ولا يدعو إلى التكشف والعُرْيِ ونزع اللباس إلا شيطان، من شياطين الإنس والجن، الذين يخالفون أمر الله ويكذبون عليه، كما أخبر الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

٦. من أدب الحيي: **أنه يراعي نفوس الآخرين، ويراعي فهمهم، ولا يجرح شعورهم**، فإذا فهموا شيئاً على غير حقيقته، أو تأذوا من شيء لا عيب فيه؛ أبدى المسلم مبرراتِ تصرفِه وكلامِه، حتى يزيل الفهم الخاطئ والحرج والوَحْشة من نفوسهم تجاهه، وإذا اقتضى الأمر أن يعتذر إليهم من تصرفه على الرغم من أنه لم يخطئ؛ فالمسلم لا يتكبر عن ذلك، عن الصَّعبِ بنِ جَثَّامَةَ رضي الله عنه قال: أَهْدَيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ حِماراً وَحْشِياً(١)، فَرَدَّهُ عليَّ، فلماّ رأَى مَا في وَجْهي

(١) أي كان قد اصطاده، وهو غير مُحْرِم، لكن رسول الله ﷺ كان مُحْرِماً، والمُحرِم لا يجوز له الصيد.

قالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلاَّ لأَنَّا حُرُمٌ»(١)، فبين له ما يزيل حزنه أو استغرابه لعدم قبول ضيافته، تلطفاً به وحياءاً معه.

٧. من حياء المسلم: **أن يترك السؤال وطلب المال من الناس** على الرغم من حاجته، ويصبر ما استطاع، تعففاً وحياءاً قال تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، فإذا احتاج يلجأ إلى الله أولاً، ثم إذا اضطرَّ فإنه يسألُ الناس مع الحياء والخجل، ولا يطلب فوق ضرورته، ومِن قلة الحياء أن يطلب الإنسان وهو يستطيع الاستغناء عن الطلب والسؤال والشحادة، لذلك كانت عقوبة من يَسألُ وهو قادر على الاستغناء؛ أن لا يبقى في وَجْهه قِطعةُ لحمٍ ولا جلدٍ يوم القيامة، كما هو نَزع حياء وجهه في الدنيا، قال ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعَةُ لحم»(٢).

ومن حَياء الأمَّة الإسلامية أن تنتبه إلى المحتاجين من أبنائها، وتعطيهم، ولا تحيجهم إلى السؤال، فمِنَ الوقاحة والجفاء والجلافة ومن قلة الحياء أن تعلم بالفقير، وتشعر بأنه محتاج، وأنت قادر على إنقاذه وقضاء حاجته؛ ثم تتجاهل، ولا تُبالي، ولا تُحِسُّ، وكأنك لا تعلم، أو كأن الأمر لا يهمك ولا يعنيك.

٨. **لا يجوز للمسلم أن يربي أبناءه على الوقاحة والجسارة**، فيعلمهم التجرؤ على الناس، أو الرد على الإساءة بأكثر منها، أو التطاول والتكبر على الآخرين، فقد ذكر الله تعالى لنا في وصية لقمان لابنه ما يجب أن نربي عليه أبناءنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ(٣) لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٧٢٩ ومسلم رقم ١١٩٣.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٤٠٥ ونحوه مسلم رقم ١٠٤٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ﴿لا تصعر خدك﴾: أي لا تمِلْ بوجهك وتشيحُ به عن الآخرين تكبراً.

والولد حينما يفعل بعض القبائح والوقاحات والإزعاجات والتخريبات؛ يريد أن يلفت أنظار الناس إليه، أو يريد أن يشعرهم بالتعالي عليهم، أو يريد أن يشعرهم بالعناد وعدم التسليم لهم وعدم التقدير لتعليماتهم؛ فواجب الوالد وجميع المجتمع أن يشعره بخطئه في تصرفه، ولا يجوز لوالديه أو لأحد من الناس أن يمدح الطفل أو الولد في تصرفه المشين، فذلك يربي فيه الوقاحة وقلة الحياء ويربي فيه التكبر والظلم والعناد، ولا يجوز لأحد أن يمدحه في تصرفه ذلك، كأن يقول له: بطل، أو يقول: أريدك هكذا رجلاً، أو يقول: أنت جَذَع؛ فذلك إفساد للطفل، وتخريب لنفسيته.

ومن ذلك أن بعض رفاق السوء يشجعون بعض الطلاب على المشي وسط الشارع، ويصفون ذلك بأنه شجاعة وبطولة ورجولة، ويشجعون بعض الأولاد والأطفال على التدخين أو شرب الخمر، ويُوهمونهم أنه رجولةٌ وقوةُ شخصيةٍ أو نخوة وشهامة، أو يشجعونهم على الحديث مع البنات، وأنه فخر وعمل عظيم وشبابية ورجولة ولطافة وظرافة، فواجب المجتمع جميعِه مع الوالدين والمعلمين أن ينظروا إلى هذه المنكرات بعين التحقير والتخطئة، ويبينوا ما فيها من قلة الحياء، لِيَحْموا المجتمعَ من المعصية والتَّجاوز والوقاحة.

المبحث التاسع

الرحمة والإحسان
وترك الشدة والقسوة والإساءة

معنى الرحمة:

الرحمة: هي رقة في القلب تجاه الآخرين، تَحْمِلُ صاحبها على التألم لآلامهم، والانزعاج لما يصيبهم، والرغبة في إزالة الآلام وأسبابها عنهم، وتَحْمِل صاحبها على السرور والفرح لفرح الآخرين، ومشاركتهم في فرحهم، والرغبة في بقاء الفرح وأسبابه عندهم.

ويدخل في خلق الرحمة أمور كثيرة، منها: اللين واللطف والعطف والعفو والصفح والسماحة والرفق والإحسان إلى الآخرين في المعاملة والكلام(١).

والرحمة عواطف وانفعالات باطنية، إذا وجدت في القلب ظهرت لها أثار سلوكية ظاهرة كثيرة، فعنها تصدر الدعوة والرغبة في هداية الضالين والكافرين خشية أن يُعذَّبوا، وعنها يصدر بر الوالدين والإحسان إليهما، وعنها تصدر صلة الرحم والإحسان للزوجات والأبناء والأقارب، وعنها تصدر الأُخُوَّة والتعاطف بين الإخوان والأصحاب والجيران وبين المسلمين بوجه عام، ومن مظاهرها وآثارها: إكرام اليتيم، والعطف على الفقراء والمساكين والخدم والضعفاء والمرضى والعجزة وذوي الحاجات وذوي المصائب، ومن مظاهرها: الإحسان إلى الآخرين، والتعاون على الخير معهم، ولين الجانب، والعفو والصفح عن المسيء، والشفاعة الحسنة، والنصيحة الخالصة، وغير ذلك.

(١) وما ذكرناه من آداب في خلق العدل يُعَدُّ من أعظم أبواب الرحمة والإحسان.

وهذه الأثار السلوكية منها ما هو فرض لا بد منه، ومنها ما هو مندوب محبوب.

وجوب التخلق بالرحمة وأهميتُها:

- هذا الخُلُق مِن أعظم الأخلاق، وأرقاها، وهو الذي يصنع السعادة والفرح، ويخفف الآلام عن البشرية، ويدفع إلى التعاون والتناصر على الحق بين الناس.
- والرحمة خُلُق واجب، لذلك يمنع الله رحمته مَنْ لم يكن رحيماً، قال ﷺ: «مَن لا يَرحَم لا يُرحَم»[(١)]، وقال ﷺ: «مَن لا يَرحَمِ الناس لا يَرحُمه الله»[(٢)]، وجعل الله رحمتكق للخلق سبباً في رحمة الله لك، قال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[(٣)]، وقال ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِط متصدق موفق، ورجل رحيمٌ رقيقُ القلب لكل ذي قُرْبى ومسلمٍ، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ»[(٤)].
- وقد بيَّن النبي ﷺ الأثر العظيم للرحمة في الأمة الإسلامية، فهو يجعلها جسماً واحداً ونسيجاً واحداً وأمة واحدة، كالجسد الواحد، فقال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٥١ ومسلم رقم ٢٣١٨ عن أبي هريرة وجرير بن عبد الله رضي الله عنهما، وفي معناه حديث: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» وهو حديث حسن، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٣٦٨ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٣١٩ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، والبخاري رقم ٦٩٤١ عنه بلفظ: «لا يرحم اللهُ من لا يرحم الناس».

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٩٢٤ وقال: حسن صحيح، والحاكم رقم ٧٢٧٤ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد»[1]، ومعنى الحديث أنه لا يجوز للمؤمنين إلا أن يكونوا كذلك؛ يُحبُّ بعضهم بعضاً، ويرحم بعضهم بعضاً، ويعطف بعضهم على بعض، وكما يتألم الجسم لإصابة أي عضو منه، فيسعى الجسم كله في علاجه وإزالة آلامه وأسبابها، كذلك يتألم كل المسلمين لما يصيب أيَّ مسلم، ويسعون لنصرته وإزالة الأذى والمصاب عنه، ومن أصابه منهم خير؛ يفرحون له، كما يفرح الإنسان لنفسه إن أصابه خيرٌ، أو اندفع عنه شر.

- وكلما كان الإنسان في منصب أعلى ومسؤولية أكبر؛ يجب أن تكون رحمته أوفر وأعظم، ليستعمل إمكاناته في رحمة الناس والإحسان إليهم ودفع الأذى والشر عنهم، لذلك جعل الله نبيه محمداً ﷺ أعظم مَن يملك الرحمة، ويتعاملُ بها مع المؤمنين ومع الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فيزعجه ما يشق على المؤمنين، ويحرص على مصالحهم وهدايتهم وخيرهم وراحتهم، ويتلطف بهم ويعطف عليهم ويحنو عليهم ويحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم.

وجعله الله رحمة عامة للناس أجمعين، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكل الناس ـ كافرهم ومؤمنهم ـ ينال من رحمته ورِقَّته، ومن رحمته هذه يحرص على هداية الخلق جميعاً، وينزعج من ضلالهم وتَعَرُّضِهم لعذاب الله ببقائهم على الكفر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ[2] عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٦٥ ومسلم رقم ٢٥٨٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) ﴿باخع﴾: قاتل، ﴿أسفاً﴾: جزعاً وحزناً.

ﵟٱلۡحَدِيثِ أَسَفًاﵞ [الكهف: ٦]، فأراد الله تعالى أن يخفف على نبيه ﷺ انزعاجه من بقائهم على ما يَضُرُّ بهم، فهم لم يرحموا أنفسهم، وهم الذين اختاروا الكفر والضلال، فإذا انزعجْت رحمةً بهم؛ فلا ينبغي أن يصل ذلك إلى حد تؤذي به نفسك لأجلهم أو تهلكها أو تقتلها.

- ومدح الله تعالى أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام الذين كانوا معه بالرحمة، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةً وَرَحۡمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].
- فالله تعالى يريد منك قلباً رحيماً، يَرِقُّ للضعيف، ويتألم للحزين، يحنو على الصغير والمسكين، ويمد يده إلى الملهوف، يبتعد عن الجريمة والظلم والأذى، يكون أماناً وسلاماً ورفقاً لمن حوله.
- والله تعالى قد بشَّر القلوب الرحيمة الصافية البيضاء التي فاضت بالخير والرحمة والبر والإحسان بأنها تستحق الرحمة من الله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

ـ ولأن الرحمةَ لها عظيمُ الأثر في الأمة وأفرادها، وفي صلاحِها والتخفيف من آلامها؛ فقد أمر الله المؤمنين بأن يُذَكِّروا بعضهم بالرحمة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

ـ وكما أمر الله بالرحمة فقد حرم ما يقابلها، **فحرَّم الله الشدة والفظاظة والغلظة**، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وبينت الآية أن لينه ولطفه ﷺ نابع عن خلق الرحمة الذي أمده الله به.

كيف نتخلق بالرحمة:

- جعل الله **الرحمة فطرة** في النفس البشرية، بل حتى في نفوس الحيوانات والوحوش، فمن خرج عن الرحمة إلى القسوة والشدة والغلظة فقد خرج عن فطرته، قال ﷺ: «إِنَّ لله تَعَالى مائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ والإِنْسِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوامِّ، فَبهَا يَتَعاطَفُونَ، وبها يَتَراحَمُونَ، وَبها تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تَعالى تِسْعاً وتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بها عِبَادهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» (١).
- والرحمة تنشأ عن الإيمان، وذلك أن المؤمن بالله يُعظِّم اللهَ ويعترفُ لله بأنه كلفه بتكاليف، منها تكاليف تتعلق بالتعامل مع الناس، والمؤمن باليوم الآخر يعلمُ أنه ينتظره حساب بين يدي ربه، فيدفعه ذلك إلى الالتزام بالآداب والمعاملات التي أمره الله بها، مِنْ رحمة وإحسان وغيره.

فمن فقد الإيمان فطبيعي أن يفقد الرحمة والإحسان، ومن آمن فالطبيعي أن يكون رحيماً، لذلك وصف النبيُّ ﷺ أهلَ اليمن بأنهم أهلُ الإيمان، ووصفهم بأنهم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوباً(٢).

وذمَّ اللهُ تعالى أصحابَ القلوب الغليظة القاسية، التي لا رحمة فيها لأنفسها ولا لغيرها، والتي لا تعترف بحق الخالق، فكيف تعترف بحق المخلوق؟ والتي تُزوِّر الحقائق عن الخالق، فكيف لا تتجاهل حاجة المخلوق؟ والتي لا تعطي

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١٠٤ ومسلم رقم ٢٧٥٢ عن أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤١٢٧ ومسلم رقم ٥٢ عن أبي هريرة ﵁، ونص الحديث: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يَمان، والحكمة يمانية، والفخر والخُيَلاء في أصحاب الإبل، والسَّكِينة والوَقارُ في أهل الغنم»، والحديث يدل على أن لأهل اليمن مزية زائدة في الرحمة.

الله حقه، فكيف ستعطي المخلوق حقه؟ والتي لا تسعى لرحمة أنفسِها بين يدي الله، فكيف ستحرص على رحمةِ غيرِها من الناس؟ فهؤلاء الذي خَلَتْ قلوبُهم من اللين والرحمة والإحساس حتى صارت كالحجارة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ (١) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

- الإنسان لا يستطيع أن يعيش في الأرض وحده، فهو يحتاج إلى الناس، والناس يحتاجونه، وكل إنسان قد يمر بشدة وحاجة وبؤس وبلاء وفقر وضعف وهرم، فإذا جعل الناس قاعدتهم ومنهجهم أن يتركوا المحتاجين والضعفاء، ولا يقوموا بهم؛ فإنَّ مَنْ كانوا قادرين وأغنياءَ حينما يحتاجون سيجدون الناس يعاملونهم بمثل ما عاملوا به الضعفاء والمحتاجين من

(١) أمر الله نبيه أن يتجاوز عن اليهود حينما ظهر له رغبتهم بالخيانة والغدر والاعتداء والأذى، وذلك حينما لم يكن قد ظهر فعلهم، وإنما بقي نية ورغبة، وبين الله ـ حينما ختم الآية بذكر الإحسان ـ أن العفو عنهم والتجاوز وعدم التعرض لهم هو من باب الإحسان والرحمة والمسامحة والتجاوز، لا من باب العدل، فهم يستحقون العقاب وقد ظهرت نيتهم، لكن أَمَرَ الله نبيه ﷺ بالعفو تأليفاً لهم وإمهالاً لهم وإقامة للحجة عليهم؛ لعلهم يراجعون أنفسهم، ويرون إحسانه ﷺ عليهم، فيؤمنوا ويتوبوا، فإن لم يتوبوا فسيأتي اليوم الذي تظهر فيه اعتداءاتهم؛ فعندئذ يأمر الله بعقابهم والاقتصاص منهم ومقاتلهم، وقد جاء ذلك الوقت، فأمر الله بقتالهم ما لم يُسْلِموا أن يخضعوا ويدفعوا الجزية، في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

الإهمال والتطنيش والقسوة، وأما إذا جعل الناس منهجهم أن يرحموا ضعيفهم، فإن القوي إذا ضعف، والغني إذا افتقر، والصحيح إذا مرض؛ يجد من يُحِسُّ به ويرحمه ويعينه ويتلطف به ويقوم به.

فإذا تذكَّر الإنسانُ أن الحاجة إلى الرحمةِ وآثارِها متبادَلة، وإذا تذكر الإنسان أنه يحتاج إلى رحمةِ غيرِه؛ دفعه ذلك إلى أن يرحم غيره، حتى يسخر الله له عند حاجته من يرحمه، فالله يرحم الرحماء.

- والله سبحانه ما خلق الدنيا لتكون عذاباً لأحد من الناس، وإنما جعل ما يصيب الناس ابتلاءاً واختباراً للناس في علاقتهم مع الله، وفي علاقتهم مع بعضهم، هل يرحم بعضهم بعضاً، أم يعتدي بعضهم على بعض، هل يعدل أم يظلم، هل يحسن أم يسيء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

- مما يعين على تخلق الإنسانِ والمجتمعِ المسلم بالرحمة: أن يتواصى الناس بالرحمة، فإذا صار كل إنسان يوصي أخاه بالرحمة والصبر في كل موقف يحتاج إلى رحمة وإحسان وتحمل وصبر؛ فذلك التذكير والتواصي ينمي الرحمة في القلب ويدفع إلى السلوك الرحيم مع الآخرين، على الدوام، لذلك بين الله أن هذا التواصي هو من صفات المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

- وحتى تستقر صفة الرحمة عند المسلم؛ لا بد أن يقوم بآداب الرحمة وأعمالها في مواضعها التي أمر الله بها:

من أدب الرحيم والمحسن

أمرنا الله تعالى بالرحمة والإحسان، ونبهنا إليه في حالات كثيرة، فينبغي على المسلم أن يتحلى بالرحمة، ويأتي بهذه الأعمال الرحيمة التي أوجبها الله أو ندبنا إليها، ومن هذه المظاهر الرحيمة:

١. من أدب الرحيم: **أن يستجلب الرحمة لنفسه؛ بطاعة الله ورسوله ﷺ**، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣١-١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦].

٢. ومن أدب الرحيم: **رحمته بنفسه، بالستر على نفسه وذنوبه وعيوبه**، وقد أوجب الله علينا الستر على أنفسنا وعدم فضحها وعدم إشاعة أخطائنا أو المجاهرة بها، قال ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف سِتر الله عنه»(١).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقضِ فيَّ ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق، فأَتْبَعه النبي ﷺ رجلاً دعاه، وتلا عليه هذه الآية ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٧٢١ ومسلم رقم ٢٩٩٠ عن أبي هريرة ﷺ.

ﵟذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَﵞ[هود:١١٤]، فقال رجل من القوم: يا نبي الله؛ هذا له خاصة، قال: بل للناس كافة(١).

٣. ومن أدب الرحيم: **الرحمة بالوالدين**، ومعاملتهما بألوان الإحسان والطاعة والإكرام، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣ والنساء: ٣٦ والأنعام: ١٥١ والإسراء: ٢٣]، وقد أوجب الله تعالى أن يصل بر الوالدين إلى أقصى درجاته، بحيث يكون كما قال سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فأوجب أن ننطلق من الرحمة في التعامل معهما، فنستخرج من الرحمة ذلاً وتواضعاً لهما، ثم نجعل لهذا الذل جناحاً، كأنما نحملهما عليه ونطير بهما، من شدة الترفق والتلطف بهما، ونجعل أنفسنا تحت هذا الجناح الذي نحملهما عليه(٢).

٤. من أدب الرحيم: **الرحمة بالزوجات والبنات والنساء**، فقد أمرنا الله بالإحسان إليهنَّ، ومداراتهن والشعور بضعفهن، فحذرنا من استضعاف النساء، والاعتداء على حقوقهن وأموالهن، فنهى الله تعالى عن أكل مهر النساء وميراثهن، ونهى عن منعهن من الزواج بالكفؤ، ونهى عن منعهن من الرجوع إلى أزواجهن بعد فِراقٍ بغير سبب شرعي وجيه، ونهى عن إجبار البنت على الزواج ممن لا تريد(٣).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٦٣.

(٢) وسيأتي تفصيل ذلك في الحديث عن بر الوالدين.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]، وقال: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] وقال: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ [النساء: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقد جعل الله تعالى سورة باسم «النساء» إشعاراً بواجب رعاية حقوقهن ونصرة قضاياهن، ومنع

٥. ومن أدب الرحيم: **الرحمة بالزوجة والإحسان إليها**، كما أمرنا النبي ﷺ، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ[1]، وإن أعوجَ شيءٍ في الضِّلَع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»[2]، وقال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوانٌ[3] عندكم»[4].

وقد بين الله تعالى أن من مقصود الزواج التراحم بين الزوجين فقال عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، والآية وصف يفيد الأمر، أي يجب أن يكون بينهما تراحم وتواد، فكل واحد منهما يرحم الآخر ويعامله بالحب والمودة والإكرام واللطف، كما يحب أن يُعامَل[5].

وكيف تُبْنَى أسرة، وكيف يستقيم بيتٌ، وكيف يجدُ أهلُه الراحةَ والسعادة؛ إلا بالتراحم والتعاطف والتعاون والمودة بين الزوجين.

٦. من أدب الرحيم: أن **يعاون أهله في أعمال البيت ويخدمهم عند الحاجة**، ولا يتكبر عن ذلك، لا سيما إن احتاجوا إلى خدمته ومساعدته لمرض أو انشغال أو مصيبة أو غير ذلك، عن الأسود قال: سألتُ عائشة: ما كان النبي

استضعافهن وظلمهن، وسيأتي مزيد تفصيل حول هذه القضايا فيما بعد.

(١) (ضِلَع) و(ضِلْع): هو العظام الرقيقة المحنية كالتي تكون في القفص الصدري.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٨٩٠ و ٣١٥٣ ونحوه عند مسلم رقم ١٤٦٨ عن أبي هريرة ﵁

(٣) (عوانٌ): جمع عانية، وهي الأسيرة.

(٤) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ١١٦٣ وقال الترمذي: حسن صحيح، عن عمرو بن الأحوص ﵁.

(٥) وسيأتي تفصيل في التعامل مع الزوجات.

ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة[1].

٧. من أدب الرحيم: **التلطف بأبنائنا وأطفالنا والعطف عليهم والبسمة في وجوهم وتقبيلهم**، وعدم العنف معهم، وعدم تخويفهم، والصبر على تربيتهم وإصلاحهم، عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قبَّل النَّبِيُّ ﷺ الْحسنَ بن عَلِيٍّ رضي الله عنهما، وَعِنْدَهُ الأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ، فقال الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشرةً مِنَ الْولَدِ ما قَبَّلتُ مِنْهُمْ أَحداً فنَظَر إِلَيْهِ رسولُ الله ﷺ فقال: «مَن لا يَرْحمْ لا يُرْحَمْ»[2]، وقال ﷺ للذين يستنكرون تقبيل الأبناء قُبْلة العطف والتودد: «أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ الرَّحمَةَ»[3].

ـ ومن صور الرحمة واللطف بالأطفال: الإسراع في الصلاة رحمة بالصغير إذا بكى، لتسكيته وقضاء حاجته، والإمامُ يقصِّر الصلاة إذا كانت أم الطفل تصلي جماعة مع الإمام، والوالد يقصر من صلاة القيام في الليل، ليسكِّت الطفل حتى لا يوقظ أمه، قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَقُومُ إِلى الصَّلاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّل فِيها، فَأَسْمعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجوَّزَ فِي صلاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»[4].[5].

٨. ومن أدب الرحيم: **الرحمة بأقاربه وأرحامه** والإحسان إليهم، وقد سمى الله تعالى الأقارب رحماً، فاشتق لهما اسماً من الرحمة، تذكيراً بواجب

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٩٢.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٦٥١ ومسلم رقم ٢٣١٨.
(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٦٥٢ ومسلم رقم ٢٣١٧ عن عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه البخاري رقم ٨٣٠ عن أَبي قَتادَةَ الحْارِثِ بنِ ربْعي ﷺ.
(٥) وسيأتي مزيد تفصيل في الكلام عن تربية الأبناء والرحمة بهم.

الرحمة بهم، قال ﷺ: «إن الرَّحِمَ شِجْنَة من الرحمن، فقال الله: من وَصَلَكِ وَصَلْتُه، ومَن قَطَعَك قَطَعْتُه»(١)، والأرحام والأقارب أولى بالرحمة والإحسان من غيرهم(٢).

٩. ومن أدب الرحيم: **الرحمة بالجار والإحسان إليه**، وقد أوصى الله بالجار، فقال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وأمرنا النبي ﷺ أن نصل في رحمتنا للجار إلى حد أن يَطمئِنَّ إلى جوارنا، ويثق بعدم الاعتداء عليه، فقال ﷺ: «والله لا يؤمن، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه(٣)»(٤)، فلم يَقبَلْ من المسلم أن يكون على حال يَخافُ منه جاره، بل أخرجه من وصف المؤمن إن كان كذلك؛ إشعاراً بأن المؤمن يجب أن يكون متصفاً بالرحمة والإحسان والإكرام والعفة عن الأذى لجاره.

١٠. من أدب الرحيم: **الرحمة بالضعفاء والإحسان لهم وإكرامهم، من اليتامى والمساكين والأرامل والخَدَم وغيرهم.**

والله تعالى رحم الضعفاءَ وخفف عنهم التكليف والإثم؛ فكيف لا نخفف نحن عنهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٤٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وسيأتي تفصيل ذلك في التعامل مع الأرحام.

(٣) (بوائقه): شروره وإيذاءه وغدره وغوائله.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٦٧٠ عن أبي شريح رضي الله عنه، وعند مسلم رقم ٤٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

وأمرنا الله تعالى أن ننصر الضعفاء والمستضعفين ونقاتل لأجل حمايتهم ونصرتهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

ـ وبين الله تعالى أن من أسباب خسران الإنسان وهوانه، ومن مظاهر فشله وانحرافه في الحياة الدنيا؛ أن يكون مسيئاً لليتيم، لا يكرمه ولا يحسن إليه، ولا يوصي الناس بالإحسان إليه، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٦-٢٠].

وبين الله تعالى أن الإنسان يتجاوز عقبة العذاب، وعقبة انحراف النفس، ويخرج من قسوة القلب، ويكون رحيماً يستحق الرحمة؛ إذا تحقق بإكرام الضعفاء من الأيتام والمساكين والفقراء والعبيد، قال سبحانه: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ * فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١) * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (٢) * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (٣) * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (٤)

---

(١) ﴿ذي مسغبة﴾: مجاعة.

(٢) ﴿ذا مقربة﴾: قرابة.

(٣) ﴿ذا متربة﴾: فقر وحاجة.

(٤) ﴿المرحمة﴾: الرحمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [البلد: ١٠-١٨]، وقد بينت الآية أنه لا يكفي أن تكون رحيماً، بل يجب أن توصي غيرك بالرحمة والتحمل والصبر، فذلك طريق أهل اليمين، أهل الجنة.

ـ وحثنا النبي ﷺ على رحمة الأرملة والإحسان إليها وكَفالَتِها، وبين أن ذلك جهاد، وأجرُه أجرُ جهادٍ في سبيل الله، قال النبي ﷺ: «السّاعي على الأرْمَلَة والمسكين؛ كالمجاهد في سبيل الله»(١).

١١ . ومن الرحمة بالضعفاء والمقهورين: **الرحمة باليتيم**، الصغيرِ الذي فَقَدَ والديه أو أحدهما.

فقد حذرنا الله من إيذاء اليتيم وقهره وكسر نفسه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ [الضحى: ٩] وبين سبحانه أن من يؤذي اليتيم ويضربه ويدفعه ويحرمه فهو كافر مكذب بالآخرة، أو هو من الغفلة كالمكذبين، قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١-٢].

ـ ومن الرحمة التي أمرنا الله بها تجاه الأيتام أن نحافظ على أموالهم ولا نعتدي عليها، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤].

وبين سبحانه أن أكل أموال الأيتام هو ظلم واعتداء يستحق العقوبة والنار، وما أخذه الناس منهم بغير حق فهو مال حرام، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

وأمرنا سبحانه أن لا نبدل أموال الأيتام وممتلكاتهم التي ورثوها

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٣٨ ومسلم رقم ٢٩٨٢ عن أبي هريرة ﷺ.

وملكوها بأموال لنا، فنعطيهم من ممتلكاتنا أو أراضينا التي هي دون أراضيهم وأملاكهم، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٢]، فنهى الله تعالى عن تبديل أموالنا الرخيصة بأموالهم الثمينة بما يضيع أموالهم ومصالحهم، كأن يعطي اليتيم أرضاً صخرية ويأخذ أرضه الخصبة، أو يأخذ بيته الجديد ويعطيه بيتاً قديماً، كما نهى عن ضم أموالهم إلى أموالنا على سبيل السرقة لها، أو على سبيل أخذ أرباحها وعدم إعطائهم حقوقَهم وأرباحَهم، فذلك إثم كبير عند الله.

وأمر الله سبحانه بتسليم الأيتام أموالهم إذا بلغوا الرشد والقدرة على التصرف في أموالهم، وحرم علينا أن نؤخرها عنهم، كما حرم علينا أن نسرف في صرفها، ونستعجل إلى تضييعها وسرقتها قبل أن يَكْبَروا وتتفتح أعينهم على أموالهم ومصالحهم ويطالبوا بها، وأمرنا إذا عملنا في أموالهم لمصالحهم أن نأخذ أجرة المثل إذا كنا فقراء، وندبنا إذا كنا أغنياء أن لا نأخذ منها شيئاً عفة وإحساناً، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [النساء: ٦].

كما أمر الله تعالى بضم أموال الأيتام إلى أموالنا على سبيل الشراكة والتجارة؛ إذا كان في ذلك خير لأموالهم وحفظ لها وتنمية لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فأوجب علينا أن نعمل بما فيه خيرهم ومصالحهم، وأن نقصد الإصلاح، لا الإفساد، ورضي منا أن نعاملهم كما نعامل أنفسنا، ونحرص على مصالحهم وأموالهم كما نحرص على مصالحنا وأموالنا، ونبهنا بأن الأصل أن نحتاط لأموال الأيتام ومصالحهم

أكثر من ذلك، لكن هذا تخفيف من الله علينا، وإلا لَشَرَعَ لنا ما يَشُقُّ علينا رحمة بهم وإحساناً لهم ورفقاً بهم لضعفهم، فلو شاء الله لَحَمَّلَنا تجاههم مسؤولية أكبر، ولَطالَبَنا بأن نُدَقِّقَ ونرهق أنفسنا في تحَرِّي الخير لهم.

كما حذر الله من استغلال اليتيمات لضعفهن وعدم وجود ولي أو أب يدافع عن حقوقهن ومصالحهن، فحذرنا سبحانه من تَزَوُّجِ اليتيمات بمهر أقل من أمثالهن من الفتيات، أو الزواج منهم مع التقصير في حقوقهن لعدم وجود ولي ترجع إليه وتشكو إليه، فليتزوج الإنسان من غيرهن، ولا يَقربْهُنَّ إلا أن يُحسنَ إليهن ويُعطيهنَّ كاملَ حقوقِهِنَّ، ويعاملَها كما يعامل غيرها، لا كأنها صنفٌ ثانٍ أو طبقةٌ ثانية، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟(1)﴾ [النساء: ٣]، وقد بينت أُمُّنا عائشة رضي الله عنها معنى الآية فقالت: «يا ابن أختي(2)؛ اليتيمةُ تكون في حَجْرِ وَلِيِّها، فيرغب في مالها وجمالها، يريد أن يتزوجها بأدنى من صداقها، فنُهُوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، فيكملوا الصداق، وأمروا بنكاح من سواهن من النساء»(3).

كما أمر الله بالإحسان إلى الأيتام المحتاجين والأقارب والمساكين بمراعاة نفوسهم، إذا حضروا مجلساً تُقَسَّم فيه أموال ميراث أن نعطيهم شيئاً من المال تطييباً لخواطرهم، وقضاءاً لحوائجهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟

---

(١) ﴿أدنى ألا تعولوا﴾: أي أرجى لكم أن لا تتحملوا مسؤولية عيال كثيرين، لا تستطيعون النفقة عليهم.

(٢) ابن أختها الذي تخاطبه هو راوي الحديث عنها: عروة بن الزبير رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٤٧٧٧ ومسلم رقم ٣٠١٨.

ﱡالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﱠ [النساء: ٨-٩]، وبينت الآية الثانية أن هذا التصرف مع الكلام الطيب لهؤلاء الضعفاء هو سبب عند الله في حفظ أبنائنا ورحمتهم إن تركناهم ضُعفاءَ ومِتْنا قبل أن يصلوا إلى سن القيام بشؤون أنفسهم.

ومن رحمة الله بالأيتام أن جعل لهم نصيباً من غنائم المسلمين في القتال ومن الفيء[1] مما يغنمه المسلمون في الفتوح بغير قتال، فقال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وحثنا النبي ﷺ على رعاية الأيتام، وبين أن كفالتهم سبب في الجنة، «أنا وكافِلُ اليتيمِ في الجنة هكذا» وأشار بأصبعيه السَّبّابَة والوُسْطَى، وفَرَّجَ بينهما شيئاً[2].

---

(١) الفيء: هو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد، أما الغنائم: فهي ما أخذ من أموال الكفار عنوة بطريق القهر والغلبة عن طريق قتال.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٩٨٧عن سهل بن سعد ﷺ، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ رقم ٢٩٨٣ بلفظ: «كافل اليتيم له أو لغيره؛ أنا وهو كهاتين في الجنة، وأشار مالك =

= [وهو أحد رجال السند] بالسبابة والوسطى»، وَمَعْنَى قَوْله: (لَهُ) بِأَنْ يَكُون جَدّاً لليتيم أَوْ عَمّاً أَوْ أَخاً أَوْ قريباً فيكفله، ومثل ذلك أن يفقد اليتيم أباه فتقوم به أمه، أو يفقد اليتيم أمه فيقوم به أبوه، (أو لغيره): بأن يكون اليتيم من غير قرابته، فهو منتسب لغيره، ومع ذلك يتولاه ويكفله ويقوم به، كما يقوم بأبنائه.

ومن توكل بتربية اليتيمات تربية حسنة عفيفة كريمة؛ فإنه يكون رفيقَ النبي ﷺ في الآخرة، قال ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه(١).

١٢. ومن أدب الرحيم: **الرحمة والإحسان واللين مع الخادم**، فقد علمنا النبي ﷺ أن لا نؤذي الخادمَ والمرأة بضَرْبٍ ظالمٍ، فعن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ لنفسه شيئاً قَطُّ بِيَدِه، ولا امرأةً ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيْلَ منه شيءٌ قَطُّ؛ فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله فينتقم لله(٢).

كما علمنا النبي ﷺ أن لا نستغل الخادم والأجير والعبد استغلالاً فوق طاقته، أو ننقص عليه أجره دون كفايته، فقال ﷺ: «هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمْ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ؛ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ»(٣).

١٣. ومن آداب الرحيم: **الإحسان إلى المرضى والعجزة وذوي الحاجات والضعفاء ومن نزلت به مصيبة**، قال ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّـهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فَرَّج عنْ مُسْلِمٍ كُرْبةً فَرَّجَ اللَّـهُ عنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمَ الْقِيامَةِ»(٤)، وقال ﷺ: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٣١ عن أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٣٢٨.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٧٠٣ ومسلم بنحوه رقم ١٦٦١، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٢٣١٠ ومسلم رقم ٢٥٨٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرج البخاري رقم ٢٣٨٢ ومسلم رقم ٨٤ «عن أبي ذر رضي الله عنه. (أخرق): أي قليل الحيلة لا يحسن العمل.

١٤-٣٠. آداب التراحم بين المسلمين كثيرة، منها: **عدمُ الظلم لأخيك المسلم، وعدم تركه إلى مَنْ يَظلِمه، والسعيُ في قضاء حاجته، وتفريجُ كربته، وإغاثةُ لهفته، وسترُ عيوبه وذنوبه، وحبُّ النعمةِ والخيرِ له، وعدمُ تمني زوال النعمة عنه بالحسد، وعدمُ غشه والتغريرِ به في بيع أو زواج أو غيره، وعدمُ بغضه، وتركُ الأسباب المؤدية إلى التباغض والحقد والتدابر والتنافر والتناحر، وعدمُ تقديم مصلحتك على مصلحته؛ إذا سبق إليها، في بيع أو خطبة أو نحو ذلك من المباحات، وعدمُ تحقيره، وعدمُ خُذْلانه وتفشيلِه حينما يحتاجك في أمر، أو يحتاج نصرتَك وعونَك، وتركُ الاعتداء على نَفْسِ المسلم أو ماله أو سُمْعَتِه، والتحققُ بالأُخُوَّةِ والحرصُ على معانيها وحقائقِها مع كل مسلم قريب أو غريب**[1].

وقد جُمِعَتْ هذه الصور في حديثين: قال رسول الله ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يظْلِمُه، ولا يُسْلِمهُ، منْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فَرَّج عنْ مُسْلِمٍ كُرْبةً فَرَّجَ اللهُ عنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمَ الْقِيامَةِ، ومَنْ ستر مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْم الْقِيَامَةِ»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «لا تحَاسدُوا، ولا تناجشُوا[3]، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابرُوا[4]، ولا يبعْ بعْضُكُمْ عَلَىَ بيْعِ بعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ الله إِخْواناً، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم، لا يَظلِمُه، ولا يَحْقِرُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَاهُنا ـ

(١) وسيأتي تفصيل ذلك وشرحه والزيادة عليه؛ في الكلام على آداب معاملة الإخوان وحقوق المسلمين، في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٣١٠ ومسلم رقم ٢٥٨٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) (النَّجَش): أَنْ يزِيدَ فِي ثَمنِ سلْعةٍ يُنَادَى عَلَيْهَا فِي السُّوقِ ونحْوِهِ، ولا رَغْبَةَ لَه فِي شرِائهَا، بَلْ يقْصِد أَنْ يَغُرَّ غَيْرَهُ، وهَذا حرامٌ، والمال الذي يحصله لنفسه أو لصاحب السلعة بالنجش؛ مال حرام.

(٤) (التَّدابُرُ): أَنْ يُعرِض عنِ الِإنْسانِ ويْهجُرَهُ، كالذي يدير ظهره لغيره إعراضاً عنه أو تحقيراً له.

ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مرَّاتٍ ـ بِحسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المسلم، كُلَّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ»[1].

٣١-٣٤. من أدب الرحيم: **سماحته وحسن صحبته وطيب معاشرته**، فلا يتشدد في أمر يمكن التساهلُ والتسامحُ فيه، ويتغاضى عن أخطاء الآخرين، حينما لا يترتب عليها حقوق، وحينما يكون الذنب خطأً لا قصداً، ولا يُلزِم الناس برأيه واختياره؛ فيما لهم فيه اختيارُ آخر أو رأيٌ غيرُ مخالفٍ لشرع الله، ولا يُعْنِتُ أهل بيته وزوجتَه وأولادَه، ولا يَشُقُّ عليهم بكثرة الطلبات، فيما يمكن الاستغناء عنه، ولا يتجبَّر ولا يتحكَّم في الأشياء التي لا يَضُرُّ فيها فعل الآخرين، ولا يخطِّئهم فيما يمكن أن يكون صواباً أو حسناً أو مقبولاً.

لا يصطنع المشكلات والمكدِّرات والمعكِّرات والإزعاجات في البيت، ولا يكبِّر الأمر الصغير، ولا يتأفَّف ولا يتضجَّر من شيء، بل يلتمس العذر للمقصر والمسيء، ولا يصنع خوفاً ولا رُعْباً لأهل البيت، ولا نَكَداً، بل يبسط الأمان والرحمة، ويصنع الفرح والسعادة في البيت.

عن عائشة قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فَحّاشاً ولا مُتفحِّشاً[2] ولا صخَّاباً[3] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئةَ، ولكنْ يعفو ويصفح»[4].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (الفاحش): الذي يتصرف بوقاحة أو يتكلم بالقبيح من الألفاظ مما يتصل بالعورات، ومما تعف عنه أسماع كرام الناس، و (المتفحش): الذي يتكلف القبيح ويتقصده في القول والفعل.

(٣) (صخاباً): الصخب: الصياح والجلبة وشدة الصوت واختلاطه.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٥٤٥٦ والترمذي رقم ٢٠١٦، ومعناه في البخاري رقم ٢٠١٨ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الصفات ذُكِرت في التوراة في وصف رسول الله ﷺ، ومنها: «لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلاَ غَلِيظٍ».

عن أنسٍ بن مالكٍ خادمِ الرسول ﷺ قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أُفّ، ولا : لِمَ صَنَعْتَ؟ ولا : ألا صنعتَ؟ (١).

ـ ومن سماحة المسلم: أن **يكون في نفسه طيباً، لا نَكِداً ولا مُتَشائماً ولا لَئيماً ولا عَسِراً**، بل أليفاً يَتأَلَّفُ مَن حولَه، ويَبَشُّ في وجههم، ويُدخل البسطَ والمَرَحَ عليهم، يرتاح إليه من يجالسُه، ويَأمنُه مَن يُعاشِره، ولا يَخاف مِنه ومِن مُفاجآته وغضبِه وتَغَيُّرِ مِزاجِه، لا يَتَمَقَّتُ، ولا يُعَكِّرُ ولا يُكَدِّرُ على من حوله هدوءَهم وطمأنينتَهم وانبساطَهم ومَرَحَهم، ولا ينظر إلى الأمور ولا يتعامل معها بتشاؤم وتَوَقُّعٍ للشرِّ والسوءِ بلا مُبَرِّرٍ ولا سبب، ولا ينكد نفسه ولا ينكد غيره(٢).

والنَّكِدُ يعود نَكَدُه عليه وعلى من حولَه بالأذى الشديد، النفسي والحسي، فينكد نفسه وغيره، كما تفعل الزوجة النَّكِدَة إذا علمت أن زوجها سيتزوج ثانية، فتَنزِع السكن من البيت، وتُنَغِّصُ نفسَها وزوجها وأبناءها وأقاربها، وتزعج الجميع، لا ترتاح ولا تريح، حتى تفسد على زوجها ما أحل الله، وإذا لم تنجح في ذلك؛ فإنها تطالِب بالطلاق، فتُفسِدُ على زوجها بيته، وتجعله خراباً، وتشتت أبناءها وتفسد عليهم تربيتهم وحياتهم وسكينتهم، وأفسدت على نفسها، فقطعت زوجيتها ومتعتها، وقد لا تستطيع الزواج من غيره، وفقدت نفقتها وبيتها، وقد تخسر أبناءها، وسودت قلبها وحَمَّلَتْه حِقداً، فتكون قد أَزعَجَتْ بغير حق، وخسرت ولم تحقق شيئاً، وذلك سفهٌ، ولو كانت عاقلة

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٩١ ومسلم رقم ٢٣٠٩.

(٢) وقد أخبر النبي ﷺ في حديث أخرجه البخاري ١٠٩١ ومسلم ٧٧٦ أن المسلم الذي يقوم من نومه إلى ذكر الله والوضوء والصلاة؛ فإنه يصبح نشيطاً طيب النفس، وأما من غلبه الشيطان فلم يفعل ذلك؛ فإنه يصبح خبيث النفس كسلان.

حليمة لصبرت وتحملت ورضيت وأسعدت نفسها وغيرها، فإن غنيمتها بالقبول؛ خير لها عند الله، وخيرٌ لها من خسارتها الكبيرة الناتجة عن الرفض والنكد والإيذاء، فلم تكن رحيمة بنفسها ولا بغيرها، ولا محسنة إلى نفسها ولا إلى غيرها، حينما تصرفت بنكد.

ـ ومن السماحة: **الإعراض عن الجاهلين والأشقياء الأشرار، وعدم استفزازهم**، وقد كان من رحمة رسول الله ﷺ وسماحته وحسن معشره أنه لا يجابه الناس بالسوء، حتى من كان منهم سيئاً، فيعرض عن الجاهلين، ويتقي فُحْشَ الأشرار بمُداراتِهم.

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فحذر منه النبي ﷺ قبل أن يدخل، فلما دخل عليه جامَلَه وكلمه كلاماً لَيِّناً، فاستغربت عائشة رضي الله عنها فقال لها: «يا عائشة، مَتى عَهِدْتِنِي فَحّاشاً، إن شَرَّ الناسِ عند الله منزلةً يوم القيامة مَن تَرَكَه الناس اتِّقاءَ شَرِّه»(١).

ـ ومن السماحة والإحسان وطيب العشرة: **التغافل وترك المعاتبة أحياناً**، وقد علمنا الله أن من أدب نبيِّه ﷺ التغاضي والتغافل عن بعض الأمور وبعض الزلات كرماً وإحساناً ورحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٨٥. ونص بداية الحديث: «عن عائشة ثم أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلَّق النبي ﷺ في وجهه، وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلتَ له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة متى...»، ورواه مسلم رقم ٢٥٩١ بنحوه، وفيه: « ... فلما دخل عليه أَلَانَ له القولَ، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله؛ قُلْتَ له الذي قُلتَ، ثم أَلَنْتَ له القول؟... اتقاءَ فُحشِه».

﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، فعلى المسلم أن يكون حكيماً يُقدِّر ما يُنبِّه عليه، مما يَحسُن الإعراضُ عنه.

٣٥. من آداب الرحمة: **المسامحة والصفح والعفو عن المسيء والجاهل والمتحامِل**(١)، عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غَليظُ الحاشِية، فأدركه أعرابي فجَبَذَه(٢) بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صَفْحَة عاتِقِ رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البُرْدِ(٣) من شدة جَبْذَتِه، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء(٤).

وقال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فمِن رحمة المؤمن أن لا يحقد، وإذا تَغَيَّظَ قلبُه وحَقَدَ فلا يُنفِذ ذلك، ولا يَظهر على سلوكه، بل يضبط نفسه، ثم يترقى إلى العفو والمسامحة فيزيل الغيظ من قلبه، ثم يترقى إلى الإحسان إلى من أساء إليه، فيكرمه ويحسن الكلام والتعامل معه كأن لم يُسِئْ في حقه، فيتحول المسيء إلى صديق حميم محب مخلص، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

٣٦. من أدب الرحيم: **أن لا يُعرِّض إخوانه للخطر**، بحمل سلاح بينهم،

---

(١) (المتحامل): الذي يتهمك بغير حق، ويسيء الظن بك.

(٢) (جبذه جبذة): أي شَدَّهُ شَدَّةً قوية.

(٣) (حاشية البُرْد): طرف الثوب أو العباءة، وقد أثَّر شَدُّ ثوب النبي ﷺ في كتفه، كما لو كُشِطَ الجلد.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٤٧٢ واللفظ له، ومسلم رقم ١٠٥٧ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

أو توجيهه إليهم، أو رميه عليهم، أو التساهل في قبضه بطريقة تعرِّض غيره للإصابة به، قال رسول الله ﷺ: «مَن مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، ومَعَه نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصالِهَا بِكفِّهِ أَنْ يُصِيب أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ»(١).

٣٧. من أدب الرحيم: أن **لا يجعل من العبادة سبباً في الأذى والإثقال** على الناس، فأمرنا النبي ﷺ **بالتخفيف على الناس في صلاة الجماعة وخطبة الجمعة**، إذا كان يشق عليهم إطالتها، قال رسول الله ﷺ: «إذا صلى أَحدُكُمْ للنَّاسِ فلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالسقيمَ والْكَبِيرَ وذَا الْحاجَةِ، وإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيطَوِّل ما شَاءَ»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «إن طُولَ صلاةِ الرجل وقِصرَ خُطبته مَئِنَّةٌ من فقهه، فأطيلوا الصلاة، واقْصُرُوا الخُطبة، وإن من البَيان سِحْراً»(٣).

وإذا وقف المسلم في صف الصلاة في الجماعة؛ فلا يؤذي مَن بجانبه، ولا يضايقه ولا يضغط عليه، قال ﷺ: «ولينوا بأيدي إخوانكم»(٤).

٣٨. ومن رحمة المؤمن: أن **ينصح إخوانه** النصيحة الخالصة الصادقة، **وينهاهم** عن المنكر، **ويأمرهم** بالمعروف، ولا يتركهم على الخطإ والباطل؛

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٦٦٤ ومسلم رقم ٢٦١٥ عن أبي موسى رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٧١ ومسلم رقم ٤٦٧ عن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم رقم ٨٦٩ عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وأخرج نحوه الحاكم رقم ٥٦٨٣.
(٤) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٦٦٦ وأحمد نحوه رقم ٥٧٢٤، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وتمام الحديث: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولِينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله».

فيهلكوا، قال ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ[(١)] وَالْوَاقِعِ فِيهَا[(٢)] كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا[(٣)] عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ[(٤)] نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً»[(٥)]، فالنصح والنهي عن المنكر هو رحمة وإنقاذ.

٣٩. ومن الرحمة والإحسان: **المداراة**، وهي رحمة وإحسان وصبر وترفق وتلطُّف بالمخطئ حتى يَستخرِج منه الحقَّ، أو يَرُدَّه إلى الحق، أما الْمُداهنة فهي تلطف بالمخطئ، يقره به على الباطل، ويتركه على هواه.

قال الله تعالى في وصف المؤمنين وأهل الجنة: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢ والقصص: ٥٤]، أي لا يقابلون الإساءة والإيذاء بالإساءة والعنف والشدة، وإنما يدفعونها بالإحسان والمسامحة والمداراة.

وقال أبو الدرداء ﷺ: «إنا لَنُكَشِّرُ في وُجوهِ أقوامٍ؛ وإن قلوبَنا لَتلْعَنُهم»[(٦)]، أي نَضحك لهم على الرغم من أننا نُبغِضهم، وذلك من المداراة والتلطف.

---

(١) (القائم على حدود الله): المستقيم على أوامر الله سبحانه، ولا يقع فيما حرم الله، والذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

(٢) (الواقع فيها): الذي يقع في المنكرات ويترك الواجبات.

(٣) (استهموا): اقترعوا قرعة، ليأخذ كل منهم نصيبه أو موضعه، ليكون في الطابق الأعلى أم الأسفل.

(٤) (أخذوا على أيديهم): أي منعوهم من خرق السفينة.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٢٣٦١ عن النُّعمان بن بَشير ﷺ.

(٦) ذكره البخاري تعليقاً في ترجمة، قبل حديث رقم ٥٧٨٠.

وعلى المسلم أن يتحلى بالمداراة والرفق مع أهل بيته وجيرانه وعماله، وعلى الحاكم أن يداري شعبه ويترفق بهم، ليحملهم على الحق، ويعينهم على مطاوعته في مرضاة الله.

٤٠-٤٣. من أدب المؤمن الرحيم: **رحمته بالكافرين والمخالفين**، فلهم جانب من الرحمة ونصيب، ولأجل ذلك وصف الله نبيه ﷺ بأنه رحمة للعالمين، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ـ ومِن هذه الرحمةِ **يتجشم المؤمن صعاب الدعوة إلى الله**، لِيُنقِذَ الكافرَ من عذاب الله ونار جهنم، ومن هذه الرحمة يحزنُ المؤمن لعدم إيمان الكافرين، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فلم يأمر اللهُ نبيَّه بترك الرحمة للكافرين، بل أمره أن لا يصل إلى حد يهلك نفسه لأجلهم، فهم المذنبون، وليس هو المقصر في دعوتهم وهدايتهم.

ـ ومن هذه الرحمة **يدعو المسلمُ الكافرَ بالقول اللين والحكمة ويجادله بالحسنى**، تلطفاً به ورحمة به، عسى أن يهتدي، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ـ ومن هذه الرحمة **يجاهد المسلم**، فيبذل نفسه وماله وجهده ووقته، ويُعرِّض حياته للموت، وصِحَّتَه وجسدَه للإصابة، ويهاجر ويترك أهله وولده وبلده وبيته وأعماله ودنياه، لأجل إنقاذ الكافر من النار، وفي سبيل إنقاذ شعوب الكافرين من جبروت طغاتهم وظلم حكامهم؛ الذين يظلمونهم ويمنعونهم الإيمان والسعادة وطريق الجنة، أو الذين يعتدون على المؤمنين

ويمنعون تبليغ الحق، ويُجاهِد المسلمُ لِيُخضِع الكافرَ لدولة الإسلام؛ التي تتيح له الحرية ليسمع الحق، فيختار ما يقتنع به من غير مؤثرات أو إكراه، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

فالجهاد الذي شرعه الله لنبيه ﷺ هو صورة ومظهر من أعظم مظاهر الرحمة، ففي الجهاد شَرَع الله لنا أن نبذل أموالنا ونضحي بأنفسنا بأن نعرضها للموت والخطر، لأجل إنقاذ غيرنا ودعوتهم إلى الإيمان بالله خالقِهم ومالكِهم، ومن أجل دعوتهم إلى دين ربهم الحقِّ، من أجل أن نَدُلَّهم على طريق النعيم والجنة، ونحذِّرَهم من طريق الباطل لِيَنْجُوا من النار والعذاب، فالجهاد في سبيل الله ليس لنؤذي الناس، ولا لنأخذ أموالهم، ولا لنتجبر عليهم، بل لنفتح لهم طريق الهداية والنجاة والرحمة.

- ومن الرحمة التي أمر بها المؤمن أن **لا يحرق أحداً من الناس** ولو كان كافراً، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بَعَثَنا رسولُ الله ﷺ في بَعْثٍ، وقال لنا: «إن لقيتم فلاناً وفلاناً، لرجلين من قريش سمّاهما، فحرِّقوهما بالنار» قال: ثم أتيناه نودعه حين أردنا الخروج، فقال: «إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٧٩٥.

٤٤. ومن أدب الرحيم: **الرحمة بالحيوانات والبهائم**، فرحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين، ولا تقتصر على الناس، بل شملت البهائم والحيوانات وسائر المخلوقات، يرحمها، فهي ذات روح وإحساس، ويكون رفيقاً بها ولطيفاً معها.

وقد بين النبي ﷺ أن الرحمة بالحيوان والعطفَ عليه؛ أجرُها وثوابها عند الله عظيم، فقال ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بَلَغَ هذا الكلبُ مثلَ الذي كان بلغ بي، فنزل البئرَ فملأ خُفَّه، ثم أمسك بِفِيْه فسقى الكلب، فشَكَرَ اللهُ له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله؛ وإنَّ لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجر[١]»[٢].

كما بين النبي ﷺ أن الرحمة بالحيوان والرفقَ به سببٌ في المغفرة العظيمة وتكفير الذنوب، قال ﷺ: «بينما كلب يطيف بِرَكِيَّة[٣]، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها[٤]، فاسْتَقَتْ له به[٥]، فسَقَتْه إياه، فَغُفِرَ لها به»[٦].

وبين ﷺ أن إيذاء الحيوان وتعذيبه يستحق العقوبة والتعذيب ودخول

---

(١) (في كل كبد رطبة أجر): أي في الإحسان إلى كل حي من الحيوانات وغيرها أجر، فعبر عن حياتها برطوبة الكبد، لأن الحيوان إذا مات جف باطنه وذهب ماؤه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٢٣٤ ومسلم رقم ٢٢٤٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) (يطيف بركية): أي يدور حول بئر ماء، يريد أن يشرب.

(٤) (مُوْقَها): أي خفها وحذاءها.

(٥) أي أخرجت الماء في حذائها للكلب.

(٦) أخرجه مسلم رقم ٢٢٤٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

النار يوم القيامة، فقال ﷺ: « دخلت امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ، ربطتها فلم تطعمها، ولم تَدَعْها تأكلُ مِن خَشاشِ الأرض»(١).

وأمر رسول الله ﷺ بالإحسان واللطف والرحمة مع الحيوان، ونهى عن تعذيبه والشدة معه، فلا يجوز إيذاؤه إلا بقدر الضرورة، فإذا كنت مضطراً لتذبح الأنعام لتأكلها؛ فهذا لا يبرر أن تُخِيفها أو تُؤلِمَها أو تَجُرَّها أو تُطيل أَمَدَ ذبحِها باستعمال سكين غير حادّ، وإذا كنت مضطراً لحماية نفسك من الحشرات؛ فذلك ليس مبرراً لحرقها وتعذيبها، فيمكنك أن تُغلِق جُحورَها التي تصل منها إليك، أو تقتلها عند الضرورة بوسيلة لا تَعذيب فيها، ولا تَقتلُ ما لا يَضرُّك منها.

قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ(٢) أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»(٣).

عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فانْطلقَ لحاجتِه، فرَأَيْنا حُمَّرَة(٤) معها فَرْخانِ، فأخذْنا فَرْخَيْها، فجاءتِ الحُمَّرَةُ، فجَعَلَتْ تَفْرُشُ(٥)، فجاء النبي ﷺ فقال: «مَنْ فَجَعَ هذه بولدها، رُدُّوا ولدَها

(١) أخرجه البخاري رقم ٣١٤٠ ومسلم رقم ٢٢٤٢ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومسلم رقم ٢٢٤٣ و ٢٦١٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه. و (خشاش الأرض): ما تأكله القطة من حشرات الأرض وهَوامِّها ودوابها الصغيرة.

(٢) أي يجعل السكين أو الشفرة التي يذبح بها حادة قاطعة، لتكون سريعة الذبح، لا مثلومة أو ضعيفة فتؤذي الحيوان وتؤخر موته.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه.

(٤) (حمرة): طائر صغير، كالعصفور، أحمر اللون.

(٥) (تفرش): ترفرف بجناحيها وتقترب من الأرض.

إليها» ورأى قريةَ نملٍ قد حَرَّقْناها، فقال: «مَن حَرَّقَ هذه ؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يُعَذِّبَ بالنار إلا رَبُّ النارِ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «قَرَصَت نملةٌ نبياً من الأنبياء، فأَمر بقريةِ النمل فأُحرقتْ، فأوحى الله إليه أَنْ قَرَصَتْك نملةٌ؛ أحرقت أمة من الأمم تسبح»(٢).

ولا يجوز أن تُتْعِبَ الحيوان كثيراً، ولا أن تتقصد إرهاقه، سواء كنت تملكه أم لا، وإنما تستعمله لحاجتك بما يَحتمِل، ولا يجوز أن تُقَصِّرَ عليه في الطعام والشراب والدواء، فلا يجوز أن تتركه للجوع والعطش والألم، وهذه الحيوانات لا تستطيع أن تتكلم وتخبر عن جوعها وألمها؛ فعلى صاحبها أن يكون منتبهاً إلى شأنها، قائماً بحقها، لا يغفل عن حاجتها وسياستها، «عن سَهْلِ بن الحَنْظَلِيَّةِ رضي الله عنه قال: مَرَّ رسولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ؛ قد لَحِقَ ظهرُه ببطنِه، فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المُعْجَمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»(٣).

و «عن عبدِ الله بن جَعفرَ رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفَه ذاتَ يومٍ فأَسَرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدِّثُ به أحداً من الناس، وكان أَحبُّ ما اسْتترَ به رسولُ الله ﷺ لحاجتِه هدفاً أو حائِشَ نخلٍ، قال: فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا جملٌ، فلما رأى النبيَّ ﷺ حَنَّ وذَرَفَتْ عَيْناه، فأتاه النبيُّ ﷺ فمَسحَ ذِفْراه، فسكت، فقال: مَن ربُّ هذا الجملِ؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فَتىً

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢٦٧٥ عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، وأبوه هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٨٥٦ ومسلم رقم ٢٢٤١ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي رواية لمسلم زاد: فَهَلّا نملةً واحدة.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢٥٤٨ وابن خزيمة رقم ٢٥٤٥.

مِن الأنصار، فقال: لي يا رسولَ الله، فقال: أفلا تتقي الله في هذه البَهِيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إياها، فإنه شَكَى إليَّ أنك تُجِيعُه وتُدْئِبُه»(١).

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢٥٤٩ وأحمد رقم ١٧٤٥، وقوله: (أردفني): أي أركبني خلفه على الدابة، (هدفاً): مكاناً مرتفعاً ساتراً، (حائِشَ نخلٍ): شجرات نخل ملتفة ومتقاربة، كالنخل الصغير الذي يستر من كان فيه، (حائطاً): بستاناً، (حَنَّ وذَرَفَتْ عَيْناه): أي بَكَى وجَرَى دَمعُه، (ذِفْراه): مؤخرة رأسِه من القَفا بين الأذنين، (وتُدْئِبُه): تُتْعِبُه في العمل وتُحَمِّلُه فوق طاقته.

المبحث العاشر

الشجاعة وترك الجبن

معنى الشجاعة:

الشجاعة: قوة نفس، تدفع إلى أمر فيه خطر وبأس، لتحقيق مصلحة.

فالشجاعة إقدام لا تأخُّر ولا جُبْن، والشجاعة جُرْأَة لا خوف ولا خَوَر، والشجاعة بطولة وحماسة لا وهن ولا ضعف ولا انهزام، والشجاعة بسالة عند البأس والشدة واقتحام للخطر لا تَرَدُّد ولا استسلام، والشجاعة صَبرُ ساعةٍ وفَوْز دَهْر، لا كسلُ ساعةٍ وخسارة عُمْر، والشجاعة اجتهادٌ وجِدٌّ ومجاهدة عند الخطر وبذلٌ لأعلى ما في الوُسْع، لا إهمالٌ وتأخيرٌ وتَراخٍ يعقبه حسرةُ عمرٍ أو خسارة نعيم وآخرة.

والإقدام والاجتهاد حينما لا يكون فيه مخاطرة لا يسمى شجاعة، بل يسمى همة ونشاطاً.

والشجاعة ـ بما فيها من مخاطرة واحتمال للهلاك أو المضرة ـ لا تكون محمودة إلا أن تكون لمصلحة؛ مِن تحقيق خير، أو دفع شر، فالشجاعة إقدام بعقل وحكمة، لا بتهور وجنون.

وحينما تدفع الشجاعة إلى أمر ليس فيه مصلحة، لا جَلْب خيرٍ ولا دَفْع شرٍّ؛ فهي شجاعة مذمومة، بل لا تسمى شجاعة، وإنما هي تهوُّر وتسرُّع وبلاهة وجنون.

كالمنتحر لا يعد شجاعاً وإنما مجنوناً.

وكالمسرع سرعة جنونية في سيارته، فهو ليس بشجاع، بل هو سخيف

خفيف النفس، طالب للمدح في غير موضعه، يتعالى بنفسه ويرائي بها، ويتوهم الشطارة في غير موضعها ولزومها.

وكالعابث بالسلاح من غير معرفة أو تدريب أو أمر جادّ؛ فذلك ليس من الشجاعة والجرأة في الحق، بل من التفاخر أو المراءاة أو التهاون أو التمادي، وكل ذلك مذموم، فكيف إذا أدى العبثُ بالسلاح إلى أن يَقْتُل به نفسَه أو غيرَه.

ـ وحتى تكون الشجاعة محمودة وحكيمة؛ فلا بد أن يكون الشرُّ الذي يدفعه الشجاع بإقدامه أكبرَ من الشر الذي يتعرض له في إقدامه وبطولته، ولا بد أن تكون المصلحة والمنفعة التي يُحصِّلها تستحق بذل النفس أو التعرض للأذى الذي يتعرض إليه بشجاعته.

ـ وقد يخطئ الإنسان في تقدير المصالح والنتائج، فقد يكون جباناً وهو يسمى جُبْنه حِكمة أو ضبطاً للنفس(١)، وقد يكون متهوراً وهو يسمى تهوُّرَه شجاعة وجهاداً(٢).

وهذا الذي يخطئ في تقدير المصالح إما مجتهد مخطئ أو أحمق، أما إذا كان يعلم أين المصلحة، ويخالفها، وهو يتعلل بالحكمة؛ فهو جبان كذاب أو منافق، ومن يتهور باسم الشجاعة وهو يعلم أنه متهور فهو صاحب رياء.

---

(١) كمن يترك جهاد الظالمين المفسدين ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متعللًا بما يترتب عليهما من احتمال القتل أو السجن والتعذيب من الظالمين، فينظر إلى ما يحصل من قتل وتعذيب للعشرات أو المئات أو الألوف، ولا ينظر إلى أن الإفساد يقتل الإيمان والعفة في قلوب الملايين، فأيهما أخطر أن يموت الإيمان عند الملايين؛ أم أن يموت المئات شهداءَ ويحيى الإيمان والحق في الملايين.

(٢) كمن يقاتل عدواً أو كافراً في حالٍ يزيدُ ضعفَنا ويورِّطُنا فيما لا طاقة لنا به، وفيما لا استعداد منا له، بدلاً من أن ينتصر عليهم أو يدفع شرهم.

ـ والشجاعة لا قيمة لها إذا كانت لأجل الناس وإرضاءاً لهم، أو استعراضاً للبطولة أمامهم، أو كانت رجاءَ مدحهم، فما يأتيه من الناس لا يستحق أن يبذل له ما بذل، ولا يستحق أن يُعَرِّض نفسَه للمخاطر لأجله، فهي شجاعة واندفاع في غير محله، ولغير فائدة حقيقية، وإنما هي وهم، فالبشر لا قيمة لعطائهم وثوابهم ومجازاتهم، وإنما الثواب والجزاء الحقيقي هو ما عند الله، فذلك الذي يستحق أن يبذل الإنسان لأجله نفسَه وروحه وماله ووَقْتَه وقُوَّتَه، ومن يبذل هذه الأمور لأجل الناس فقد بذل لأمر حقير سخيف لا يستحق البذل والشجاعة، فكانت الشجاعة لغير الله لا قيمة لها، كما أشعر بذلك حديث النبي ﷺ فقد «سُئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً ويقاتِلُ رِياءً، أَيُّ ذلِك في سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: مَنْ قاتَلَ لِتَكُون كلِمةُ اللهِ هِي الْعُلْيَا فهُوَ في سَبِيلِ اللهِ»(1).

وكما لا يجوز أن يكون المحرك إلى الشجاعة رأي الناس والنظر إليهم، كذلك لا يجوز أن يكون نظرُهم والالتفاتُ إلى كلامِهم ولومِهم سبباً في ترك الموقف السليم الشجاع، لذلك علمنا الله أن من صفات حزبه وجنده أنهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة: ٥٤].

ـ الشجاع قوي القلب، فقلبه لا ينظر إلى المخاوف والمخاطر؛ بل ينظر إلى المصالح التي يحققها بإقدامه واندفاعه، ويصبر ويثبت ويتحمل نتائج ذلك وآلامَه.

والجبان ينظر نظرة جزئية محدودة، لا يرى فيها إلا الأذى والتعب

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٧٠٢٠ ومسلم رقم ١٩٠٤، عَنْ أبي مُوسَى الأَشعرِيِّ عبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ﷺ.

والتعرض للهلاك الذي في الشجاعة، ولا ينظر إلى النتائج والمآلات، فيبني حالته النفسية على الوهم والنظر القاصر، فتطغى عليه المخاوف وتحجزه عن الإقدام وبذل النفس والتضحيات، فلا يكون شجاعاً.

أهمية خلق الشجاعة ووجوب التخلق به:

الوهم يصنع خوفاً في النفس وجبناً، فيتأخر الجبان عن واجبات، ويخاف من فعل ما هو مطلوب منه، ويخشى من القيام بالحق، ويسكت على باطل، ويُضيِّع حقَّه، والأمة الجبانة والحكام الجبناء يضيعون حق أمتهم، ويُصَيِّرُون البلادَ نُهبَة لعدوهم.

فنحن نحتاج إلى الشجاعة لحمايةِ أنفسنا والمحافظةِ على وجودنا وأموالنا وأعراضنا وبلادنا.

ونحتاج إلى الشجاعة لحماية ديننا وإقامة أعمال ديننا وعباداتنا وشعائرنا.

ونحتاج إلى الشجاعة في مقارعة أعداء الله وجهادِ المفسدين والظالمين والمعتدين.

ونحتاج إلى الشجاعة لأجل الدعوةِ إلى الله والأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر وقولِ كلمة الحق أمام المستكبرين والمجرمين.

وتحتاج الأمةُ وحكامُها إلى الشجاعة في اتخاذ قراراتها المتجردة عن تأثير أعدائها.

ـ خُلُق يحقق هذه الأمور كلَّها واجب، لأنه يحقق واجبات، وحريٌّ بكل مسلم أن يتخلق به.

ـ وقد أُمِرْنا بأن نقتدي بالنبي ﷺ في كل شأن، ونحن مأمورون أن نقتدي به في أخلاقه، ولقد كان من أخلاقه الشجاعة، بل لقد «كان رسول الله ﷺ أحسنَ

الناس وأجودَ الناس وأشجعَ الناس»(١)، وقد كان أشداء الصحابة وشجعانهم يحتمون به، كما قال علي ﷺ: «كنا إذا حَمِي البأس، ولقي القومُ القومَ؛ اتَّقينا برسول الله ﷺ، فلا يكون أحدٌ منّا أدنى إلى القوم منه»(٢).

وكان من شجاعته الإقدام على المخاطر والمفاجآت، فلا ينتظر غيره أن يأتيه بخبرها، بل يسارع قبل غيره، فقد «فَزِع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: لم تُراعُوا، لم تراعوا»(٣)، والجبان في مثل هذه الحالات يسد الباب على نفسه، وينتظر من غيره أن يأتيه بالخبر، والشجاع يجهز نفسه ويخرج، فالنبي ﷺ كان أشجع الشجعان فرجع قبل أن يخرج الشجعان.

وقد كان من شجاعته ﷺ: حملُ الدعوة، والتحمُّلُ لأجلها، وتحدي أكابر المجرمين بها، وعدمُ الخوف من أي مستكبر أو حاكم أو ظالم أو ملك، فيراسلهم ويدعوهم، ويقاتلهم ويجاهدهم إذا تكبروا أو اعتدوا، ولم يكن يهاب في أخطر حالات الشدة والإحاطة من الأعداء، بل يُثَبِّتُ غيرَه ويُسَكِّنُهم.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٦٨٦ ومسلم رقم ٢٣٠٧، عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٢٦٣٣، وأخرج مسلم عن البراء ﷺ رقم ١٧٧٦: «كنا والله إذا احمرَّ البأسُ نتَّقِي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذِي به يعني النبي ﷺ».
(احمر البأس): ويقال: (احمرت الحدَق): أي صارت حدقات العينين حمراء، والمعنى: أنه حينما تشتد المخاطر وتكثر، ويُرَى الدمُ والقتل في المعركة؛ يشتد انتباه الإنسان ونظره حتى كأن عينه احمرت من رؤية الدم أو من شدة الملاحظة. وقوله: (حمي البأس)، ويقال: (حمي الوطيس): أي اشتدت الحرب واشتبك المقاتلون.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٦٨٦ و ٢٨٧٥ ومسلم رقم ٢٣٠٧، عن أنس بن مالك ﷺ، وبداية الحديث قول أنس الذي سبق آنفاً: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس... وقوله: (لم تراعوا): أي لا يصبْكم الرَّوْعُ وهو الخوف الشديد والفَزَع، فالأمر مُطْمَئِن، وليس فيه ما يخيف.

حتى أثمرت هذا الشجاعة انتشار الدين في البشرية، وتغيير الجاهلية والفساد والظلم.

تحريم الجبن:

كَرَّهَ النبي ﷺ إلينا الجُبْن وحذرنا منه؛ حينما بين أنه من أسوإ الإخلاق، وحينما استعاذ بالله منه.

قال ﷺ: «شَرُّ ما في الرجال شُحٌّ هالِعٌ[١]، وجُبنٌ خالع[٢]»[٣]، فالرجل يكون ناقصَ الرجولة؛ إذا فقد شيئاً من خلق الشجاعة والكرم.

وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَنِ، والعَجْز والكَسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدين[٤] وغَلَبة الرجال[٥]»[٦].

---

(١) (شح هالع): الشح هو أشد البخل، والهالع هو أشد الجزع، والمعنى أن بخله يجعله في خوف شديد، فإذا احتاج يخاف من الحاجة فوق الحد المعتاد، وينسى أن الله تكفل بالأرزاق، وإذا اغتنى خشي من العطاء، وربما يمنع نفسه وأهله، من شدة ما يتوهم أن العطاء والإنفاق سيُفقِره، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا*إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

(٢) (جبن خالع): من شدة جُبْنه كأن قلبه ينخلع ويسقط من مكانه، في كل موقف فيه بأس أو محنة أو احتمال تعرض لأذى.

(٣) حديث صحيح، رواه أحمد رقم ٧٩٩٧ وأبو داود رقم ٢٥١١ وابن حبان رقم ٣٢٥٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) (ضلع الدَّين): ثقله وشدته، بأن يتمكن من الإنسان، بحيث لا يستطيع سداده، أو كلما أراد أن يسده اضطر للدين من جهة أخرى، فيشتد عليه هَمُّه.

(٥) (وغلبة الرجال): شدة تسلطهم، وفي رواية: (وقهر الرجال): وهو أن يوضع الإنسان في موقف يجد نفسه عاجزاً عن فعل ما ينبغي أن يفعله، أو يُلزِمه الآخرون بما لا ينبغي أن يفعله، فيكون متألماً مقهوراً في نفسه، ولكن لا حيلة له.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٦٠٠٨ عن أنس رضي الله عنه.

ولما كان الجبن ناتجاً عن الخوف المبني على الوهم، فقد ذم الله الوهم والخوف الذي يصنع الجبن، كما ذم نتيجة الجبن، وهي التخاذل عن نصرة الحق.

فمن ذلك ذم الله حرص اليهود على الحياة، الذي يؤدي بهم إلى القعود عن الجهاد خوف الموت.

وذم الذين يُنَفِّرون الناس من القتال؛ متوهمين أن القتال يُقرِّب أَجَلَ الموت، وبين لهم أن الفرار من المعركة لن ينفعهم، فالموت إذا جاء أجله يأتي في البيت وفي النوم وفي أي مكان.

وذم الله الرهبة التي تقع في نفوسهم من الخلق؛ في حين أنهم لا يخافون من الله.

كيف نتخلق بالشجاعة:

كما يأمر القرآن الكريم والسنة النبوية بالأخلاق الحسنة؛ كذلك ينبه إلى الحقائق التي تصنعها، ويأمر بالسلوكيات التي تنبني عليها.

أولاً: الأساس الفكري والاعتقادي الذي يولد خلق الشجاعة:

من أهم الأمور والحقائق التي تولد خلق الشجاعة وتقويه:

١ . خلق الشجاعة مبني على الثقة بالله والاعتماد عليه والاستحضار لمعيته وقوته وكفالته للمؤمن، فكيف يخاف المؤمن وهو مع القوي القادر، وكيف يخاف وهو مع الحفيظ المانع، وكيف يخاف وهو مع الحسيب الوكيل، وكيف يكون جباناً عن الحق وجباناً عن مقارعة الباطل؛ وهو يعلم أن الله هو الذي يملك ما في السموات وما في الأرض، ولا يملك أن يؤذيه أحد إلا بإذن الله، «ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[١]،

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٦ وأحمد رقم ٢٦٦٩، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فكلما رسخ الإيمان بالقضاء والقدر، وأن كل أمر بيد الله؛ كان المسلم أكثر شجاعة وإقداماً.

٢. وخلق الشجاعة مبني على عدم التفات المسلم إلى الخَلْق حينما يريدون خلاف أمر الله، وذلك إنما يتحصل بأن يتمكن ذكر الله وتعظيمه في قلب المؤمن؛ فتسقط هيبةُ كلِّ عظيم سواه، فلا يخشى أحداً سوى الله، بل خوف المسلم وخشيته من الله وحده، يخاف أن يقصِّر في حقه، ويخاف أن يغضب عليه أو يعاقبه، فإذا دام الذكر والتكبير والتعظيم لله ودامت الملاحظة لمعية الله؛ صغر في عينيه سوى الله، وعظم عنده أمر الله، فيسهل عليه تنفيذ أمره، من غير التفات إلى الناس؛ يرضون أم يسخطون، يعجبهم أو يسوؤهم.

فماذا يساوي الملوك في جنب ملك الملوك، وماذا يساوي الشرطة في جنب من بيده السماوات والأرض، وماذا تساوي العشيرة في جنب من بيده الجنة والنار، سبحانه وتعالى.

فالله أحق أن نرضيه وأن نخاف منه ونخشاه، قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال عز وجل: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

فإذا زالت الخشية من المخلوق، وصار خوف المسلم من ربه، وصار يحرص على إرضاء ربه؛ عندئذ يكون شجاعاً في تحقيق مراد الله ولا يتأخر، وتلك هي الهداية، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

ـ ولـو كان في قلـب النبـي ﷺ مـدارةٌ للمخلوقـين عـلى حسـاب أمـر الخالـق؛ لما بلَّغ شرائعه، لا سـيما ما يخالـف تقاليدَهم وعاداتِهـم وعقائدَهم، وكل شريعتِـهِ جاءت لتغير الجاهلية التي كانوا عليه، فأعطى الله نبيه الخشـية من الله، فكان ﷺ شـجاعاً في تطبيق أمر الله على نفسه ولو كان ذلك مرفوضاً أشـد الرفـض في مجتمـع الجاهليـة، كـما كان شـجاعاً في تبليـغ جميع مـا أمره الله بـه، فثبتـه الله وأيـده وذكَّـره ليبقـى على هذه الحـال من الشـجاعة، فقال سـبحانه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فأمَـرَ اللهُ نبيَّـه بالـزواج من زوجـة متبناه بعـد أن طلقهـا، عـلى الرغم مـن أن ذلـك كان مسـتنكراً في ذلـك المجتمع، وعلَّم اللهُ نبيَّه أن لا يتأخرَ في الأمر أو يترددَ فيه.

وما دام المؤمن منفذاً لأمر الله فلا يخاف من الدنيا كلِّها وقُواها وجنودِها ولو اجتمعت عليه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧].

٣. ومما يولد الشجاعة أن يعلم المسلم أن الصبر هو مفتاح النصر والظفر وتحقيـق المراد، ومما يعين على الصبر حسـن الظن بالله أنـه قادر على أن ينصرك،

وأنه كتب لك النصر ما دمت على الحق، فمن دخل في معركة مع الباطل وهو يرجو النجاح ويثق بالله؛ يصبر، وإذا وُجِد ما يستدعي دوام الصبر؛ وُجِد معه ما يستدعي دوام الشجاعة والإقدام، فلا يعترض الخوفُ قلبَه، ولا تتغير نيته، ولا تتردد نفسه، لذلك وصف الله الرجال الربانيين الذين يعلمون أنهم على الحق؛ بأنهم لا يتأثرون ولا يتغيرون مهما أصابهم، وتبقى ثقتهم بالله ثابتة، وتلك هي الشجاعة، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

٤. مما يعطي الشجاعة ويجعلها في موضعها الصحيح؛ قدرة الإنسان على تقدير المصالح والمفاسد والمآلات والنتائج، وبقدر ما ينظر الإنسان إلى العواقب والنتائج فإنه يخرج عن وهم النظرة الضيقة، والمسلم لأنه مؤمن باليوم الآخر؛ فإن يحسب الأمور بمنظار الآخرة وبقيمتها الأخروية ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، فكلما كانت عقيدة الإيمان باليوم الآخر راسخة وحاضرة في نفس الإنسان، وكلما كان عارفاً بثواب الأعمال الصالحة والمجاهدات والجهاد والأعمال الجليلة الصالحة؛ كان شجاعاً وانحل من وهم الخوف من أمور كثيرة.

٥. **إزالة الأوهام التي تؤدي إلى الجبن**، وقد نبه القرآن الكريم كثيراً على المعاني والحقائق التي تزيل الوهم والخوف والجبن، كما أكد على **المعاني التي تعطي الطمأنينة والسكون في القلب، وتدفع النفس إلى الشجاعة** والإقدام لتحقيق المطلوبات، فكان من ذلك:

أ. إزالة وهم ارتباط الموت بالشجاعة والإقدام والجهاد والتضحية،

فالموت له أجله عند الله، فإذا لم يأت الأجل فالمعركة لا تُقرِّبه، وإذا جاء الأجل فالموت نازل بك سواء كنت في معركة أم لم تكن، وقد ذكر الله قول أصحاب القلوب المريضة الجبانة الواهمة ورد عليهم فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وإذا كان الإنسان يظن أنه بتركه للمعركة وتَخَلُّفِه عن الجهاد؛ يَفِرُّ من الموت فهو واهم، فالموت هو الذي يهجم عليك ويأتيك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، ومن كان لا يخيفه الموت فأي شيء يقطع شجاعته.

وإنما يخاف من الموت من لم يستعد له بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧]، وخوفهم هذا لن يؤخر الموت.

ـ وأكثر عوامل الجبن ترجع إلى الحرصِ على الحياة، وإلى الخوفِ من الموت ومن المصائب، لذلك جاءت التربية على بيان الحقائق التي تنقض ذلك، فبين الله تعالى أن المصيبة هي اختبار سيصيبك؛ هربت من الموت أم لم تهرب، هربت من المصيبة أم لم تهرب، فلا تحزن على ما أصابك من بلاء، ولا على ما فاتك مما ترجوه، كما لا ينبغي أن تطغى في فرحك بما يصيبك من خير؛ فإن هذا الخير أيضاً ابتلاء واختبار لك، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ[1] لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣][2].

ب. إزالة وهم الخسارة في حالة نزول الموت في الجهاد في سبيل الله، فمِن الإكرام من الله تعالى أن يكتب لك أَجَل الموت مرتبطاً بالجهاد في سبيل الله، فالموت عندئذ ليس خسارة ولا تضييعاً للحياة، بل هو الربح والجزاء العظيم والانتقال إلى دارٍ خيرٍ من الدنيا، قال الله سبحانه: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨]، وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ يدل على أن الأشياء التي تريد تحصيلها في الدنيا؛ تَنال أفضل منها بموتك شهيداً في سبيل الله، فلِمَ تتعلقُ بالحياة الدنيا.

وكم يُعرِّفنا الله ورسوله ﷺ بنعيم الآخرة وما فيها لأهل الشجاعة المجاهدين المُقدِمين على الشهادة، ويزيل عنا وهمَ الدنيا وغرورَها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ[3] ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

وبين النبي ﷺ أن الجهاد والرباط يوماً في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وساعة جهاد يغدو إليها في صباح أو يروح فيها في مساء؛ خير من الدنيا

---

(١) ﴿لكيلا تأسوا﴾: أي حتى لا تحزنوا، ومعنى العبارة: نعلمكم ما سبق ذكره لكيلا تأسوا.

(٢) روى الحاكم في المستدرك رقم ٣٧٨٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في شرح هذه الآية: «ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن من جعل المصيبة صبراً، وجعل الفرح شكراً»، وهو حديث صحيح.

(٣) ﴿ولا تحسبن﴾: أي لا تظن ولا تتوهم.

وما فيها، وأن من قاتَل في سبيل الله بقدر حَلْبِ ناقة وجبت له الجنة، وأن الجنة تحت ظلال السيوف، وبين ﷺ أن الشهيد الذي قُتِل في سبيل الله يكفِّر اللهُ عنه خطاياه إن كان صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدْبِر، وبين أن الشهيد يتمنى الرجوع إلى الدنيا لما يرى من الكرامة، وبين أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، كما بين أن الجنة جنان، والشهيد يصيب الفردوس الأعلى.

كل ذلك أعده الله، وبينه لنا رسول الله ﷺ؛ ليزيل عنا التعلَّق بالدنيا، الذي يمنعنا من الإقدام في سبيل الله.

ج. كثير من الناس يخافون من الكافرين حينما يكون لهم سلطان وقوة، فيَخضعون لما يريده الكافرون، ويسرعون في التقرب إليهم بما يرضيهم، ولو على حساب المبادئ والإيمان والمؤمنين، فبين الله تعالى أن ذلك مرفوض، فلا يجوز إرضاء الكافرين، ولا المسارعة في ذلك، وبين الله تعالى أن واجبنا أن نرضي الله وأن نكون مع المؤمنين، كما بين أن من يتوهم ذلك الوهم ويبني عليه سيندم ويكون خاسراً، وسيكون عمله باطلاً وحابطاً، لأنه وقع في معنى من معاني الكفر، وهو موالاة الكافرين ونصرتهم.

وبين الله تعالى لنا ما يخرجنا من الوهم حينما بين أن الله تعالى أقوى من الكافرين، وأنه كتب النصر للمؤمنين، يأتيهم بجهدهم وأيديهم، أو يأتيهم بتدخل رباني، وأمر لا يقدر عليه البشر.

ثم بين الله عز وجل أن من شأن المؤمنين أنهم لا يخافون لوم أحد من الخَلْق، فلا يبالي المؤمنون المجاهدون إذا حصل مِن الكافرين اتهام لهم، أو حصل مِن بعض مَن ينتسبون إلى الإسلام لومٌ للمجاهدين الذين لا ينافقون ولا يَخضعون للكافر، فالمؤمنون الذين يستحقون النصر لا يلتفتون إلى لوم

أحد، ولا يخافون من معارضة أحد أو مخالفته أو خذلانه، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ (1) فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٦]، وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(2)، فالمؤمن لا يلتفت إلى من يخذله أو يخالفه إذا ظهر الحق له.

د. وحينما ترى قوةَ الكافرين أكبرَ بكثير من قوة المؤمنين، فلا ينبغي أن يؤثر ذلك على قلبك خوفاً وجبناً وخضوعاً لهم، بل أزل هذا الوهم بتذكر أن الله أقوى منهم، وأنهم لا يعجزونه فهو قادر على محقهم وأخذهم، قال تعالى: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا

(1) أي أن يحيط بنا الكافرون، فيقضون علينا.

(2) أخرجه مسلم رقم ١٩٢٠ عن ثوبان ﷺ، وأخرجه رقم ١٩٢٤ عن عقبة بن عامر ﷺ، وفيه: «قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم»، وأخرجه عن معاوية ﷺ بنحوهما رقم ١٩٢٣، وأخرجه البخاري رقم ٦٨٨١، ومسلم رقم ١٩٢١ عن المغيرة ﷺ عن النبي ﷺ بلفظ: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

يُعْجِزُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٩]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ...﴾ [الأنفال: ٦٠]، حتى لا تفهم بأن قدرته تعني تركك للأسباب ولِما ابتلاك به وطلبه منك، وإنما تعمل قدر طاقتك واستطاعتك، وهو القادر على تأييدك ونصرك وإلحاق الهزيمة بعدوك وعدوه.

هـ. وإحقاقُ الحق والجهادُ يحتاج إلى كرم وشجاعة وإقدام في بذل المال، ومن الوهم الذي يقطع الشجاعة ويمنع أسبابها؛ الوهمُ الذي يجعل الإنسان بخيلاً عن بذل المال والإنفاق في سبيل الله لنصرة الدين والمؤمنين، فأزال الله ذلك الوهم حينما بيّن أن البخل ليس خيراً لنا، بل سنعذب بالمال الذي نبخل به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ـ كل ذلك وغيره أوهام تراكمت على عقولنا وقلوبنا وأثرت في سلوكنا، ويجب علينا أن نزيلها بالفكر الصحيح السليم الصادق، والمؤمن يقيم حياته على فكر صحيح واعتقاد صحيح وإيمان صحيح فلا يتوهم، وإنما يتوهم الكافرون لأنهم لا يعقلون ولا يفكرون، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الحشر ١٣-١٤].

ثانياً: الجانب العملي الذي يصنع الشجاعة ويقويها:

أ. الشجاعة حينما تكون فطرية وجِبِلِّيَة عند المسلم فإنه يكون مقداماً بطبعه وعادته، أما من لم يكن شجاعاً فعليه **أن يكتسب الشجاعة وينميها**

بالوسائل التي تعين على ذلك، ومن أهم الوسائل العملية لاكتساب خلق الشجاعة:

١. التشجيع: طبيعة الإنسان الجبان والولد الجبان أنه لا يندفع إلى المواقف المحرِجة والتي يتوقع فيها المفاجآت والخوف، ولا يحب المغامرة، فالواجب تشجيعه ودفعه إلى مثل هذه المواقف، التي يَخاف منها وليس فيها ما يُخيف، كالمشي في الظلمة، والمرور قرب الحيوانات الأليفة، وتبليغ الكلام للآخرين، ونقل الأموال، ونحوها، ولا ينبغي أن يُدفَع الولد إلى المواقف التي فيها خوف فعلاً؛ إذا كان لا يحتمل ذلك، ولا يقدر على مواجهته، لأن ذلك يزيد خوفه وتوقعه للخوف في كل شيء، فيزداد جبناً.

٢. مما يعين على الشجاعة: الرياضة وتقوية الجسد والتدريبات العسكرية؛ فإذا صار الجسد أكثر تحملاً صار أكثر إقداماً، لأنه يتهيأ لظروف القوة والشجاعة ويعتادها، وقد أمر النبي ﷺ بالتسلي بالسلاح والتدرب عليه؛ حتى لمن لم يكن محتاجاً إلى استعماله، فقال ﷺ: «ستفتح عليكم أَرَضُون، ويكفيكم الله، فلا يعجزْ أحدُكم أن يلهوَ بأسهُمِه»(١)، وفي ذلك تعويد للنفس على مواضع الشجاعة وأسبابها.

والتنافس في ألعاب القوى والتدرب على السلاح وسرعة الجري ومهارات الحركات واستعمال الأسلحة؛ التنافس في ذلك يولد الشجاعة ويقويها، وكذلك إجراء المسابقات بين الشباب والفتيان.

٣. مما يعين على الشجاعة: تعويد النفس على المجاهدات والصبر والخشونة، وعدم التعود على التنعم والرخاء والرفاهية، فإن من رَكَن إلى

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩١٨ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الرَّفاهِيَـةِ والتَّنَعُّـم؛ لا يكون شـجاعاً بنفسـه بل يريد الاعتماد عـلى غيره في كل شيء، وقـد ربّى رسـولُ الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على تـرك التنعم، فقال عمـر رضي الله عنه: «وإياكم والتَّنَعُّمَ وزِيَّ أهلِ الشرك»[1]، وقد قيل: «اخشوشـنوا، فإن النعم لا تدوم»[2].

٤. ومصاحبة أهل الشجاعة وقراءة قصصهم وسِيَرهم وعرض مشاهد شجاعتهم وأثرها في نصرة الحق؛ لها أثرها في تقوية قلب الإنسان وشجاعته، ومن أهم ذلك قصص الأنبياء والصالحين في صبرهم وشجاعتهم[3].

٥. الثناء على الطفل ومكافأته ومدحه على مواقف الشجاعة؛ له أثر في تقوية نفسه وتشجيعه، فيحب الشجاعة لما يرى من مدح الناس لها.

ويجب أن يفرَّق بين تشجيع الولد على مواقف القوة والإقدام، وبين تشجيعه على مواقف الاعتداء والظلم والتكبر والتحرش والتطاول، فلا يجوز أن يشجع على الثانية.

ب. يجب على المسلم أن يكون شجاعاً في مواقف، وإذا وجد نفسه جباناً فعليه أن يتكلف الشجاعة في هذه المواقف التي تحتاج إلى الشجاعة، لأن الله أمر المسلم أن يكون قوياً وشجاعاً في هذه المواقف.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ٢٠٦٩، عن عقبة بن فرقد. وقد جاء بهذا المعنى حديث حسن «عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن؛ قال له: إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» أخرجه أحمد رقم والبيهقي رقم وتأكد من لفظه.

(٢) وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أرسل كتاباً مع عتبة بن فرقد إلى أذربيجان، وفيه ما ورد في الحديث السابق، وفيه قوله: «واخشوشنوا»، رواه ابن حبان رقم ٥٤٥٤ بإسناد صحيح.

(٣) أما القصص الوهمية والمشاهد الخيالية؛ فإنها لا تصنع شجاعة، بل قد تُسَبِّبُ تهَوُّراً.

وحينما يتكلف المسلم الشجاعة مرة بعد مرة في هذه المواقف وأمثالها؛ ينمو عنده خلق الشجاعة ويترسخ ويصير سجية وطبعاً بإذن الله.

ومن أهم المواقف والمجالات والسلوكيات التي يتأدب فيها المسلم بالشجاعة ما يأتي:

آداب الشجاع وأعماله

١. من أدب الشجاع: **الشجاعة والقوة وعدم التردد في حماية النفس والحياة والمال والعِرض والدين**، فوجب على المسلم أن يدافع عن نفسه ويمنع الصِّيَال والبَغْيَ والاعتداء على حياته ونفسه، ويمنع من يريد قتله، أو أخذ ماله، أو الاعتداء على عرضه، أو إضاعة دينه، فقال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ»(١).

وإذا وجبت الشجاعة للدفاع عن دينك ومالك وعرضك ونفسك، فالشجاعة في الدفاع عن دين الأمة وأعراضها وأموالها ونفوسها أوجب.

وإذا قام في الناس من يعتدي ويبغي بغير حق، فوجب على الأمة أن تدافع عن نفسها وتقاتله، لتمنع ظلمه، ولا يجوز أن تجبن وتتردد في ذلك ما دامت على الحق والآخرون على الباطل، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

٢. من أدب الشجاع: **الشجاعة في إقامة أعمال ديننا وعباداتنا وشعائرنا**، واستعمال حريتنا وحَقِّنا في ذلك، ونحتاج إلى القوة في تحقيق الأوامر والفضائل،

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذيّ رقم ١٤٢١ ونحوه أبو داود رقم ٤٧٧٢ والنسائي رقم ٣٥٥٧، عن سعيد بن زيد ﷺ، وأخرج البخاري رقم ٢٣٤٨ ومسلم رقم ١٤١ عن عبد الله ابن عمرو قال ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد».

والعزم في التخلص من النواهي والمنكرات والرذائل والهوى، ولا يكون أحدنا خواراً ضعيفاً جباناً في الإسلام، بل يحمل دينه بقوة وشجاعة، فليس في ديننا ما نخجل منه، فكله خير وحق، فكان أمر الله للأنبياء ولأتباع الأنبياء بالشجاعة والقوة والتمسُّك، قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣، والأعراف: ١٧١].

وأمر نبيه ﷺ بالتمسك بالدين، فقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، ومدح الذين يتمسكون من المؤمنين ووصفهم بأنهم مصلحون لأن المتمسك يحرص على الدعوة إلى الخير والصلاح الذي وصل إليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وهذا التمسك لا بد أن يكون فيه صرامة ووضوح، فلا مجاملة للباطل في المبادئ والعقائد والأحكام، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٣. الشجاعة في الدعوة إلى الله وفي النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يخاف من الناس، ولا يَجْبُن عن الدعوة إليها وإلى المعروف الذي يأمر به، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ

وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤-١٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فلا بد أن يكون المسلم شجاعاً في التصريح بكل ما أمر الله به ولا يتأخر في تبليغ شيء من الحق، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وحينما تكون الشجاعة خُلُقاً لأفراد المجتمع، فالكلُّ ينهى عن المنكر، والكل يأمر بالمعروف؛ عندئذ يصير الإصلاح والبناء سهلاً، ويصير الإفساد والهدم صعباً.

٤. من أدب الشجاع: **الشجاعة في قول الحق أمام المستكبرين والظالمين والمجرمين ومَن لا يتوقع منهم الهداية والتوبة**، ولا يهاب الشجاع من قولة الحق أمام حاكم ولا غيره، وقد مدح النبي ﷺ هؤلاء فبين أن فِعلَهم أعظمُ الجهاد، وأنه إن أدَّى إلى الشهادة في سبيل الله فهي أعظمُ شهادةٍ وهي سيادةٌ، قال ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر»(١)، وقال ﷺ: «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله»(٢).

ولا ييأس الداعية الشجاع من أحد، فمهما كان من المتوقع رفض المَدْعُوِّينَ للدعوة والحق؛ فإنه يعظهم عسى أن يرجعوا ويتقوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢١٧٤ وأبو داود رقم ٤٣٤٤ والحاكم رقم ٨٥٤٣ عن أبي سعيد ﷺ، ولفظ الحاكم: كلمة «حق» بدل كلمة «عدل».

(٢) حديث حسن، أخرجه الحاكم رقم ٤٨٨٤ عن جابر ﷺ.

مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

٥. من أدب الشجاع: **الشجاعة في مقارعة أعداء الله وجهادِ المفسدين والظالمين والمعتدين**، فمَن عَرَف الحقَّ يضحي لأجله بنفسه وماله، ولا يحزن لما يصيبه ولا لما يفقد من إخوانه، فلا يصيبه ضعف نفسي ولا جسدي، ولا تذهب شجاعته بعد أن يرى ما أصابه، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ومن عرف الحق يندفع بشجاعة وقوة في نصرته والجهاد في سبيله، فلا يخاف من لوم اللائمين وتثبيط المثبطين، قال تعالى: ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

ومن عرف الحق ينصر الحق ويجاهد لأجله ولا يضره من خذله أو خالفه، قال ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»(١).

ولا بد من الصبر حين البأس والشدة على الضُّر والإصابات التي تصيبك في الجهاد، وهذا الصبر هو من الشجاعة، فقد جعل الله ذلك من وصف المؤمنين المتقين: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩٢٤، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

والجهاد يكفُّ بأس الكافرين، فلا بد أن يقابِل المؤمنون شدةَ الكافرين وبأسَهم بالشدة والبأس، حتى يقمعوا القوة بالقوة، مستعينين بالله، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٤]

وإنما يتصف بالجبن من كان منافقاً، والمؤمن لا يقبل النفاق ولا أخلاق النفاق، وقد وصف الله المنافقين بأنهم يفرون من القتال والجهاد ويتعذرون: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ووصفهم بأنهم يجبنون فليس عندهم استعداد لبذل القوة وتحمل الشدة لأجل الله ودينه، ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨]، قلوبهم مليئة بالجبن والخوف والرعب: ﴿أَشِحَّةً[1] عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وذم الله الجبن عن ملاقاة العدو حينما ذم الخوف الذي يتسبب به، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

٦. من أدب الشجاع إذا صار والياً وحاكماً على المسلمين: **الشجاعة في اتخاذ قرارات الأمة المتجردة عن تأثير أعدائها**، فيتخذ قرارات الانتفاع من

---

(١) ﴿أشحة عليكم﴾: أي بخلاء عليكم، في العمل والمال، فيبخلون بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله.

خيرات البلاد وثرواتها، ويتخذ قرار الاستفادة من طاقات علمائنا وإمكانيات شعوبنا، ويتخذ قرار وحدة أمتنا وشعوبنا وبلادنا، ويتخذ قرار التقوي والترقي والتقدم المدني والعسكري، فلا يهاب الظالمين ولا يركن إليهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣] ولا يجعلهم موضع ثقته ومشورته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١) [آل عمران: ١١٨]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، ولا يخون الأمانة التي ولاه الله إياها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ويقوم بحق رعيته: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(٢).

٧. من أدب المرأة والفتاة الشُّجاعة: **أن تحفظ نفسها على العفة**، وتحفظ أنوثتها طاهرة من الفاحشة، وترد السفهاء والفاسدين والشهوانيين عنها وتقمعهم بشدة وشجاعة.

٨. من أدب الشجاع: **الشجاعة في المواقف التي تُبْقِي على أخلاق الرجولة والشهامة والنخوة والغيرة والمروءة**، ويحفظ نفسه من السقوط في الشهوات المحرمة، ويحفظ نفسه من الاستسلام للأعداء، أو الانقياد لهم بإغراء المال والشهوات والجاه والمناصب، ويحفظ نفسه من الركون إلى السفاسف والتَّرَفِ، الذي يضيِّع العزيمة والهمة، ويُنسِي مقصد الحياة ومعاليها، فيكون صادقاً ثابتاً

(١) ومعنى الآية أنه لا يجوز أن يجعل المسلمون لهم مستشارين ومقربين يعتمدون عليهم من الكافرين، فإنهم لا يقصرون في إفساد حالنا، ويتمنون ما يتعبنا ويؤذينا.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٤١٦ ومسلم ١٨٢٩ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

٩. من أدب الشجاع: **الشجاعة وقوة القلب لتحقيق مطالب الدنيا المشروعة**، فلا يسمح بأن يعتدى على ماله بغير حق، ولا يجبن عن الدفاع عن حقه، ويفرق بين مخطئ وضعيف، يعفو عنه ويسامحه، وبين معتد ومتعمد، يحتاج إلى تأديب وعقاب وشجاعة في مجابهة فساده واحتياله وتسلطه.

جاء رجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقَال: يا رسول الله أَرأَيت إنْ جاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مالي ؟ قال: «فَلا تُعْطِهِ مالكَ» قال: أَرأَيْتَ إنْ قَاتلني؟ قال: «قَاتِلْهُ» قال: أَرأَيت إن قَتلَني؟ قال: «فَأَنْت شَهيدٌ» قال: أَرأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ ؟ قال: «هُوَ في النَّارِ»(١).

(١) أخرجه مسلم رقم ١٤٠ عن أبي هريرة ﷺ.

فهرس الموضوعات

المرحلة الأولى مرحلة الطالبين

الباب الرابع التزكية الأخلاقية

الفصل الأول

الأخلاق المحمودة وآدابها وما يحقق بها والأخلاق المذمومة